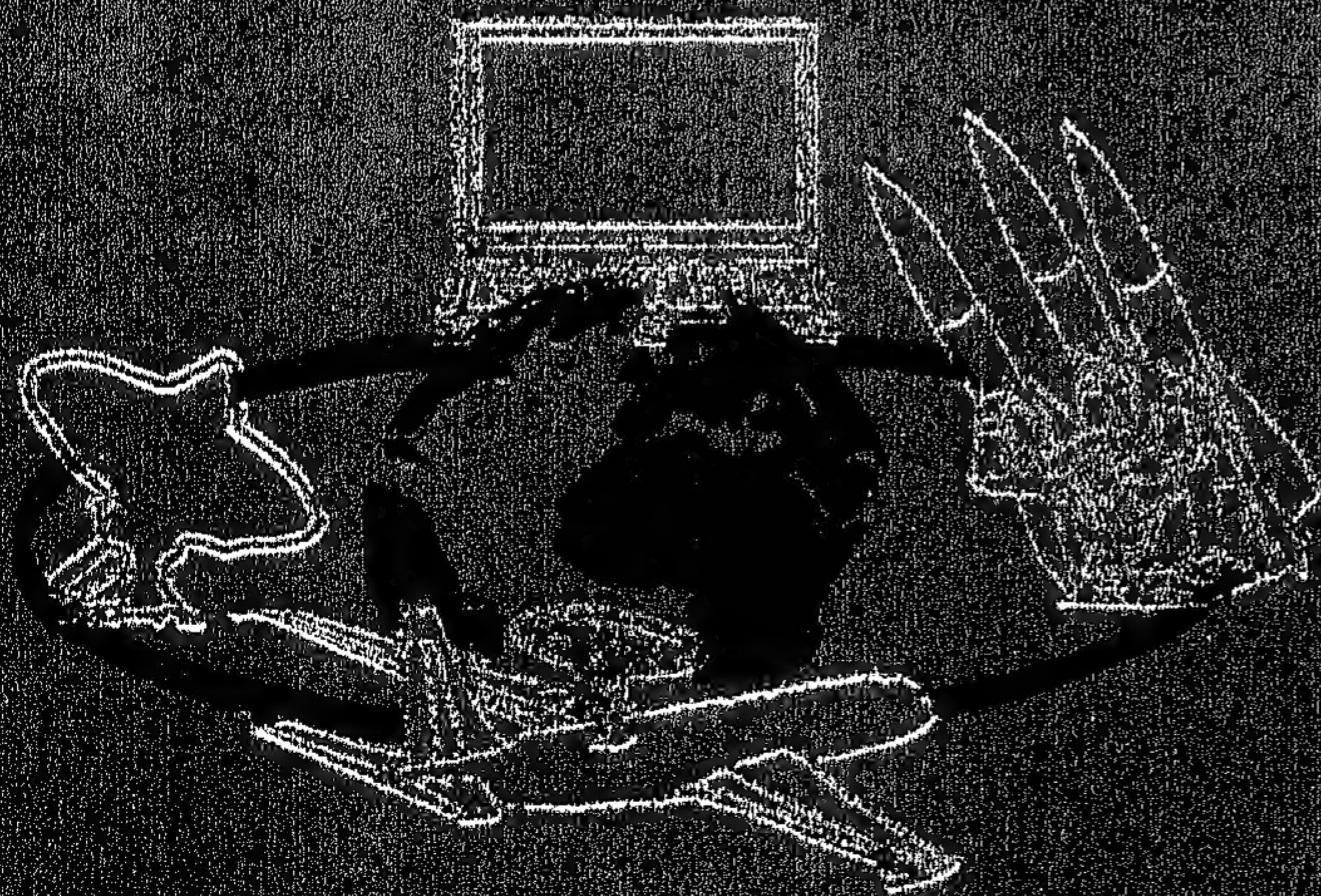
موسوعة
عالم المخابرات
كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم



MOBILIS

موسوعة عالم المخابرات

كلّ شيء عن الجاسوسيّة والاستخبارات في العالم

الإستخبارات البريطانيّة

أسعَد مفرِّج

ولجنة من الباحثين

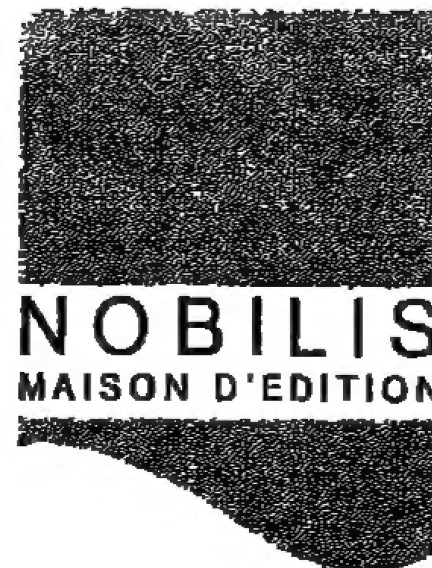
موسوعة

عالم المُخابَرات

كلُّ شيء عن الجاسوسيّة والاستخبارات في العالَم

الجزء العاشر

الإستخبارات البريطانيّة



إسم المَجموعَة : عَالَـــــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارَات في العَالَم

إسم الكِتَاب : الإستخبَارَات البَريطَانيَّة

الجِزء : العَاشر

المؤلّف : أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين

قياس الكتَاب : ٢٠ × ٢٨

مكَان النَّشر : بيروت

دَار النَّشر والتَّوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١

: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

نشأة المخابرات البريطانيّة

يؤكّد معظم المصادر على أنّ أقدم وأعرق استخبارات في العالم الحديث، منذ النهضة، هي الاستخبارات البريطانيّة. حيث تأسّست عام ١٥٧٣ على يد السير "فرنسيس والشينغهام"، وزير الدولة والمستشار لدى الملكة إليزابيث الأولى.

والواقع أنّ أوّل وأهمّ عمل قامت به استخبارات فرنسيس والشينغهام في تلك الأيّام الغابرة، كان التجسّس على "ماري ستيوارت" ومصادرة الرسائل السريّة الواردة إليها في براميل البيرة. وبفضل المعلومات القيّمة، قتلت إليزابيث عدوّتها ماري ستيوارت، ومدّدت رجليها على العرش...

نظر فرنسيس والشينغهام إلى مهمّته بجديّة بالغة منذ البداية. فراح يوظّف أذكى المتخرّجين من طلّاب أكسفورد وكامبريدج ويرسلهم إلى الخارج للتغلغل في قصور أعداء التاج البريطانيّ. وفي العام نفسه، كان فرنسيس والشينغهام يقدّم إلى ملكته تقريرًا مفصّلاً جدًّا عن الأسطول الإسبانيّ الذي كان يرهب بريطانيا والعالم في تلك الأزمنة. وبالنتيجة طار الأسطول الإسباني من الوجود.

بعد انقضاء ستّ وعشرين سنة على ذلك، كان خليفة فرنسيس والشينغهام "جون تورلو"، يقوم باستخبارات حسنة التمويل، وكانت النتيجة أن أصبح وزيرًا للدولة لدى "أوليفر كرومويل"، وقد أحبط مؤامرات كثيرة من تدبير "تشارلز ستيوارت"...

حتّى هذه الأيّام، تبدو المخابرات البريطانيّة شديدة التعلّق بتقاليد الماضي، ولو أنّها تعمل في عصر الذرّة والإلكترون. أمّا الوضع الحاليّ لهذه المخابرات، فهو من إنتاج العصر المتقدّم، حيث تقسم أجهزتها في بريطانيا إلى أربعة أقسام، على الشكل التالي:

١ ـ جهاز MI-6، ويتبع وزارة الخارجيّة مباشرة، وتنحصر مهمّته في الخارج.

٢ ـ جهاز الأمن MI-5 ويتبع لوزارة الداخليّة، ويقوم بمهمّة "مكافحة الجاسوسيّة"، في الداخل.

هذان الجهازان تأسّسا قبل الحرب العالميّة الأولى وتحديدًا في حوالى ١٩٠٩. وقد تأسّس جهاز MI-6 برئاسة السير "مانسفيلد كامينغ" وتلقّى الأموال اللازمة له لتسلّم مسؤوليّة كلّ أعمال التجسّس خارج نطاق الأمبراطوريّة البريطانيّة، وهو أمر لا تزال تقوم به المؤسّسة حتّى اليوم. وقد كان كامينغ في شبابه ضابطًا خدم في البحريّة واشترك في حملات قامت بها بريطانيا في مصر والملايو.

أمّا جهاز الأمن MI-5 فقد تأسّس في الظرف نفسه بقيادة السير "فيرنون كيل"، وهو ضابط اشترك في قتال الصين أثناء ثورة البوكسر سنة ١٩٠٠. هذا الجهاز تأسّس بتمويل وزارة الحربيّة، كما كان مسؤولاً عن مكافحة التجسّس ضمن بريطانيا والأمبراطوريّة. وهذه المهمّة لا تزال قائمة حتّى الآن، رغم تقلّص الأمبراطوريّة. وقد بدأ فيرنون كيل العمل لوحده. لكنّ تطوّر الأمور، والقبض على الجواسيس الألمان، أوصل عدد المساعدين عند نهاية الحرب العالميّة الأولى إلى ٨٠٠ شخص. وقد بقي كيل في منصبه حتّى العام ١٩٤٠، وعندما استقال، كان عدد أفراد مؤسّسته قد بلغ حوالى السبعة آلاف.

٣ ـ المديريّة العامّة للاستخبارات أو "مديريّة جهاز الاستخبارات"، وتتبع وزارة الدفاع.

٤ ـ الجهاز المتعارف عليه باسم "سكوتلنديارد"، وهو متخصّص في الشؤون الداخليّة ذات الطابع الاقتصاديّ والجزائيّ العام. وله علاقة بالجهازين الأوّلين. وقد تأسّس عام ١٨٨٦ للعمل على تحطيم النشاط الجمهوري الإيرلندي في قلب بريطانيا. وتطوّر منذ ذلك الحين ليصبح الإدارة الدقيقة والفاعلة في مقاومة الحركات السريّة المشبوهة، بالإضافة إلى كشف الجرائم والجنح.

وفي صيف ١٩٤٠، أنشئت "إدارة العمليّات الخاصّة"، كهيئة مستقلّة عن الاستخبارات وجهاز الأمن، بناء على أمر شخصيّ من ونستون تشرشل إلى وزير الاقتصاد الحربي "هيو دالتون"، والذي جاء فيه بالمختصر: "إجعل أوروبّا طعمًا للنار".

وقد كان لإدارة العمليّات الخاصّة أسماء مستعارة كثيرة للتمويه على مكان مقرّها الرئيسيّ في شارع "بيكر"، منها "مكتب الأبحاث"، و"المجلس المشترك للشؤون التقنيّة"... ووراء هذه الإدارة كان هناك عقل رئيسيّ يديرها هو "السير كولين غابينز"، وهو ضابط في الجيش. لكنّ هذه الإدارة أنهيت أعمالها وألغيت من الوجود بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية. وقد بقيت محفوظاتها مغلقًا عليها في مكان سرّي. إلاّ أنّ ملكميلان، بعد ما أصبح رئيسًا للحكومة، فقد سمح بإصدار كتاب عنها أثار عاصفة من النقمة والاعتراض في كلّ من بريطانيا وفرنسا، لأنّ المواضيع التي عالجها هذا الكتاب أظهرت مدى الإشراف البريطانيّ على حركة المقاومة الفرنسيّة ضدّ الاحتلال النازيّ.

وقد ظهر من خلال ذلك، أنّ أجهزة الاستخبارات البريطانيّة لا تخضع دومًا لسلطة الحكومة، بل كثيرًا ما تخضع الحكومة لسلطانها...

والحقيقة أن الاستخبارات البريطانيّة قامت بكثير من عمليّات الإرهاب والفحش والقذارة الصرفة، على حدّ قول بلوش، وهي العمليّات التي تمّت لحماية مصالحها

المفترضة، ذات الطابع الاقتصاديّ في الغالب، عندما بدأت الأمبراطوريّة الأسطوريّة بالسعال والحشرجة قبل أن تهوي في القبر...

وقد وصل الأمر بهذه المخابرات إلى أنّه لم يكد يمرّ يوم واحد عليها منذ الحرب العالميّة الثانية، دون أن يكون للروس موظّفون في إداراتها... وبالرغم من سرّيتها المبالغ فيها، فقد تعرّضت الاستخبارات البريطانيّة لعمليّات اختراق، قلّما تعرّض لها جهاز استخباريّ آخر في التاريخ، خاصّة بعد أن تمكّنت المخابرات السوفياتيّة من تجنيد "مدير المخابرات البريطانيّة" بالذات، "روجر هوليس"، للعمل في خدمتها، على رأس فريق "مكافحة الجاسوسيّة السوفياتيّة"، وكان رؤساؤه بأجمعهم من عملاء السوفيات، ممّا وجّه ضربة قاسية جدًّا لهذه المؤسّسة البريطانيّة التي بالغت في الثقة بنفسها إلى حدّ كبير، ولم تعد بالتالي موضع ثقة من قبل حليفاتها الغربيّات، خاصّة الأميركيّة منها. ولكن رغم ذلك، يبقى للمخابرات البريطانيّة دورها وأهميّتها ونجاحاتها الكثيرة، التي يصعب على أيّ إنسان نكرانها أو تجاهلها، مهما بلغت درجة عدائه لها[١].

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص١٣٦ ـ ١٣٩؛ بلوش جوناثان وفيتزجيرالد باتريك، الاستخبارات البريطانيّة وعمليّاتها السريّة، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسّسة الأبحاث العربيّة (بيروت،١٩٨٧) ٩ ـ ١٤؛ عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت، لا.ت.) ص٢٤٤.

مهمّاتُ أجهزَةِ المخَابرَاتِ البَريطَانيَّة

جهاز المخابرات البريطانيّ MI-5 هو، إذن، المختص بالأمن ومقاومة التجسّس في بريطانيا. تأسّس عام ١٩٠٩ في الوقت الذي رأت فيه وزارة الحربيّة البريطانيّة أنّ الصراع الأوروبيّ المستمرّ يتطلّب وجود عمليّات التجسّس المضادّ، وأنّ عمليّة تطويق الجواسيس الألمان بعد وقت قصير من اندلاع الحرب العالميّة الأولى كانت تتمّ من خلال عمليّة تجنيد واسعة للجواسيس الألمان الذين يصلون لبريطانيا، وغالبًا كانوا يَقبلون بالعودة لبلادهم في مقابل تقديم معلومات مضللة للقيادات الألمانيّة بدلاً من أن يتمّ أسرهم.

إنّ أسس التجنيد في إدارة المخابرات السريّة MI-6 وMI-5 متشابهة للأسس المطبّقة في أفواج الجيش البريطانيّ المتميّزة اجتماعيًّا، فإنّ الخلفيّة الاجتماعيّة والنشأة التربويّة تعتبران هامّتين، كما تلعب الصلات العائليّة دورًا ذا أهميّة كبرى. وفي أثناء مرحلة التعليم تبدو بوضوح أهميّة الذكاء والقابليّة والاستعداد للعمل في المخابرات، كما تُعتبر الأخلاق عنصرًا حيويًّا، فالشخص ذو الأخلاق الطيّبة الذي له خلفيّة اجتماعيّة تنتمي إلى الطبقات فوق المتوسّطة أو طبقات ملاّك الأراضي يعتبر بأصالته مواليًا للنظام الملكيّ البريطانيّ، لذا يأتي الضبّاط المنفّذون لإدارتي المخابرات البريطانيّة أساسًا من عائلات ذات تاريخ طويل في خدمة المملكة البريطانيّة، أمّا الضبّاط المنفّذون من المستوى الأقلّ، فيقومون بأداء الخدمات والأعمال اليوميّة، وهم يُجنّدون أساسًا من ضبّاط الصفّ في القوّات المسلّحة والشرطة، أو من بين الرتب

الأدنى من العاملين في إدارة الخدمة الأجنبيّة. وفي حين أن الانضباط العسكريّ أقل تطبيقًا عنه في القوّات المسلحة، إلاّ أن هناك وعيًا متأصلاً بالرتب والمناصب ممّا يتيح لإدارتَي المخابرات أن تعملا دون المحافظة على الرسميّات الزائدة في مظهرها الخارجيّ.

تخضع إدارة المخابرات السريّة من الناحية الواقعيّة لرئيس الوزراء البريطانيّ، ومن الناحية الشكليّة لوزارة الخارجيّة والكومنولث. وتوجد نسبة كبيرة من كبار ضبّاط إدارة المخابرات السريّة ممّن يعملون في الخارج تحت الستار القانونيّ لمناصب العاملين في السفارات البريطانيّة ولهم مظهر الثقة بالنفس بدرجة تكاد تكون نوعًا من الغطرسة أكبر ممّا توحي به مناصبهم المزعومة في السفارات البريطانيّة، ويقومون بتأسيس وتشغيل شبكة العملاء العاديّة التي تتكوّن من السكّان المحليّين المبثوثين في مراكز هامّة في القوّات المسلّحة وقطاعات الأعمال والمصالح المدنيّة والصحافة، وهم نادرًا ما يتعاملون مع هؤلاء العملاء مباشرة ولكن من خلال وسطاء مجنّدين محليًّا، ولهؤلاء ميزة التحرّر من الحفلات الدبلوماسيّة حتّى يتفادوا الوقوع تحت المراقبة الدائمة لإدارة مكافحة التجسّس في الدولة التي يعملون فيها.

أمّا الإدارة البريطانيّة لمكافحة التجسس MI-5 فيتمّ تزويدها بحاجتها من كبار الضبّاط من الأعضاء السابقين في الشرطة الذين كانوا يعملون في المستعمرات البريطانيّة في ما مضى، أو في إدارة المخابرات. أما الرتب الأقلّ فيُعيّن فيها عدد كبير من الشابّات ممّن لهنّ خلفيّة طيّبة من الطبقات الاجتماعيّة فوق المتوسّطة واللاتي يخدمن عدة سنوات بعد ترك المدارس إلى أن يتزوجن، أما اللاتي لا يتزوجن فيمكن لهنّ الترقّي في المناصب إلى أن يصلن في منتصف العمر إلى مراكز المسؤوليّة الفعليّة، أمّا من ناحية الأعمال الروتينيّة التقليديّة الخاصة بالأمن والمراقبة على

المستويات المنخفضة، فيقوم بها مجنّدون من قوّات الشرطة والقوّات المسلّحة والحرس الوطنيّ والاهتمام بعنصر الأصالة والرغبة في الخدمة بلا مكافأة وبدون استحقاق من أهمّ العناصر التي يجب توفرها في المجنّد، ويلاحَظ بأنّ تقلّص الوجود الاستعماريّ البريطانيّ وانحسار السيطرة عن معظم الدول التي كانت مستعمرة، قد أثّر في استيعاب المجنّدين عمّا كان عليه في السابق، ونتيجة لذلك تُتّخذ أساليب بديلة في التجنيد.

تتشابه الشروط التي تسعى إدارتا المخابرات البريطانيّة MI-5 وMI-6 في توفيرها في الأشخاص المطلوبين للعمل فيها من عدّة جوانب، فهم عادة ممّن يهتمّون بالسياسة ولكنّهم يميلون إلى المحافظة، وهم يؤمنون بخدمة بلادهم، ومعتادون على العمل في نطاق مؤسّسة يشعرون "بأبوّتها" لهم، ولديهم قناعة تامّة بأنّه ليس من المحتمل أن تحقّق أجهزة المخابرات البريطانيّة لنفسها السلطة بالتربّع على عرش الحكم وإدارة شؤون بريطانيا مثلما فعلت وكالة المخابرات المركزية الأميركية CIA والمخابرات العامة KGB في الاتّحاد السوفياتيّ.

وتتلخّص مجالات نشاط أجهزة المخابرات البريطانية في:

أولاً: الدفاع: جميع استخبارات الدفاع المستترة والمكشوفة من كافّة الأنواع.

ثانيًا: وزارة الخارجية: التجسس المرخّص به بالوسائل المكشوفة من جانب ممثلي بريطانيا الرسميّين في الخارج.

ثالثًا: الفرع الخاص: يتعامل مع مصادر التهديدات الداخليّة التي تهدّد أمن الدولة.

رابعًا: منسّق المخابرات: يقوم بتقييم وتوزيع، على أعلى مستوى، المعلومات الاستخباريّة المستترة التي يقدّمها مكتب DA-5، DA-6.

خامسًا: MI-5 أو DA-5: مسؤول عن مكافحة التجسّس في الأراضي البريطانيّة.

سادسًا: MI-6 أو DA-6: مسؤول عن جميع الاستخبارات المستترة ومواجهة الأنشطة الهدّامة في الأراضي غير البريطانيّة.

أما الجهاز المتعارف عليه باسم "سكوتلنديارد" فهو متخصص في الشؤون الداخليّة ذات الطابع الاقتصاديّ والجنائيّ العام، وتربطه علاقة بكل من جهازَي MI-5 وMI-6 حيث تأسّس عام ١٨٨٦ للعمل على تحطيم النشاط الجمهوريّ الإيرلندي في قلب بريطانيا، وتطوّر منذ ذلك الحين ليصبح الإدارة الدقيقة والفاعلة في مقاومة الحركات السريّة المشبوهة بالإضافة إلى كشف الجرائم والجنح[1].

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣) ص١٣٢ ـ ١٣٥.

لورَنس العَرَب

عندما حدّد مؤتمر "كامبل بنرمان" البريطانيّ عام ١٩٠٧ الأهميّة الاستراتيجيّة للمنطقة العربيّة كمنطقة حيويّة للأمبراطوريّات الاستعماريّة للتحكّم بقارّتي آسيا وأفريقيا، أدركت بريطانيا هذه الأهميّة التي دفعتها للإسراع في اتّخاذ الخطوات التي تضمن لها أفضل النتائج على الصعيد العمليّ.

وعندما كانت "جميع الاكتشافات مع دقّتها لم تستطع الحلول محلّ الإنسان الذي يبقى العنصر الأساسيّ في حقل الاتّصالات والشيفرة"، لجأت بريطانيا إلى إرسال من وجدت فيهم الكفاءة الفائقة في تنفيذ مطامعها وأهدافها، باعتبارهم أخصّائيّين في المجال العلميّ، يمارسون من خلاله مهنة الاستخبارات، في مختلف الحقول التي تعتمد عليها الدبلوماسيّة الإنكليزيّة خدمة لمصلحتها أوّلاً وللصهيونيّة ثانيًا. وعلى هذا الأساس، كان الدكتور "دايفيد جورج هوغارث" و"توماس إدوارد لورنس"، الذي لُقّب بـ"لورنس العرب"، في طليعة الرجال الذين قدّموا لبريطانيا وللصهيونيّة معًا خدمات تعجز عن تحقيقها مؤسّسات كبيرة. لذلك فهما يُعتبران من أشهر رجال بريطانيا العظماء. إلاّ أنّ الأهميّة الأولى في هذا المجال حاز عليها لورنس نظرًا للمنجزات الهائلة التي قام بها، حتّى غلب عليه في ما بعد إسم "لورنس العرب".

وُلد لورنس في مقاطعة ويلز البريطانيّة في ١٦ آب ـ أغسطس ١٨٨٨. وهو إبن غير شرعيّ للسيّد "توماس روبرت تشلبمان" من السيّدة "سارة مادن"، مربّية بناته

الأربع من زوجته الأولى. إلاّ أنّ توماس غيّر اسم عائلته بعدما هاجر من إيرلندا إلى إنكلترا وأصبح يُعرف باسم لورنس منذ ذلك الحين.

في شهر تشرين الأوّل ــ أكتوبر ١٩٠٧، التحق لورنس بكليّة يسوع في أوكسفورد. وهناك سجّل لنفسه عدّة اكتشافات رائعة عندما كان يقوم بأعمال التنقيب عن الآثار تحت مياه البحر. واستطاع من خلال ذلك أن يسترعي انتباه بعض مشاهير علماء الآثار الذين كانوا يتمتّعون بمراكز هامّة في الاستخبارات البريطانيّة، وعلى رأسهم الدكتور "دايفيد هوغارث" أستاذ لورانس، وكذلك "ليونارد وولي".

كان هوغارث ضابط الاستخبارات البريطانيّة المتخصّص بشؤون الشرق الأوسط، وكانت معلوماته عن أوضاع البلدان العربيّة في ظلّ الحكم العثمانيّ لا تُضاهى في ذلك الحين. فقد أمضى هوغارث وقتًا طويلاً يدرس أحوال هذه المنطقة من النواحي السياسيّة والوطنيّة والدينيّة والتحرّكات السريّة ونوعيّة قياداتها ونشاط الألمان والفرنسيّين والبوليس السرّي التابع لهم وطبيعة الأرض الإسلاميّة ونفسيّة الحكّام والعسكريّين فيها، وجوّ المعارك المتوقّع في حال نشوب حرب.

والواقع أنّه كان للدكتور هوغارث تأثير هامّ على مجرى حياة لورنس. كما لم يكن ذلك بعيدًا عن نشاط الاستخبارات البريطانيّة في محاولتها كسب لورنس إلى صفوفها، حيث أشارت إلى أستاذه بضرورة الاهتمام به بعد نجاحاته واكتشافاته وتفوّقه، وتجيير كلّ ذلك لصالح السياسة البريطانيّة بمجملها. وهكذا تمكّن لورنس بواسطة هوغارث من الحصول على منحة خوّلته الاشتراك في رحلة "علميّة" للقيام بالبحث والتنقيب عن الآثار في وادي الفرات. كانت هذه البعثة برئاسة الدكتور هوغارث نفسه، الذي عيّن لورنس مشرفًا على فرق العمل التي كانت تتألّف من الأكراد والتركمان والأرمن والعرب، وقد نجحت هذه البعثة في العثور على مدينة "كركميش" التي كانت قديمًا

عاصمة الأمبراطوريّة الحثيّة... هذا ويضمّ متحف أشمولين في أوكسفورد الكثير من الآثار التي "وهبها" لورنس إليه لعرضها فيه قبل أن يبلغ العشرين من عمره.

في معرض الإشارة إلى هذه البعثة، يقول الأستاذ "زهدي الفاتح":

"ظلّت مهمّة هذه البعثة سرًّا دفينًا، إلاّ أنّ أفرادها كانوا يعملون في مناطق مهمّة للغاية عسكريًّا واستراتيجيًّا. ويمكن تشبيه مهمّة هذه البعثة ومموّلها بأيّ بعثة أميركيّة مماثلة في هذه الأيّام تموّلها المخابرات المركزيّة الأميركيّة"[1].

الجدير بالذكر أنّ لورنس تعرّف على جميع المواقع الاستراتيجيّة التي كانت موجودة في المنطقة بأسرها. كيف لا، وهو الذي تجوّل في جميع أرجاء المنطقة سيرًا على الأقدام يشاهد مواقعها ويدرس ويدقّق ويبحث حتّى أصبح مرجعًا للمعلومات الدقيقة عن منطقة الشرق الأوسط وطبيعة تكوينها ومعالمها الطوبوغرافيّة. وقد بلغ حدًّا من النشاط جعل الأتراك يرتابون بأمره في عام ١٩١٢، عندما شعر بملاحقته ومراقبته من قبلهم، وكتب إلى أستاذه هوغارث يقول:

"هذه الدولة العجوز ما زال فيها بعض حياة بعد... إنّها تراقبني".

من خلال هذه الكلمات تتوضّح مهمّة لورنس بالتحديد، وتتجاوز العلاقة "العلميّة" بينه وبين أستاذه إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، عبر استغلال اختصاصه بتوجيهات إستخباريّة يمثّل هوغارث حلقة الاتّصال المركزيّة فيها. ولو كان نشاطه بعيدًا عن هذا الواقع، لما أظهر قلقه وخوفه من المراقبة العثمانيّة ليبلّغ الاستخبارات البريطانيّة وحدها بما يتعرّض له من مضايقات.

---

١ ـ الفاتح زهدي، لورنس العرب على خطى هرتزل، دار النفائس (بيروت،١٩٧١)

عبّر لورنس نفسه عن طبيعة العلاقة الوثيقة التي ربطته بالاستخبارات عبر أستاذه، عالم الآثار، حيث ألحق بمدرسة الإرساليّين الأميركيّين في جبيل لتحسين لغته العربيّة. إلاّ أنّه قال في ذلك:

"لسبب ما، يريدني هوغارث أن أتقن العربيّة".

وبالفعل، فقد توضّح هذا السبب في ما بعد عندما عمدت الإستخبارات البريطانيّة إلى تحويله من عالم آثار إلى عسكريّ خبير في شؤون المنطقة. وفي هذا المجال برزت موهبة لورنس العسكريّة النابعة من معرفته بكلّ التفاصيل الدقيقة المتعلّقة بمنطقة عمله. لذلك عُيّن في دائرة الخرائط التابعة لرئاسة القوّات البريطانيّة في الشرق الأوسط، حتّى أنّ الضبّاط أنفسهم كانوا يستشيرونه بشأن أيّ خطّة يريدون الاتّفاق حولها. مع العلم بأنّه كان واحدًا من فرقة خاصّة تتألّف، إلى جانبه، من "ليونارد وولي" و"نيكومب".

عهد إليه الإنكليز مهمّة القيام بوضع الخرائط، خاصّة تلك المتعلّقة بشبه جزيرة سيناء، بعد توغّلهم فيها متخفّين. ونجحوا في ذلك نجاحًا كبيرًا.

بالإضافة إلى كلّ ذلك، فقد شغف لورنس بمطالعة الكتب العسكريّة ووقائع الحروب والتعمّق في دراستها واستيعابها.

ونظرًا لتأثّره بها، فإنّه اختار موضوع الهندسة المعماريّة العسكريّة التي شيّد الصليبيّون قلاعهم بموجبها، موضوعًا لأطروحته الجامعيّة تحت عنوان "قلاع الصليبيّين"، ونال عليها مرتبة الشرف الأولى، لأنّه اعتمد فيها على التشويه والتزوير قائلاً بأنّ الصليبيّين هم الذين نقلوا إلى الشرق الأوسط علوم الهندسة الحربيّة من الغرب...

وفي كانون الثاني - يناير ١٩١٤، انخرط لورنس رسميًا في سلك الاستخبارات البريطانيّة العسكريّة، ونُقل من قسم الخرائط إلى دائرة المخابرات السريّة التي كان عملها منحصرًا في المناطق التي يحتلّها الأتراك، حين عُيّن رئيسًا لأحد فروع تلك الدائرة.

ولكي يكون جديرًا بالمسؤوليّة الجديدة وناجحًا في تنفيذ سياسة أسياده، فإنّه سعى لتجنيد عدد من الشبّان المحليّين في دائرته انطلاقًا من التسهيلات المتوفّرة لهم في التوغّل إلى ما وراء المناطق المحتلّة والخروج منها بعد حصولهم على كافّة المعلومات المطلوبة.

وبالإضافة لذلك، فإنّه تولّى عمليّة استجواب أسرى الأتراك توصّلاً إلى معرفة أماكن قوّاتهم وعددها. وبالفعل، فقد نجح لورنس في هذا المجال نجاحًا كبيرًا، واعتُبر رجل مخابرات من الطراز الأوّل... في الوقت الذي شكّلت فيه الحرب العالميّة الأولى نقطة بارزة في تاريخ الاستخبارات. "قبلها، كان هذا العلم ذا أهميّة ثانويّة، في حين أصبح بعدها يشكّل دعامة في مقدّمة الدعامات، في الحرب كما في السلم. لم تعد الاستخبارات وفنونها المختلفة كما كانت قبل الحرب طفلاً يحبو متلمّسًا طريقه... أصبحت مكتملة النموّ، شديدة البأس، تعتمد على نفسها ويعتمد عليها الآخرون. وهذا ما أدّى في ما بعد إلى التفاعل المستمرّ بينها وبين المعلوماتيّة".

بلغ لورنس في عمله الاستخباريّ هذا مرتبة عالية، وكانت علاقاته المباشرة مع القادة الإنكليز، سياسيّين وعسكريّين، لها الطابع الفاعل والمؤثّر على مجمل السياسة البريطانيّة، من خلال لقاءاته مع اللورد كيتنر، المقيم البريطانيّ في مصر، والدكتور هوغارث ضابط الاستخبارات المتخصّص بشؤون الشرق الأوسط، والكولونيل

غيلبرت كلايتون رئيس قلم الاستخبارات البريطانيّة في القاهرة، والآنسة غروترود بلّ، المستشارة السياسيّة للسير بيرسي كوكس رئيس المكتب السياسيّ في الشرق بصورة غير رسميّة، والكولونيل بيتش الضابط البارز في قسم الاستعلامات التابع للفرقة التي يقودها الجنرال تاونسند... بالإضافة إلى عدد من زملائه العلماء أمثال "مارك سايكس"، و"لوبري هوبرت"، و"كورانواليس"، و"تيوكومب"، و"ليونارد وولي"، و"لويد جورج"...

هذه الشبكة الاستخباريّة التي لعب فيها لورنس الدور البارز، كان لها أهميّتها الكبرى لإنكلترا، إذ كانت بمثابة عيونها وآذانها وأصابعها في المنطقة العربيّة. حتّى أنّها شاركت عمليًّا في المعارك العسكريّة أثناء الحرب العالميّة الأولى في الوقت الذي كانت فيه تمارس عمل التجسّس والاستخبارات.

في معرض ذلك، يقول "إيسر هاريل"، رئيس الاستخبارات الإسرائيليّة السابق:

"إنّ شبكات الجاسوسيّة ما هي إلاّ نوع من الحرب الباردة، ولكنّها حرب أدمغة لا. حرب سلاح ونار".

وبالفعل، فقد كان لورنس دماغ بريطانيا في المنطقة العربيّة. وبرز دوره الكبير في الحرب العالميّة الأولى من خلال أيّ مهمّة كُلّف بها، إنّ كان ذلك في مصر أو العراق أو سوريا أو في الجزيرة العربيّة. كما برز نشاطه واضحًا في المجال السياسيّ والعسكريّ والاجتماعيّ والاستخباريّ دون أيّ تقصير أو إهمال.

وانطلاقًا من التوجيهات التي تلقّاها لورنس من المخابرات البريطانيّة، فإنّه زعم مناصرته للقضايا العربيّة والوقوف بجانب قادة الثورة ضدّ الأتراك دفاعًا عن الحقّ العربيّ. بيد أنّ ذلك لم يكن إلاّ حلقة في سلسلة تهدف إلى تطويق المنطقة وخنقها

وربطها بالمشاريع الاستعماريّة البريطانيّة وتفويت الفرصة على الفرنسيّين. وقد عبّر لورنس عن ذلك في رسالة بعث بها إلى الدكتور هوغارث، أعرب فيها عن مخاوفه من أطماع فرنسا في الشرق الأوسط قائلاً: "إنّني أرى أنّ فرنسا لا تركيا هي عدوّتنا في ما يتعلّق بسوريا".

كما كان يكثر من الظهور باللباس العربيّ سواء في القاهرة أو غيرها من المدن العربيّة والأجنبيّة، خاصّة في باريس أثناء انعقاد مؤتمر السلم، كي يلفت الأنظار إلى شخصه أكثر من اللزوم... وقد رفض ارتداء الملابس العسكريّة عندما اشترط عليه الجنرال "ويميس" قائد القوّات البريطانيّة في مصر ذلك عند مرافقته إلى الخرطوم في السودان للقاء الجنرال "وينغات" القائد العامّ للقوّات البريطانيّة في شبه الجزيرة العربيّة.

الواقع أنّ تصرّف لورنس بهذا الشكل كان نابعًا من سياسة المراوغة والدجل البريطانيّة لإيهام العرب بأنّها نصيرتهم وحامية مصالحهم وحقوقهم. هذا في الوقت الذي كان يلعب فيه لورنس دور ضابط الارتباط بين قادة الثورة العربيّة من جهة، وبريطانيا من جهة ثانية.

في الوقت ذاته، كانت التقارير التي يرفعها لورنس إلى المخابرات البريطانيّة تكشف حقيقة السياسة الإنكليزيّة تجاه العرب وثورتهم. ففي أحد هذه التقارير السريّة حدّد لورنس في شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩١٦ الأهداف الرئيسيّة لبريطانيا وللغرب عامّة إذ يقول:

"...أهدافنا الرئيسيّة: تفتيت الوحدة الإسلاميّة ودحر الأمبراطوريّة العثمانيّة وتدميرها... وإذا عرفنا كيف نعامل العرب، وهم الأقلّ وعيًا للاستقرار من الأتراك، فسيبقون في دوامة من الفوضى السياسيّة داخل دويلات صغيرة

حاقدة ومتنافرة غير قابلة للتماسك، إلاّ أنّها على استعداد دائم لتشكيل قوّة موحّدة ضدّ أيّ قوّة خارجيّة". وفي هذه الحقبة أيضًا (كانون الثاني - ينـاير ١٩١٦) كـان الكولونيل "جيلبيرت كلايتون" يعكف في المكتب العربيّ البريطانيّ في القاهرة مع عدد من ضبّاط الاستخبارات البريطانيّة هناك على إعداد مخطّط عمليّ لتطويع حركة القوميّة العربيّة في خدمة الأهداف الحربيّة البريطانيّة. وقد سبق لـ"ماكس نودو"، المفكّر الصهيونيّ، أن أشار في أوائل القرن العشرين إلى إمكان استغلال حركة القوميّة العربيّة لضرب العرب أنفسهم بحكّام الدولة العثمانيّة والقضاء على الاثنين معًا في فلسطين خاصّة، فيدخل اليهود هذه الأخيرة فارغة من السكّان.

من المؤكّد أنّ ادّعاء لورنس السعي إلى منح العرب الحريّة والاستقلال كان دائمًا على أساس اعتبارات محدّدة واضحة، فقد كان مصمّمًا على إلحاق البلدان العربيّة بالأمبراطوريّة البريطانيّة، إيمانًا منه بأنّ هذا الوعد هو الوسيلة الأفضل لدفعهم للقتال إلى جانب الإنكليز... رغم أنّ السياسة البريطانيّة، وهو واحد من المخطّطين لأسسها، لن تنفّذ أبدًا ذلك الوعد الذي حلم به العرب طويلاً ومن أجله حاربوا...

وفي إحدى رسائله إلى صديقه "شارلوت شو" في ١٩ آذار ـ مارس ١٩٢٤، يوضح لورنس قائلاً: "لقد ساعدت على حبك المؤامرة... وخاطرت لإيماني بأنّ وقوف العرب إلى جانبنا هو عامل حيويّ لتحقيق أملنا بانتصار سريع بخس الثمن في الشرق. والأفضل لنا أن ننتصر وننكث بوعدنا من أن ننكسر".

على ضوء ذلك، تبدو بصمات لورنس واضحة في توقيع اتّفاقيّة سايكس ـ بيكو وبنودها، خاصّة وأنّ "مارك سايكس" كان أحد زملائه وأصدقائه الحميمين. وقد كان هذا الاتّفاق صهيونيًّا بصورة كليّة بدليل اعتناق موقّعَيه البريطانيّ والفرنسيّ للصهيونيّة قبل عام ١٩١٦ باعتراف "كريستوفر"، إبن مارك سايكس نفسه بصراحة تامّة في كتابه

الذي صدر عام ١٩٥٣ بعنوان: "دراسة مأثرتَين". بعد ذلك توّجت بريطانيا علاقاتها العضويّة بالحركة الصهيونيّة في إصدارها وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩١٧. وكان للاستخبارات البريطانيّة دورها الكبير في هذا المجال، حتّى أنّ لورنس نفسه لم يُخفِ تأييده لوعد بلفور الذي اعتبره وسيلة لإبعاد مطامع الفرنسيّين في فلسطين وسوريا كلّها... إلاّ أنّه كان يخفي أمرًا مذهلاً: فقد كان يعمل لإقامة دولة عربيّة قوميّة في سوريا تحت الحماية البريطانيّة، ولكن بتمويل وتوجيه الصهيونيّة العالميّة.. وعندما طُلب إليه إنكار محتويات رسالة شتم وتحقير وجّهها إلى الدكتور "ماك آنيس"، كاهن الأبرشيّة الإنكليزيّة في القدس، لاعتراض الأخير على فكرة إقامة "وطن قوميّ لليهود في فلسطين"... رفض ذلك، وعاود الكتابة إلى الكاهن يلومه على احتجاجه قائلاً: "كان الأفضل لك أن تفعل شيئًا آخر غير الاحتجاج، لكنّك غير صالح حتّى لتنظيف حذاء وايزمن"... هذا في الوقت الذي كان فيه لورنس "يقدّر تقديرًا واضحًا وكبيرًا حاييم وايزمن منذ أن التقيا في فلسطين بعد سقوط القدس ليبحث مع الأمير فيصل المقترحات الصهيونيّة الخاصّة بتوطين اليهود في الديار المقدّسة".

على هذا الأساس، يبدو أنّ لورنس لم يكن فقط ممثّلاً لبريطانيا في بلاد العرب، بل كان إلى جانب ذلك، رسولاً أمينًا للصهيونيّة، يحمل أفكارها ومقترحاتها ويعمل بتوجيهاتها وعلى أساسها، حتّى مع الذين وعدهم بالحريّة والاستقلال وبتخليصهم من الحكم التركيّ. وهكذا تكنّى لورنس بلورنس العرب، ولبس الكوفيّة والعقال العربيّين، ليخفي وراءهما كلّ الدسائس والمؤامرات التي تستهدف القضاء على كلّ ما يمتّ إلى العرب والعروبة بصلة.

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص١٤٢ ـ ١٤٩.

وينتربوثام: الجاسوس في السماء

في ظل مواجهة حقبة مملة في معسكر ألماني لأسرى الحرب، كان هناك أمام أحد طياري سلاح الجوّ الملكي البريطاني البالغ من العمر ٢٠ عامًا مقدار وافر من الوقت للتفكير في مشكلة ظلت تزعجه لمدّة طويلة من الوقت. وتساءل وينتربوثام، أثناء تجوله متمهلاً في أرض المعسكر في صيف ١٩١٧، عن الكيفية التي يمكنه من خلالها إلتقاط صور فوتوغرافية جوية من إرتفاعات تزيد عن ٨،٠٠٠ قدم.

من المسلم به هو أن هذه لم تكن مشكلة تدور في عقول زملائه الأسرى، أو حتى في عقل أيّ منهم، ولكنها كانت شيئًا شغل فكر وينتربوثام وحده.

وفي ظل إهتمامه بالصفة الرومانسية للتحليق في الجو، قرر وينتربوثام، عند اندلاع الحرب، تجنيد نفسه في فيالق سلاح الجو الملكي.

وفي وقت مبكر، أصبح وينتربوثام منبهرًا بمشكلة الاستطلاع الجوي...

في مراحله الأولية في ذلك الوقت، كان الاستطلاع الجوي يتضمن في معظمه التحليق بطائرة في الجو على ارتفاعات منخفضة فوق خطوط العدو، وتثبيت كاميرا في ركن الطيار، والتقاط صور فوتوغرافية قليلة قبل السقوط والارتطام بالأرض. ومن جانبه، فكر وينتربوثام في وجوب أن تكون هناك طريقة أفضل من ذلك، وهو استنتاج توصل إليه حين إسقاط طائرته وأخذه إلى الأسر أثناء قيامه باستطلاع جوي فوق الخنادق الألمانية في الجبهة الغربية.

وبعد الحرب، ترك وينتربوثام الخدمة العسكرية، وعاد إلى مزرعة العائلة بالقرب من سوزيكس، ولكن الاستطلاع الجوي لم يكن بعيدًا عن عقله، وظل مقتنعًا بأنه في أيّ حرب مستقبلية، فإن النصر يمكن أن يذهب إلى الدولة التي تطوّر قدرتها على التحليق فوق ساحة القتال ورؤية العدو قبل تحركه. واعتقد وينتربوثام أيضًا أن التصوير الفوتوغرافي الجوي يمكن أن يكون أمرًا حاسمًا في الاستخبارات الحديثة، ذلك أن الصور الفوتوغرافية من شأنها تقديم الدليل الموضوعي وغير القابل للجدل عن القدرات الفعلية للدولة.

ظل وينتربوثام يتحدث في غالب الأحيان عن هاجسه الدائم تجاه الأشياء الطائرة، وعلى الأخص تلك الأشياء ذات الصفة العسكرية. وما كان يتحدث عنه أثار إنتباه جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، الذي كان لديه نوع المهمة المناسبة لمعتقداته. وفي ١٩٢٩، جرى تجنيده لخدمة الجهاز، وبعد عام عهدت إليه مهمة تكوين أول قسم للبحوث الجوية في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6.

كانت التعليمات إلى وينتربوثام بسيطة: إيجاد أول عملية تجسس جوي في العالم، بحيث تغطي معظم أنحاء العالم، مع تركيز خاص على ألمانيا. ومن أجل تحقيق هذه الغاية، قام بتكوين شركة وهمية للبحوث الجوية كغطاء للتمويه، واشترى عدة طائرات، واستعد لتصوير كل شيء يستحق التصوير في كل أنحاء أوروبا.

ولكن وينتربوثام واجه على الفور المشكلة ذاتها التي اعترضت سبيل التجسس الجوي في ١٩١٧: قوانين الفيزياء التي تقضي بأن أيّ عدسات كاميرا على ارتفاع يزيد عن ٨،٠٠٠ قدم تصبح مغطاة بالضباب بسبب إنخفاض درجة حرارة الجو. وأي تحليق على ارتفاع يقل عن ٨،٠٠٠ قدم يعني أن الطائرات ليست قابلة للاكتشاف

بسهولة فحسب، وإنما يمكن أن تكون أيضًا قابلة للتعرض لأخطار نيران الدفاعات الأرضية من الإنشاءات العسكرية المتطورة. وكان الحل الوحيد هو جعل هذه الكاميرات تعمل على ارتفاعات عالية، ولكن كيف؟

جاء الجواب بمحض المصادفة، ذلك أن وينتربوثام تمكن من إقناع جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 بالاستثمار في أحدث تكنولوجيا الطائرات، وهي طائرة لوكهيد الأميركية A-12 ذات المحركين التي يمكنها التحليق على ارتفاع ٢٢،٠٠٠ قدم. وقام بعد ذلك باستئجار الطيار سيدني كوتون، وهو طيار استرالي متشرد (وربما كان مجنونًا إلى حد ما) للتحليق بالطائرة.

إخترع كوتون، الذي افترض إمكانية اللجوء إلى استخدام حيلة لالتقاط صور فوتوغرافية تجسسية من تحليق على مستوى منخفض، نظامًا ساذجًا: عمل فتحات في جسم الطائرة، مغطاة بغطاءات متحركة أمام عدسة كاميرا يتم تشغيلها عن طريق مفاتيح تحكم داخل الطائرة. والفكرة هي أن الطائرة حين قيامها بالتحليق فوق الهدف، يتم فتح الغطاءات المتحركة والتقاط الصور الفوتوغرافية عن طريق مفاتيح التحكم داخل ركن الطيار، ثم يجري إغلاق الغطاءات المتحركة بعد التقاط الصور الفوتوغرافية. وكل من ينظر إلى الطائرة يمكن أن يرى جسمًا معتمًا فقط، بدون كاميرا مرئية.

بعد تركيب النظام، استقل كوتون ووينتربوثام الطائرة لاختبار النظام فوق الريف البريطاني، وتوصل الاثنان إلى اكتشاف مذهل: في الارتفاعات العالية، حينما يتم فتح الغطاءات، يمر هواء ساخن من داخل الطائرة فوق عدسات الكاميرا، الأمر الذي يحول دون تراكم الضباب على العدسات . وبهذا ظهر إلى حيز الوجود التجسس الحديث من ارتفاعات عالية.

ومن خلال تسلحهما بهذا السر، بدأ الاثنان رحلة إلى أوروبا، حيث قاما بالتحليق المرتفع فوق أشد المناطق حساسية في ظل الافلات من العاقبة، ذلك أن كل واحد إفترض عدم إمكانية التصوير الفوتوغرافي الجوي من ارتفاعات تزيد عن ٨٠،٠٠٠ قدم. وأبدى وينتربوثام إهتمامًا خاصًا نحو ألمانيا، وأدت سلسلة الطلعات الجوية، تحت غطاء عقد صفقات تجارية لحساب شركة وينتربوثام، إلى تصوير كل منشأة عسكرية هامة في ذلك البلد، وفي وقت مناسب حينما شرع هتلر في برنامجه لإعادة التسلح. وأصبح وينتربوثام معروفًا لدى سلاح الجو الألماني، وفي ١٩٣٩ طلب الجنرال في سلاح الجو الألماني ألبيرت كيسيلرينج وبعض كبار الضباط الألمان من الرجل الانكليزي إمكانية قيامهم بجولة في طائرته الأميركية. ووافق وينتربوثام شاكرًا، ولكن أثناء التحليق توقف تقريبًا حينما استفسر كيسيلرينج بصوت مرتفع عن سلسلة الأضواء الخضراء المتقطعة الموجودة في جهاز القيادة في الطائرة. وكانت تلك الأضواء بمثابة مؤشرات توضح استمرارية تعرض كاميرات "ليكا" الاوتوماتيكية للعوامل الجوية، ولكن وينتربوثام، بعد تفكير سريع، أبلغ الألمان أن هذه الأضواء عبارة عن أجهزة مراقبة خاصة توضح "تدفق البنزين إلى الماكينات".

كان ذلك بمثابة إشارة واضحة الدلائل، وعرف وينتربوثام أنه في ظل تجمع سحب العاصفة، فربما حان الوقت لإنهاء العمليات فوق أوروبا. وعاد إلى بريطانيا، حيث عهد إليه جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 بمهمة جديدة: تكوين حلقة إتصال بين الجهاز وعمليات نظام أولترا لحل رموز الشيفرة. واخترع وينتربوثام نظامًا كان من شأنه حل مشكلة رئيسية تواجه نظام أولترا. وبطريقة ما، كان ينبغي تمرير معلومات حيوية تكتشفها عمليات نظام أولترا إلى قوات عسكرية في ساحات القتال دون الكشف

عن أن هذه المعلومات جاءت عن طريق عمليات نظام أولترا لحل رموز الشيفرة الألمانية. وكان يمكن أن تؤدي أيّ تلميحات طفيفة عن حل رموز الشيفرة الألمانية إلى القضاء على عمليات نظام أولترا، ذلك أن الألمان سوف يقومون بتغيير كل أنظمتهم لرموز الشيفرة.

كان حل وينتربوثام يكمن في تكوين وحدات اتصال خاصة تتألف من عملاء معنيين بعمليات نظام أولترا ومخصصين لجيوش مختلفة في ساحات القتال لتمرير المعلومات الاستخباراتية التي تكشف عنها عمليات نظام أولترا. وكان هذا النظام ناجحًا على نحو رائع:

خلال الحرب، تمكن الجنرالات في دول الحلفاء من إعادة نشر قواتهم على الفور، إستجابة إلى معلومات قامت بتمريرها وحدات الاتصال الخاصة حول خطط الألمان ومواقعهم العسكرية. ولم تكن هناك ثغرة أمنية واحدة في عمليات نظام أولترا، وهي عمليات بقيت سرًا حتى ١٩٧٤. "في ذلك العام قرر البريطانيون القيام بكشف محدود عن ذلك السر العظيم، وكان ذلك بمثابة جزء من محاولة لإعادة تأهيل الصورة الممزقة للاستخبارات البريطانية. وتلقى وينتربوثام تعليمات بكتابة تقرير للاستهلاك المحلي حول تاريخ ومجال عمليات رموز الشيفرة. وحين نشر هذا التقرير تحت عنوان "أسرار نظام أولترا" أثار ضجة على مستوى العالم".

ومع ذلك، فعلى الرغم من تلك الإسهامات العظيمة في خدمة الاستخبارات البريطانية، فمع انتهاء الحرب قام جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 بصرف وينتربوثام من الخدمة، ووفق نظام جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 القائم على البخل، بدون معاش تقاعديّ أيضًا...

وبالنظر إلى أنه لم يكن رجلاً غنيًا، عاد وينتربوثام إلى مزرعته، وهناك، في سنوات لاحقة، أخذ يتأمل في الجدل الناشط حول طائرة التجسس U-2، وأقمار التجسس. ولم يقل أبدًا إن كان شعر بالرضا حينما عرف أن "الوسائل الفنية" الحديثة (وهو تعبير يميل الدبلوماسيون إلى إطلاقه بأدب على وسائل التجسس) جاءت في مجموعها من هواجسه الرائعة قبل عدة سنوات. وفي ظل قناعته بما عنده من أوراق بنكنوت ودواجن، مات وينتبوثام سنة ١٩٩٠[١].

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، مكتبة مدبولي، (القاهرة،١٩٩٩) ص١٥٥ ـ ١٥٩.

أعمَال المُخَابَرات البَريطَانيَّة

في بريطانيا أربع وكالات تشرف على جمع المعلومات المخابراتيّة. وأكبر هذه الوكالات، سواء من حيث حجم المؤسّسة أم من حيث مردودها، هي "قيادة الاتّصالات الحكوميّة GCHQ"، المسؤولة عن جمع ومعالجة وتحليل كلّ مخابرات الإشارات. وقد وُلدت "قيادة الاتّصالات الحكوميّة" من رحم "المدرسة الحكوميّة للرموز والشيفرة"، التي كانت في أيّام الحرب العالميّة الثانيّة إدارة حلّ الرموز الموجودة في "بليتشلي بارك"، في "باكنغهامشاير".

في أيّام الحرب العالميّة الثانيّة كان في هذه الإدارة أكثر من ٦,٠٠٠ موظّف يعملون في حلّ شيفرات الاتّصالات الألمانيّة والإيطاليّة. ومن بين أوائل الكومبيوترات التي صُنعت في العالم كانت مجموعة "كولوس"، التي استُخدمت لحلّ الرسائل المرمّزة بالاعتماد على أجهزة "إينغما" و"لورنز" و"غيهمشرايبر". في تلك الحقبة، فإنّ عمليّة "ألترا ULTRA" التي فكّت رموز "إينغما" كاملة سجّلت نجاحًا خاصًّا مميّزًا... علمًا بأنّ المفهوم أنّ تشرشل قاد عمليًّا حرب شمال أفريقيا بالاعتماد فقط على التقاطات "ألترا". وكذلك فقد جرى تفكيك رموز "لورنز" بشكل روتيني، مع أنّ النجاح كان محدودًا في حلّ رموز غيهمشرايبر...

كلن المقرّ الأوّل لـ"قيادة الاتّصالات الحكوميّة" في "إيستكوت" في شمال غرب لندن، وذلك بعد الحرب مباشرة، ولكنّ هذا المقرّ بدأ في العام ١٩٥٣ بالانتقال إلى موقعه الحالي في مبنيَين قرب "تشلتنهام". المبنى الأوّل يقع في "أوكلي بريورز رود"،

ويضمّ المركز الإداري والمَرافق الكومبيوتوريّة، بينما المبنى الثاني يقع في "بنهول بارك"، ويضمّ أساسًا المختبرات والورشات، وكذلك مكتب ارتباط "وكالة الأمن القومي الأميركيّة NSA" ذا الأهميّة الحيويّة جدًّا، علمًا بأنّ "وكالة الأمن القومي" هي المثيل الأميركيّ لـ"قيادة الاتّصالات الحكوميّة"... ومعاهدة مخابرات الإشارات التي تعود بتاريخها إلى العام ١٩٤٧، والتي عزّزت التعاون بين هاتين الوكالتين ووكالات غربيّة أخرى للإشارات، تشكّل مظهرًا أساسيًّا من مظاهر التحالف المخابراتي الأنكلو ـ أميركي.

بقي مقرّ إيستكوت قيد الاستعمال حتّى العام ١٩٧٥، حيث كان المجنّدون علميًّا يوضعون فيه ريثما تنتهي أعمال بناء موقع "بنهول"، ولكنّه سلّم في ما بعد إلى "الوحدة المشتركة لأبحاث الكلام"، وهي مصلحة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بـ"قيادة الاتّصالات الحكوميّة"، ويشمل عملها تطوير التعرّف الكومبيوتريّ إلى الكلمات المحكيّة من أجل التجسّس الهاتفيّ الآليّ. ويعتمد قسم الكومبيوتر على نظامَي IBM يجمعهما تزاوج فضفاض نسبيًّا، ونظام تزويد بالكهرباء يكفي لبلدة متوسّطة الحجم... وموقع بلتشلي بارك هو اليوم مركز التدريب الرئيسيّ لـ"قيادة الاتّصالات الحكوميّة". وكذلك فإنّ شركة الاتّصالات البريطانيّة "بريتش تيليكوم" و"الخدمة الدبلوماسيّة"، يستخدمانه أيضًا للتدريب على الأجهزة اللاسلكيّة، وكلّ ذلك لصالح المخابرات البريطانيّة.

تقود "قيادة الاتّصالات الحكوميّة" البريطانيّة و"وكالة الأمن القومي" الأميركيّة العالم من حيث دقّة وتطوّر وهدف تجهيزاتهما لفكّ الرموز وللالتقاط، وهو موقع لدى الوكالتين يحظى بتصميم أكيد على المحافظة عليه. ويمنع البلدان تصدير التجهيزات الشيفريّة إلاّ إذا سلّم الصانع مخطّطات كاملة تجعل من الصعب على بلدان العالم الثالث الحصول على رموز لا يمكن فكّها من قبل بريطانيا وأميركا.

تفكيك بريطانيا في خلال الحرب العالميّة الثانية لرموز "إيغما" بقي سرًّا لم يُكشف لثلاثين سنة، لأنّ نسخًا إلكترونيّة من الشيفرة كانت قد بيعت إلى العالم الثالث من قبل شركات أوروبيّة، ممّا جعل هذه الشيفرة هدفًا سهلاً لمفكّكي الرموز البريطانيّين والأميركيّين.

تقوم وزارة الدفاع ووزارة الخارجيّة والكومنولث، بالاشتراك في ما بينها، بتشغيل "قيادة الاتّصالات الحكوميّة". ومدير هذه القيادة "برايان توفي"، هو نائب سكرتير وزارة الخارجيّة والكومنولث. وليس هناك من هو أعلى منه مرتبة في الوزارة سوى السكرتير الدائم ورئيس الإدارات. أمّا دونه مباشرة في المرتبة فهناك نصف دزّينة من المدراء المشرفين برتبة نائب سكرتير، يشرفون على الإدارات، أو المصالح الأربع التي تتألّف منها "قيادة الاتّصالات الحكوميّة"، وهي:

إدارة التنظيم والتأسيس.

إدارة وخطط سايجنت (إختصار لكلمتي "مخابرات الإشارات Signals Intelligence - Signit"

إدارتان عملانيّتان.

وبين هاتين الأخيرتين، فإنّ إدارة "عمليّات واحتياجات مخابرات الإشارات" هي الأكبر بكثير، وهي تقوم بمعالجة وتحليل كلّ ما يُلتقط عبر شبكة محطّات الرصد في داخل المملكة المتّحدة وما وراء البحار. وفي حين أنّ العدد الكامل لمحطّات الرصد الخارجيّة غير معروف، فإنّ بعضها أصبح معروفًا، كتلك الموجودة في قبرص وجبل طارق وتركيا... وخمس في ألمانيا، وأخرى في عُمان، بالإضافة إلى مرافق تدار بالمشاركة مع "وكالة الأمن القومي"، في جزر "آسينتيون"، ومع موظّفي "قسم الإشارات

الدفاعي الأسترالي" من وحدات الإشارات العسكريّة، وهم عادة من رجال الجيش أو الطيران الحربيّ، ومدنيّين من "منظّمة الإشارات المختلطة". وكلّ رصد الاتّصالات العسكريّة وُضع تحت إشراف "قيادة الاتّصالات الحكوميّة" من العام ١٩٦٣، بعد صراع صامت مع الحكومة البريطانيّة خرجت منه القيادة منتصرة.

بعض العمل الأسهل، المتدنّي المستوى، يجري في نقطة الالتقاط، ثمّ ترسل النتائج إلى تشلتنهام مع المادّة غير المعالجة، وتخضع كلّ الرسائل إلى عمليّة تُعرف باسم "تحليل حركة المرور"، وهي عمليّة الهدف منها عزل مصدر كلّ رسالة وهويّة عامل اللاسلكي، وإجراء مزيد من الاقتطاعات على أساس سمات أخرى لكلّ من الرسائل الإفراديّة ومواقعها داخل إطار الاتّصالات... لرصد البناء العسكري مثلاً. والكثير من هذه الاتّصالات يكون مرمّزًا، وفي هذه الحالة ترسَل نسخ عن الالتقاط أيضًا إلى الفرع H في "قيادة الاتّصالات الحكوميّة"، وهو الفرع الذي يقوم بتحليل الشيفرة، أي بتفكيك الرموز.

أمّا الإدارة الرابعة، فتُسمّى "أمن الاتّصالات"، ومهمّتها بدقّة هي أن تجعل عمل وكالات مخابرات الإشارات الأجنبيّة المهتمة بالاتّصالات البريطانية أصعب ما يمكن. والطرق التي تلجأ إليها هذه الإدارة تتراوح ما بين الكتابة السرّيّة، أي الترميز واستخدام الشيفرة، وبين استخدام شبكات الراديو الأكثر تطوّرًا تكنولوجيًّا والتي تغيّر ذبذبة الإرسال مرّات عديدة في الثانية. وقد طوّر تقنيّو الاتّصالات الحكوميّة "أجهزة راديو" انفجاريّة قادرة على بثّ كميّة ضخمة من المعلومات بسرعة كبيرة، وأصبحت هذه الأجهزة مع القطع العاديّة في تجهيزات خدمات الطيران الخاصّة، كما صارت تُستخدم في الـ MI-6 التي تتلقّى دعمًا أساسيًّا في الاتّصالات من "قيادة الاتّصالات الحكوميّة". وتشمل مهمّات وكالة الأمن القوميّ الأميركيّة، في مجال أمن الاتّصالات

أيضًا، الاستماع إلى رسائل حلفاء أميركا للتأكّد من صحّة الإجراءات الأمنيّة المستخدمة، وهو ما يُستخدم كمبرّر لالتقاط هذه الرسائل بشكل روتينيّ. و"قيادة الاتّصالات الحكوميّة" تفعل الشيء نفسه. ويصل عدد الأشخاص العاملين في مخابرات الإشارات البريطانيّة إلى عشرات الآلاف، منهم ٨,٠٠٠ يعملون في مقرّ "قيادة الاتّصالات الحكوميّة" في "تشلتنهام" وحده. ولا يمكن لإجماليّ نفقات تشغيل هذا الجهاز أن تقل كثيرًا عن ٥٠٠ مليون جنيه استرلينيّ سنويًا، وهي من ميزانيّة المخابرات البريطانيّة نفسها.

وكالة "قيادة الاتّصالات الحكوميّة" ليست منغمسة، بأيّة درجة تُذكر، في العمليات السريّة، ربّما باستثناء ترويج المعلومات الخاطئة عبر الرسائل الزائفة، وبالتالي فإنّها ليست ذات أهمية مركزيّة، ومع ذلك، وباعتبارها المنتج الأكبر للمخابرات البريطانيّة، فإنّ لها دورًا ثانويًا هامًّا في تقديم المعلومات لاستخدامها في تخطيط وتنفيذ العمليّات السريّة، وتوفير الاتّصالات الآمنة للإدارات الرئيسية للعمليّات السريّة.

ويكاد يكون كلّ عمل "قيادة الاتّصالات الحكوميّة" غير مشروع في حكم القانون الدوليّ. مخابرات لا تقوم برصد محطّات الراديو التقليديّة، ولكنّ هذا لا يعني أنّها تتجاهلها. وخدمة الرصد التابعة لهيئة الإذاعة البريطانيّة في "كافرشام بارك" قرب ريدنغ، هي إحدى أكبر منظّمات العالم التي تتابع الإذاعات، وهي تقدّم خدمة قيّمة لمحللي المخابرات.

كانت هيئة الإذاعة البريطانيّة قد بدأت عمليّات الرصد هذه منذ العام ١٩٣٣، بعد أن طلبت الحكومة تفاصيل الإذاعات المعادية لبريطانيا التي تبثّها المحطّات الإيطاليّة الموجّهة إلى الدول العربية، وتمويل الحكومة لنظام للرصد أكثر تنظيمًا بدأ خلال

الحرب العالميــة الثانيــة تحـت إشـراف "الهيئـة التنفيذيّـة للحـرب السياسـية" التـي كـانت تشرف على برامج الدعايـة البريطانيـة. وخـلال الحـرب كـانت وحـدة الرصـد تصـدر تلخيصًا مكتوبًا يوميًا لما تبثه الإذاعات حول العالم تسـتخدمه الحكومـة و"هيئـة الإذاعـة البريطانيّة".

وبعد الحرب، أُبقي على وحدة الرصد هذه، وتمّ توسيعها. واستمرّ تبنّيهـا الرسـميّ من قِبَل وزارة الخارجيّة وتمويلها بواسطة هبات تقدّمها الخزينة كمعونة. واستنادًا إلـى الكتاب الرسميّ عن "هيئة الإذاعة البريطانيّة" فإنّ وظيفة خدمة الرصد هـي "الاسـتماع إلى ما تبثه محطّات الإذاعات الأجنبيّة والإفادة عنه". وهناك قسم خاص للاستماع يقـوم بتدوين ما يطرأ من تغيّرات على نماذج البرامج، وعلى ذبذبات البثّ، ولغات محطّـات الإذاعات الأجنبيّـة. ومـن أصـل الأربعمائـة موظـف ونيـف فـي كافرشـام، هنـاك ١٢٠ موظفًا يعملون في الرصد. ويستمع هـؤلاء، كلّ يـوم، إلـى حوالـي ٤٠٠ نشـرة أخبـار وتعليق ومراجعات صحف من ٣٦ بلدًا في أنحاء العالم. وكان الاهتمام الرئيسيّ مركّزًا دومًا على الإذاعات التي تبثّ من بلدان وارسو، بالرغم من توجيه اهتمام ملحوظ أيضًا إلى مناطق حسّاسة من العـالم الثـالث. وقبـل الثـورة الإيرانيّـة والتدخّـل السـوفياتيّ فـي أفغانستان، كانت كافرشام توظّف أربعـة راصديـن خبـراء فـي اللغـات المحكيّـة هنـاك، وهي الفارسيّة والداريّة والبشتو. ثمّ ارتفع عدد الراصدين إلى ١٢ بعد ذلك، وأصبحـت لإيران منزلة مساوية لمنزلة الاتحاد السوفياتيّ من حيث كونها البلد الوحيد الذي تُرصد إذاعاته على مدى أربع وعشرين ساعة يوميًا.

ولخدمة الرصد دائرتان رئيسيّتان اثنتان: دائرة الالتقاط التـي تستمع إلـى البـرامج وتدوّنها كتابة، ودائرة الأخبار والمنشورات، التي تقوم بتحرير المادّة التي تُرسل في ما بعـد إلـى المشـتركين. ومـن بيـن هـؤلاء حكومـات أجنبيّــة ووكــالات أنبــاء وصحـف

وجامعات وهيئات تجاريّة، وكذلك معظم دوائر الحكومة البريطانيّة. ولدى وزارة الدفاع ووزارة الخارجية والكومنولث أجهزة "تلبرنتر" - وهي أجهزة تلقّي سلكيّ تطبع ما يردها من أنباء مباشرة - ترتبط مباشرة بكافرشام، وكذلك هو الأمر بالنسبة لدائرة الأخبار والأحداث الراهنة في "هيئة الإذاعة البريطانيّة"، ويجري يوميًّا تحضير ملخّصات مطبوعة عن شؤون وأحداث الاتّحاد السوفياتيّ وأوروبّا الشرقية والشرق الأقصى والشرق الأوسط وأفريقيا وأميركا اللاتينية. وباستطاعة هذه الخدمة إنتاج ما يصل إلى مئة ألف كلمة يوميًّا، وهناك تقارير اقتصاديّة أسبوعيّة كانت توضع عن الاتّحاد السوفياتيّ وأوروبّا الشرقية والشرق الأقصى. ولأن بثّ الإذاعات التي ترغب "هيئة الإذاعة البريطانيّة" في الاستماع إليها لا يصل أحيانًا إلى المملكة المتّحدة، فقد أُقيم عدد من نقاط الاستماع الخارجية في ما وراء البحار ترسل إلى كافرشام بارك، بواسطة "تلبرنتر"، نسخًا مترجمة ومحررة عن تقارير الاستماع. وهناك وحدة رصد مقامة في نيروبي بكينيا مسؤولة عن رصد إذاعات شرق أفريقيا ووسطها. وكانت قد جرت تقوية هذه الوحدة بإرسال عاملين إضافيّين إليها في أواخر سبعينات القرن العشرين لتوسيع مدى الرصد ليشمل أنغولا وموزمبيق. وقد وضعت "هيئة الإذاعة البريطانيّة" لها راصدًا في ليونغوي بمالاوي للاستماع إلى إذاعات روديسيا وزامبيا.

وبعد الحرب العالميّة الثانية، اتفقت خدمة الرصد في "هيئة الإذاعة البريطانيّة" مع مثيلتها الأميركيّة "خدمة معلومات الإذاعات الأجنبيّة" على اقتسام مهمّات الرصد في أرجاء العالم في ما بينهما، نظرًا لأنّ التكاليف ستكون، في هذه الحالة، نصف التكاليف فيما لو قامت كلّ منهما بهذه العملية لوحدها. وكنتيجة لذلك، أصبحت وحدة "هيئة الإذاعة البريطانيّة" تركّز نشاطات رصدها الأساسيّة على أوروبّا والاتّحاد السوفياتيّ، بينما تركّز "خدمة معلومات الإذاعات الأجنبيّة" الأميركيّة نشاطاتها على الصين

والشرق الأقصى. وكانت الوحدتان تتشاركان في المعلومات التي تحصلان عليها. وهناك اليوم تقسيم جديد أوكل بموجبه رصد أوروبّا الشرقيّة وشمال أفريقيا إلى "هيئة الإذاعة البريطانيّة"، والعمل في رصد الشرق الأقصى والشرق الأوسط وغرب أفريقيا وأميركا اللاتينيّة إلى "خدمة معلومات الإذاعات الأجنبيّة" الأميركيّة FBIS. وتقوم الوكالتان وحكومتاهما بالتشاور باستمرار حول مَن يجب الاستماع إليه، كما تنسّقان نشاطاتهما بعناية ودقّة. وهذا النظام مرن بما فيه الكفاية لتمكين التغطية القائمة من التوسّع، في لحظة الطلب، إلى أيّ مكان تقريبًا في العالم، حيث تخلق الأحداث ـ مثل وقوع انقلاب أو حرب ـ اهتمامًا خاصًّا أو موقّتًا بذلك الموقع.

و"هيئة الإذاعة البريطانيّة" فخورة باتّصالها الأميركيّ هذا، وكتابها الصادر في العام ١٩٧٧ يشير إلى هذه العلاقة على أنّها "العامل الأهمّ الذي يمكّن من الإفادة عن إذاعات من أقصى أركان العالم". وعلى العموم، فإنّ ما تعلنه "هيئة الإذاعة البريطانيّة" هو أنّ "خدمة معلومات الإذاعات الأجنبيّة" الأميركيّة تدار من قبل وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA، كجزء من نشاطاتها المكشوفة في جمع المعلومات. وفي حين أنّ "هيئة الإذاعة البريطانيّة" تبعث بكلّ تقارير الرصد الخام لديها إلى محطّة "خدمة معلومات الإذاعات الأجنبيّة" الأميركيّة في كفرشام بارك، فإنّ الشقيقة الأميركيّة لا تعامل الهيئة البريطانيّة بالمثل تمامًا، فهي لا تقدّم إلى "هيئة الإذاعة البريطانيّة" إلاّ تقارير رصد نهائيّة، أي محررة، وكذلك، فإنّ أهمية وملاءمة الموادّ التي تقدّمها "خدمة معلومات الإذاعات الأجنبيّة" تبقيان موضع تساؤل. وفي إحدى الحالات، كانت هذه الهيئة الأميركيّة قد وجدت نفسها في الموقع السخيف لرص وتوزيع نصوص البرامج الصادرة عن محطّات وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة السريّة في تايوان التي تبثّ إذاعاتها إلى أراضي الصين الأساسيّة في القارّة "الصين الشعبيّة".

ويشكّل الرصد إحدى الطرق التي يمكن، بواسطتها، تكييف الدعاية بما يلائم المستمعين إليها. وخلال السنوات الأولى لإعلان روديسيا "البيضاء" استقلالها من جانب واحد، كانت "هيئة الإذاعة البريطانيّة" تدير محطّة إذاعة للدعاية ضدّ نظام "أيان سميث" تبثّ من "فرانيستاون" في "توتسوانا". وكانت جماعة من الراصدين المتمركزين هناك، تستمع إلى إذاعة "ساليزبوري" وتوجّه إذاعات "هيئة الإذاعة البريطانيّة" استنادًا إلى ذلك.

وتقوم سياسة افتتاحيّات نشرة "ريدنغ" على اختيار موضوعات معينة وإبرازها بكتابة مقدّمات قصيرة على الغلاف. وفي العادة، كانت تعكس أحكام افتتاحيّات هذه النشرة القيم الملتزمة "الأرثذوكسيّة" لمراقبي بكين والكرملين في وزارة الخارجيّة، وهذه القيم كانت تبدو بارزة بشكل خاصّ في الأخبار، نظرًا لأنّ وزارة الخارجيّة هي، في آن معًا، من أكبر مستخدمي خدمة الرصد وهي مصدر تمويلها الرئيسيّ.

ولدور خدمة الرصد في "هيئة الإذاعة البريطانيّة" مغزى واضح بالنسبة للحكومة الحاليّة، فبالرغم من بحثها عن سياسات اقتصاديّة مرنة، أصدرت أوامرها بعدم اقتطاع أيّ مبلغ كان من ميزانيّة هذه الخدمة. ومن ناحيتها، فإنّ "هيئة الإذاعة البريطانيّة" تشعر بالسعادة لمعرفتها أنّ أحدث المعلومات التي تتوفّر لوزارة الخارجية في حالات معيّنة، كما كان الأمر في حالة مشكلة "هيلز كابلن"، رجل الأعمال بريطانيّ الذي اعتُقل في يوغندا بأمر شخصي من عيدي أمين عندما كان رئيسًا ليوغندا... وأُذيع خبر اعتقاله من الإذاعة المحليّة اليوغندية التي كانت واقعة تحت عمليّة رصد من الإذاعة والمخابرات البريطانيّة، وهكذا شاع الخبر... وكذلك فإنّ "هيئة الإذاعة البريطانيّة" تفخر بالسبق الذي حقّقته على محطّات إذاعات أخرى في الحصول على أخبار مثيرة

ومفاجئة من براعة رصدها. ومن الأمثلة على ذلك، انقلاب الصومال في تشرين الأول - أكتوبر ١٩٦٩، وانقلاب يوغندا في كانون الثاني - ينـاير ١٩٧١، ومحاولـة الانقـلاب في السودان في العام ١٩٧١ أيضًا، وعلى العموم، وكما هو موضّح ليس صحيحًا دومًا أنّ الحكومة البريطانيّة لا تدرك ما يجري.

وكانت الإصلاحات التي وُجّهت ضدّ المخابرات العسكريّة هي الأكثر جذريّـة بيـن كلّ الإصلاحات البنيويّة التي فرضت على وكالات المخابرات البريطانيّـة منذ الحـرب العالميّة الثانية. والتدخّل بين أدوار خدمات أجهزة القوى المسلحة الثلاث، وكذلك تزايـد التشابك مع الوكالات المدنيّة، أجبر قادة الدفاع عن إدارة المخابرات على إعادة النظـر في الأنظمة التقليديّة لوحدة مخابرات كلّ خدمة، ومجرّد كميّة المادّة الاستخباراتيّة التـي تصل إلى مكاتب مخطّطي الحكومة البريطانيّة، وكثير منهـا مكـرر مـن قِبَـل الوكـالات المختلفـة، خلـق سببًا مضافًـا للسـعي إلـى إيجـاد بنيـة أكثر فاعليّـة لهيكـل المخــابرات العسكريّة.

أُقيمـت وحـدة التنسيق الأولــى، عــام ١٩٤٦، التــي سُـمّيت "مكتــب المخــابرات المشتركة" تحت إدارة "كينيث سترونغ". وأثبت المكتب كونه صاحب نفوذ وناجحًا إلـى حدّ معقول بالرغم من صغر حجمه، وقد أُخذ على أنه النمـوذج الصـالح لإعـادة تنظيـم أوسع للمخابرات العسكرية، وهو ما حصل في العام ١٩٦٤. واستلمت "هيئة مخـابرات الدفاع DIS" الإشراف على معظم نشاطات المخابرات في "مملكة وزارة الدفاع": دوائر المخابرات فـي الجيش والبحريّة والطـيران، ومعظـم دوائـر أمـن وزارة الدفـاع نفسـها. وعلى العموم، كانت الخدمات الثلاث "الطيران والبحريّة والجيش" ما زالت تحافظ على نسبة معيّنة من الاستقلالية. أمّا المرحلة الأخيرة فكـانت فـي عهـد اسـتلام دنيـس هيلـي لمنصب وزير الدفاع. وفي هذه المرحلـة أُلغيـت إدارات المخـابرات التابعـة للخدمـات

الإفرادية. وأوجد، بدلاً منها، هيكل قيادي موحّد تمامًا، تتناوب الخدمات الثلاث مناصبه الرئيسية. وكان الرئيس لهيئة استخبارات الدفاع، المدير العام للمخابرات الأدميرال السير "روي هاليداي"، أمّا نائبه الليوتنانت جنرال السير "جينس غلوفر" فكان يحتلّ منصب نائب رئيس هيئة مخابرات الدفاع. وكان هنالك تحت هذا الرئيس ونائبه خمس دوائر رئيسية هي:

- خدمة المخابرات، كان مديرها مارشال الطيران "و. ج. هيرينغتون".
- إدارة ودعم المخابرات، وكان مديرها الأدميرال "ج. ك. روبرتسون".
- التعبويّات، وكان مديرها "د. ي. تشامبرلين".
- المخابرات العلمية والتقنيّة، وكان مديرها "ن. هـ . هيوز".
- المخابرات الاقتصاديّة، وكان مديرها "و. سي. رادكين".

والمنصبان الأوّلان من هذه المناصب الخمسة هما الأكثر أهميّة، وكما سيتّضح، فإنّ هيئة مخابرات الدفاع تضمّ خليطًا من الموظّفين العسكريّين والمدنيّين في أكثر من تسعين دائرة مفردة. وكبار موظّفي الهيئة يعملون في مبنى وزارة الدفاع. أمّا تقييم معلومات المخابرات ووضع التقارير فيتمّ في الموقع السابق لفندق متروبول في شارع "نورثمبر لاند" في لندن.

وتحتفظ وزارة الدفاع بدائرتَين للأمن، تتعاملان مع الأمن الجسديّ وأعمال العقود، خارج إشراف هيئة مخابرات الدفاع، أمّا كلّ مهمّات الأمن والمخابرات الأخرى بما فيها الاستعلام عن موظّفي وزارة الدفاع وأقربائهم، فهي من مسؤوليّات هيئة مخابرات الدفاع أي المخابرات العسكريّة.

وحيثما وُجدت القوّات البريطانيّة يوجد أيضًا رجال هيئة مخابرات الدفاع. والهيئة نفسها تزوّد البعثات الدبلوماسية البريطانيّة عبر البحار بالملحقين العسكريّين، وهناك حوالي ١٥٠ ملحقًا عسكريًّا معترفًا بهم رسميًّا في ٦٥ بعثة دبلوماسيّة. وهؤلاء يقومون بجمع وتقييم المعلومات عن قوّات البلدان المضيفة، ويتبادلون المذكّرات مع البعثات أو الحكومات الحليفة، ويروّجون لمبيعات الأسلحة. وفي بلدان يحكمها العسكريّون، أو يكون فيها للعسكريّين نفوذ في الحياة السياسيّة، أو يكون الانقلاب العسكريّ فيها أمرًا ناجحًا، يصبح للملحقين العسكريّين دور سياسيّ هام، نظرًا لأنّ الحصول على المعلومات يصبح أكثر سهولة بالنسبة للملحق العسكريّ منه بالنسبة لموظّف الاستخبارات العامل تحت الستار المدنيّ أو الدبلوماسي.

ومعظم عمل هيئة مخابرات الدفاع كان مكرّسًا لقوّات بلدان حلف وارسو، حيث كان يجري رصد قوّتها وفاعليّة سلاحها وتفاصيل منشآتها الثابتة. وكانت إدارة المخابرات الاقتصاديّة تتابع بدأب وعناد مهمّة تقدير النفقات الدفاعيّة للسوفيات. كما كانت تراقب كذلك نشاطات السوفيات في العالم الثالث بعناية وتفيد عنها. وبالنسبة لكلّ مجنّدي المخابرات العسكرية وليس مخابرات الجيش فقط، هناك تشديد على "التهديد الداخليّ" كمثل التشديد على التهديد الذي كان مزعومًا من قِبَل الكتلة السوفياتيّة. وتحت القيادة المركزية لهيئة مخابرات الدفاع تنقسم إلى المخابرات العسكريّة بحسب الخطوط العامّة للخدمات المختلفة. ويقع مقرّ قيادة فرقة المخابرات الخاصّة بالجيش في معسكر "آشفورد" في "كنت"، سُمّي باسم "جيرالد تمبلر" الذي كان ذات يوم رئيسًا لهيئة الأركان العامّة الأمبراطوريّة، وقاد بنجاح الحرب المضادّة للثورة التي شنّت ضدّ شيوعيّي الملايو، ويقيم المركز أربع دورات تدريبيّة هي: قراءة الصور الجويّة، والمخابرات العملانيّة، والأمن، والتحقيق أو الاستنطاق، وهي دورات تستفيد منها خدمات

المخابرات البريطانيّة الأخرى، كما تستضيف زوّارًا أجانب. وكان أحد هؤلاء "بيدرو كاردوزو" الذي أصبح رئيسًا لهيئة أركان الجيش البرتغاليّ في العام ١٩٧٨، بعد أن أُسندت إليه، لمدّة من الزمن، مهمة تنظيم جهاز جديد للمخابرات. ولا تحظى الطرق البريطانيّة برضى الجميع، وقد وجدت مجوعة من ضبّاط الجيش البرازيليّ الزائرين أنّ طرق الاستنطاق البريطانيّة بطيئة جدًّا بالقياس إلى مستوياتها الفظّة والناشطة، أي الطرق التي يتّبع فيها التعذيب الجسديّ بمختلف الوسائل"[١].

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٥ :٢٢١ ـ ٢٣٣.

اللندنيّون الخَمسَة أو الخَمسَة الكبَار

في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٣٥، دخل إلى وزارة الخارجية البريطانية عميل سوفياتيّ إسمه "دونالد ماكلين"... وسيصبح هذا الأول ضمن مجموعة من العملاء الإنكليز الذين جُنِّدوا مباشرة قبل أو بعد نيلهم إجازاتهم من جامعة كمبردج، ليتسللوا إلى أروقة السلطة في الـ"وايت هول". وينظر جهاز الاستخبارات السوفياتي K.G.B كذلك إلى جواسيس كمبردج الخمسة على أنهم أشد قدرة علىالإطلاق من كل مجموعات العملاء الأجانب الذين جنّدهم.

وخلال الحرب العالمية الثانية، كان يطلق عليهم اسم "اللندنيون الخمسة The London Five"، إذ تعاملوا جميعًا مع مركز لندن، أو ببساطة أكبر إسم "الخمسة The Five". وبعد إخراج فيلم "السبعة الكبار The Magnificent Seven"، أصبح الإسم عند المديريّة الأولى "الخمسة الكبار". وكان الاثنان اللذان عرفت هويتهما علنًا هما "دونالد ماكلين" و"غي بورجس"، وهما اللذان هربا إلى موسكو عام ١٩٥١. وقد عَمّد الوسطاء البريطانيون كيم فيلبي على أنّه "الرجل الثالث"، وذلك بعد ارتداده عام ١٩٣٥. أمّا "الرجل الرابع" أي "أنطوني بلونت" فافتُضح أمره العام ١٩٧٩. وخلال ثمانينات القرن العشرين، وبحثًا عن الرجل الخامس سار، الوسطاء دروبًا شتى، مقتفين آثارًا مغلوطة مختلفة، ليخلصوا إلى ادعاءات خدّاعة وهويات مغلوطة. أما هويته التي كشفها غورديفسكي عندما كان يحضِّر التاريخ السري للمديرية الثالثة PDG، التابعة للمديرية العامة في الـ K.G.B، فقد عُرضت في الفصل لأول مرة في

الفصل السادس من كتــاب Gordievsky Oleg & Andrew Christopher, *Le KGB dans le Monde 1917 - 1990.*[1].

خلافًا لـ"أولدهايم" و"كنغ" اللذين كانـا يبيعـان أسـرار وزارة الخارجيـة البريطانيـة، كانت دوافع الخمسة الكبار إيديولوجية. وإنّ معاداة الفاشيّة هي التـي استُخدمت كطعم من أجل دفعهم للعمل لصالح الـ K.G.B وذلك بعد اسـتيلاء النـازيّين علـى السلطة فـي ألمانيا. وعلى هذا النحو يروي "أنطونـي بولنـت" روايـة تجنيده عـبر مؤتمـر صحـافيّ عقده في ٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر بعد كشفه عام ١٩٧٩:

"في منتصف الثلاثينات بدا لي، كما وللعديد من الأشخاص مـن جيلـي، أن الحـزب الشيوعي وروسيا شكّلا المعقل الوحيد الحصين ضد الفاشيّة، بينما كانت الديمقراطيّـات الغربية تتبنى موقفًا مريبًا ومشبوهًا إزاء ألمانيا. وقد أقنعني "غي برجيس" أنّه بالتحـاقي معه في عمله لصالح الروس أخدم بشكل أفضل قضية معاداة الفاشية".

كـان أكثريـة طـلاب جامعـة كمبردج فـي أواسـط ثلاثينـات القرن العشــرين مـن المحـافظين المصـابين بالاسـترخاء... ومـع أنـه كـان بتصـرف المحـافظين منتديـات أكسفورد وكمبردج السياسية الأكثر أهميـة، فقد ظهـروا كـأنهم يحتضـرون عقليًـا، مـع اشمئزاز عام إزاء النزعة الجهاديّة. وقد لاحظ كاتب في مجلة كمبردج في بدايـة العـام ١٩٣٤ أنّ "النشاط السياسي في أقدم جامعـة خـلال السنوات الأخيرة، اقتصـر بشـكل واسع على نشاط الاشتراكيين، ويومًا بعـد يـوم علـى نشـاط الشـيوعيين... وقـد أثـارت التجربة الروسية اهتمامًا حيًّا كبيرًا داخل الجامعات، إذ أحسوا أنها جريئـة بنّـاءة، وأمـا

---

١ ـ راجع: أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنـادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١) ص١٨٦ ـ ٢٤٤.

فئة الشباب، المتبرّمة دائمًا بحقبات الحذر وبالعقبات التي يرفعها من هم أكبر منهم، فقد كانت مستعدّة، دون تدخّل آرائها السياسية غالبًا، للنظر بعطف لهذه المحاولة لتأسيس نظام اجتماعي وسياسي جديد"[١].

إن تعاطف الطلاب المثاليين المتنامي مع "التجربة الروسية" يقوم على الأحداث الدائرة في بريطانيا أكثر من قيامه على الأحداث التي كانت روسيا مسرحًا لها. وما اعتبره كيم فيلبي على أنه "المنعطف الحقيقي" لمسيرته السياسية، مثله في ذلك مثل الكثير من الشباب المتعاطف مع السوفيات، أتى من فساد أخلاق حزب العمال وانهياره عام ١٩٣١". إن "الخيانة" الكبرى للزعيم العمالي "رامسي ماك دونالد"، الذي وافق في آب ـ أغسطس عام ١٩٣١ على أن يرأس حكومة اتحاد وطني خاضعة للمحافظين، تلاها سقوط حزب العمال في الانتخابات التي حصلت بعد ذلك بشهرين. وبالنسبة لفيلبي "يبدو من غير المعقول أن يكون الحزب (العمّالي) ضعيفًا إلى هذه الدرجة بمواجهة الطاقة الاحتياطية التي يمكن للرجعية تحريكها في حقبة الأزمة. وما هو أكثر أهمية كذلك، أنّ جماعة الناخبين المفترض أنها ناضجة، تُركت تُخدع بالدعاية الوقحة الرائجة، وارتابت جديًّا حول صحة المسلّمات التي ترتكز عليها الديمقراطيّة بمجملها.

وبينما كان حزب العمّال يغرق في الأزمة، كان الاتّحاد السوفياتي في أوج التحول الاقتصادي الكبير للخطّة الخمسيّة الأولى. وكان "الخمسة الكبار" قد فُتنوا ليس بواقع روسيا الستالينيّة الصعب، إنّما بصورة خرافيّة عن الاشتراكيّة: فالفلاّحون والعمّال انكبّوا بشجاعة على بناء مجتمع جديد، متحرّر من العجرفة الاجتماعيّة لنظام الطبقات

---

١ ـ Guillebaud C. W., *Politics and the Undergraduate in Oxford and Cambridge*, Cambridge Review, Jan. 26, 1934.

البريطاني. لقد ظهرت الأسطورة قويّة جدًّا بحيث أنها قاومت حتى المشاهدات الميدانيّة لهؤلاء الذين فتنتهم. وقد كتب "مالكولم ماغيريدج Muggeridge" الذي ربما كان أفضل صحافي بريطاني في أواسط ثلاثينات القرن العشرين، يقول عن هؤلاء الحجّاج التقدميّين القادمين من بريطانيا: "إن افتتانهم بكل ما يرونه ويسمعونه يشكّل دون أدنى ريب إحدى عجائب عصرنا. لقد كان هناك مدافعين شرفاء عن تهديم "إنساني" للماشية التي تنتظر إلى المقر العام للدائرة السياسية الموحدة لأمن الدولة OGPU المدهش وعيونهم تشعّ ببريق الامتنان؛ مدافعين شرفاء عن التمثيل النسبي يوافقون برصانة عندما نشرح لهم ضرورة دكتاتوريّة البروليتاريا! رهبانًا شرفاء يتصفّحون بوقار كتاب الدعاية الملحدة... دعاة سلام شرفاء ينظرون ببهجة إلى الدبابات تسير هادرة في الساحة الحمراء وقاذفات القنابل تجعل السماء مظلمة... مهندسين معماريّين يقفون أمام أبنية مهدّمة مكتظة بالسكان ويهتفون: "آه، لو يكون لدينا شيئًا مماثلاً في إنكلترا!" إن السذاجة غير المعقولة لهؤلاء السيّاح، الذين كانوا قد مرّوا جميعًا تقريبًا بالجامعة، أدهشت حتى الضبّاط السوفيات المسؤولين عن هؤلاء الزوار الأجانب"[١].

أمّا المراسل الأميركي في موسكو "ويليام ث. وايت"، فيبرز السذاجة ذاتها عند مواطنيه: "كانوا مفتونين للغاية بكل ما رأوه، غير أنهم لم يكونوا دائمًا منطقيّين... كانوا متحمّسين قبل وصولهم، ولم تؤدّ زيارتهم إلاّ إلى مواجهة إيمانهم الخاص. زار أستاذ من جامعة بروكلين التجهيزات التقنية لإحدى الصحف، وقد شاهد آلة تصنع العجائب بالورق الذي تُلقَّم به: فعلاً، إنّه شيء مدهش، علّق قائلاً: إن اختراعًا مدهشًا كهذا لا يمكن صنعه إلا في بلاد مثل بلدكم حيث العمل حر، وحيث لا يوجد استغلال وحيث هناك خطة... سأضع كتابًا عمّا رأيت".

---

١ - Hollander Paul, *Political Pilgrims,* Oxford University Press (Oxford,1981) p. 102.

أما بالنسبة "للخمسة الكبار"، فقد شكل المثل الأعلى لحرب سرية ضد الفاشية في صفوف الأممية الشيوعية محرضًا أقوى من التعاطف مع الاتحاد السوفياتي، يقودهم للتجسس لحساب الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD. وقد أعدّ الحملة ضد الفاشية، التي أدّت إلى تجنيد عملاء من كمبردج، "ويليام مونزنبرغ"، البارع الكبير في الدعاية التي يقوم بها الكومنترن ومدرِّب "نوادي الأبرياء" المخصصة لحشد المثقفين في منظمات كان يسيطر عليها الشيوعيّون في عشرينات القرن العشرين.

وخلال عملية "مطاردة الساحرات" التي قام بها النازيون ضد الشيوعيين بعد حريق الرايخستاغ في ٢٧ شباط ـ فبراير ١٩٣٣، وهو الحريق الذي اتّهم النازيّون الشيوعيّين بإحداثه، اضطر مونزنبرغ لنقل مقره العام من برلين إلى باريس، حيث أسس في حزيران ـ يونيو عام ١٩٣٣ ما يجب أن يصبح الأكثر فعالية من كل "نوادي الأبرياء"، أي "اللجنة الأمميّة لمساعدة ضحايا الفاشيّة الهتلريّة". وقد لاحظ الكاتب "أرثر كويستلر"، الذي عمل لحسابه، أنه وكما في "نوادي الأبرياء"، "فقد حرصوا أشد الحرص على عدم إلحاق أي شيوعيّ باللجنة... ما عدا بعض الأسماء المعروفة عالميًا مثل "هنري باربوس" و"ج. ب. س. هالون"... وكان الفرع الفرنسي بقيادة مهاجر هنغاري مميز جدًا هو الكونت "كاروليي Karolyi". أما الرئيس الأممي فكان العمالي البسيط "لورد مارلي"، وقد أعطى موافقته كذلك للفيزيائي "ألبرت أينشتاين" وأشير إليه على أنه رئيس اللجنة. وقد أتاحت مساهمتهم إظهار هذه اللجنة كمنظمة إنسانيّة وليست حزبيّة. وفي الحقيقة، اضطر "كويستلر Koestler" لأن يكتب بأنّ أمانة السر الباريسية التي تشرف عليها كانت "لجنة شيوعية صافية ، يقودها مونزنبرغ ويشرف عليها الكومنترن... إن مونزنبرغ ذاته كان يعمل في غرفة واسعة في مركز اللجنة الأممية، ولكن لم يره أي أجنبي أبدًا... بل كان الأمر أسهل من ذلك...".

إنطلاقًا من قاعدته الباريسية، نظم مونزنبرغ في آب - أغسطس من العام ١٩٣٣ نَشْر العمل الدعائي الأكثر فعالية في تاريخ الكومنترن، إنّه "الكتاب الأسود حول حريق الرايخستاغ والإرهاب الهتلري" الذي نشره "فيكتور غوليانكز" في بريطانيا، وتُرجم بسرعة إلى أكثر من عشرين لغة، بدءًا من اليابانية وانتهاءًا باليِّديشية Yddish، وأصبح "الكتاب الأسود" "توراة الحملة المضادة للفاشية" على حد قول "كويستلر Koestler"، ويصر هذا الأخير مع قليل من المبالغة، على أنّه "من بين كل رسائل الهجاء والنقد، فهو على الأرجح الذي كان فعل الصدفة الأقوى منذ "الإحساس المشترك Common Sense" لـ"توم بن Tom Paine" الذي طالب باستقلال المستعمرات الأميركية قبل ذلك بقرن ونصف"... وحسب صفحة العنوان، فقد "أعدَّت هذا الكتاب اللجنة الأممية لمساعدة ضحايا الفاشية والهتلرية"، التي يرأسها "إينشتاين"، مع مقدمة لـ"الورد مارلي". وقد كتب أينشتاين، في ما بعد قائلاً: "إنّ إسمي الذي ظهر في الطبعات الإنكليزية والفرنسية يوحي بأنني أنا المؤلف، وهذا ليس صحيحًا. فلم أكتب منه أيّ كلمة". على أنّه وبما أن المطروح قضية عادلة، فقد قرّر الفزيائي الكبير عدم الاحتجاج: "إن واقع أني لم أكتبه" يقول بلطف، "ليس من الأهمية بمكان"[١]. وقد منحت مقدمة لورد مارلي التي حررها في "غرفة اللوردات، لندن SWI" الكتاب طابع الاحترام والمصداقية الدقيقة. ويؤكد اللورد النبيل للقراء: "لم نستخدم الملفات... الأكثر مادية... فقد تم التحقق من كل واقعة رواها هذا الكتاب وهي تمثل العديد من الحالات المشابهة". وكان لورد مارلي على درجة كافية من السذاجة ليصدق مقدمته الخاصة.

---

١ - Clark Ronald W, *Einstein: The Life and Times,* Hodder & Stoughton (London,1973) p. 463.

ومثل أكثرية الحيل الناجحة، يرتكز "الكتاب الأسود" على ناحية واقعية، مهمة، إنما كانت هذه الناحية، وكما بيَّن بعد ذلك "كويستر"، مدعمة بالتزبيف والأكاذيب الوقحة التي يطلقها "جهاز الاستخبارات التابع للكومنترن".

وقد حررت القسم الأساسي من النص، حسب كويستلر، يد مونزنبرغ اليمنى، أي "أوتو كاتز" ولقبه "أندريه سيمون"...

كان كاتز يهوديًا تشيكيًا، ومثل مونزنبرغ، "مركزًا أوروبيًا" لمقاومة الامتثالية، ومواطنًا عالميًّا، يتمتع بسحر هائل، بعيدًا عن صورة ستالين العقائدي التي نجدها لدى عناصر في الحزب الشيوعي. وخلال عشرينات القرن العشرين، كان قد نسج شبكة فريدة من الاتصالات في مجال النشر والصحافة والمسرح والصناعة السينمائية. "وفي هوليود حسب "بابيت غروس"، سيطرت حملة مونزنبرغ بسحرها على الممثلين والمخرجين والمؤلفين الألمان المهاجرين. وقد مارس كاتز إغراءً غير عادي على النسوة... الورقة الرابحة التي ساعدته إلى حد بعيد في تنظيم اللجان والحملات". وكان كويستلر يرى كذلك أن كاتز "يجتذب النسوة، وخاصة من عمر معيَّن، الطافحات بالنوايا الحسنة والنشيطات سياسيًا... وقد استخدمهن لتسهيل طريقه". وكانت إحدى مهمات أوتّو... هي التجسس على ويلّي لحساب الجهاز. وكان يعرف ذلك ولا يبالي به. لقد كان ويلّي بحاجة إلى أوتّو، غير أنه كان يجد صعوبة كبرى في إخفاء احتقاره له. ورغم كل المظاهر، كان أوتّو، ويا للمفارقة، إنسانًا محبوبًا جدًا. فقد تمتع بنبالة المغامر، وبسلامة الطويّة، وكان يبدو عفويًّا خدومًا طالما لا يتعارض ذلك مع مصالحه"...

وفي ما يخص تحرير "الكتاب الأسود"، فقد استعان كاتز بالمدعو "ألكسندر أبيش Abusch"، وكان هذا محررًا عتيقًا في رئاسة جريدة الحزب الشيوعي الألماني

Die Rote Fahne، وفي ما بعد وزيرًا في حكومة ألمانيا الشرقية بعد الحرب. وقد استعان كاتز كذلك بمجموعة من الصحافيين الشيوعيين الآخرين. ولم تثمر كل المحاولات التي بذلها باستمرار أشخاص من الخارج وذلك لمعرفة تركيبة اللجنة الأممية لمساعدة ضحايا الفاشية الهتلرية المسؤولة عن "الكتاب الأسود". وقد وجد صحافي أميركي يساري، مرَّ في باريس، أنّ مسائل هذه اللجنة غارقة في تفسير ملتبس لا فائدة منه: "لقد حاولت فعلاً اكتشاف من يشكل اللجنة وطرحت السؤال: "من هي اللجنة؟" الجواب: "نحن". ودخلت أكثر في العمق: "من هذا، نحن؟" الجواب: "مجموعة من الأشخاص تعهدوا بالدفاع عن الأبرياء" "أية مجموعة من الأشخاص؟" وكان الجواب: "لجنتنا""[1].

ينتقم "الكتاب الأسود" من زعم نازي مفاده أن حريق الرايغتساغ نجم عن مؤامرة شيوعية، وذلك باستخدام حجة، كلها تدليسيَّة كذلك ولكنّها أكثر قدرة على الإقناع، تبين أن في الأمر مؤامرة نازية... وهناك ملفات مزيفة استخدمت لإثبات أن "مارينوس فان درلوب"، الهولندي المسؤول عن الحادث المشؤوم، كان عنصرًا في مؤامرة نظمها معلمه الداعية غوبلز. إن مجموعة من الـ SA أُدخلت إلى الرايغتساغ عبر ممر أرضي يتصل بالمقر الرسمي لرئيسه النازي، أيْ كورنغ Coering، أشعلت النار وخرجت عبر الطريق نفسه. إن مزيدًا من الصدق أضفي على المؤامرة الوهمية عبر فضيحة جنسية مرتكزة على براهين خاطئة تثبت صلات فان درلوب مع موظفين نازيين لواطيين....

---

١ - Hays Garfield, Cité in Fritz Tobias, *The Reichstag Fire: Legend and Truth,* Secker & Warburg (London, 1936).

استمر التسليم بالفرضية الأساسية "للكتاب الأسود"، المقبولة فورًا لدى الكثيرين من مناهضي النازية والموجودة في الطبعات اللاحقة، حتى عام ١٩٦٢، عندما ناقض الصحافي الألماني الغربي "فرينز توبياس" النظريتين، النازية والشيوعية، وبرهن أنه وحسب كل احتمال، فإن فان درلوب قد تصرف لوحده، على أمل وهمي بإثارة ثورة شعبية. ولم تجد اكتشافات توبياز ترحيبًا في RDA التي موّلت مناورات أخرى لتجديد رواية الأحداث الواردة في "الكتاب الأسود".

وفي السبعينات، أفسدت المناورة الأكثر ذكاءًا والتي كانت مبادرة من مهاجر كرواتي هو إدوارد كاليك، بنجاح لجنة أممية من أجل البحث العلمي حول أسباب ونتائج الحرب العالمية الثانية، مولتها وزارة الشؤون الخارجية ومكتب الصحافة في الجمهورية الاتحادية وتضم مؤرخين ألمان غربيين موثوقين - حتى يتم الإعلان أخيرًا عن أن هذه الملفات هي كذلك مزيفة...

لقد استخدم موزنبرغ "الكتاب الأسود" في إحدى ضرباته الأكثر ذكاء، فخلال صيف ١٩٣٣، توجه إلى موسكو وحصل على موافقة المكتب الغربي للكومنترن OMS من أجل خلق لجنة أممية لرجال القانون، مؤلفة من غير الشيوعيين والتي ستعلن موقفها بتجرد حول أسباب حريق الرايغتساغ . وبعد عودته إلى باريس، وضع مونزنبرغ مع كاتز الخطط الخاصة بـ"هيئة بحث حول أسباب حريق الرايغتساغ"، والتي يجب إنجازها في لندن قبيل محاكمة فان درلوب والمتآمرين من زملائه المزعومين التي بدأت في لايبزيغ. وكان رئيس هذه الهيئة - أو "المحاكمة المضادة" كما سمّيت - هو زميل إنكليزي، إنه "د. ن. بريت ل. ث." البرلماني العمالي المرموق والمحامي كذلك. وقد طرد في ما بعد من حزبه وذلك لتأييده غزو الاتحاد السوفياتي لفنلندا....

أما زملاء بريت في اللجنة الدولية للحقوقيين، فهم الأميركي "أرثر غارفيلد هيس"، بطل حركة الحقوق المدنية، و"جورج برانتغ"، إبن أول رئيس وزراء اشتراكي في السويد، والمحامون الفرنسيون "مورو ـ جيافيري" و"غاستون برجري" والدانمركي "فالدمير هويدت"، و"بتسي باكر ـ نورت" من إيرلندا الجديدة والبلجيكي " بيار فرملين...

توجه بريت إلى لندن لكي ينظم المحاكمة المضادة. وتكشف ملفات وزارة الخارجية البريطانية عن أنّه سُمح له بالعودة إلى بريطانيا مع أن اسمه ورد على اللائحة السوداء لدائرة الأمن البريطانية MI-5 كشيوعي مشهور، وذلك بعد تدخل "أرثر هندرسون"، وزير الخارجية السابق، وغيره من أعضاء حزب العمال المتعاطفين مع المحاكمة المضادة... وعلى الأرجح أن هؤلاء لم يكونوا على علم بصلات كاتز مع دوائر المخابرات السوفياتية. ورغم معارضة دائرة الأمن البريطانية MI-5 أذن المكتب الرئيسي Home office لكاتز بالعودة بعد ذلك بسنة، "وليس للخوض في المسائل البرلمانية العمالية".

في لندن، أقام كاتز هذه المرة في الكواليس "كمنظم مجهول للجنة" على حد قول كويستلر. غير أنه نجح نجاحًا باهرًا في منح المحاكمة المضادة صورة محترمة. وفي ١٣ أيلول ـ سبتمبر، أقام اللورد مارلي وسيدني برستين حفل استقبال للحقوقيين في فندق واشنطن الرائع في حي "مايفر". وفي الغد بدأت المحاكمة داخل لنكولن Lincoln في صالة محكمة الجمعية القانونية، وهذا ما أعطى للمرافعات مظهر البلاط البريطاني. وقد أشار خطاب الافتتاح للعمالي "ستافورد كريبس" الذي أصبح سفيرًا لدى الاتحاد السوفياتي خلال الحرب، ثم وزيرًا للمالية، إلى أن "كل محامي هذه اللجنة لا ينتمون إلى الحزب السياسي ذاته (أي الحزب الشيوعي) الذي ينتمي إليه المتهمون في ألمانيا".

ويفهم من ذلك أن كاتز كان راضيًا، وقد أصبحت المحاكمة المضادة، كما جرى التباهي في ما بعد، "محكمة غير رسمية، أصل التوكل فيها هو الضمير العالمي"... لقد نجح كاتز أيّما نجاح في أن يجمع الاحترام والميلودراما: شهود مقنّعون... وإقفال لأبواب القاعة لكي لا يتمكن أيّ كان من الخروج عند انتقال الشهود "المهمّين جدًا" إلى قفص المحكمة... وها هو رئيس المحكمة بريت، يصرخ بفصاحة بأن حكومة الاتحاد الوطني برئاسة ماك دونالد تحاول خلق عراقيل في وجه المحاكمة ... المضادة[1]. ومع ذلك ظهر بعض عدم المبالاة عندما بدأت الجلسات تطول وذلك رغم إعدادها الجاد. إنتهى بعض المتعاطفين الكبار مثل الكاتب هـ. غ. ويلز إلى الغرق في الضجر. ومع أنه لا يبدو أن المحامين ارتابوا بالمصادر المشكوك فيها لبعض البراهين التي قُدِّمت لهم، فقد كانوا أقل دقة في استنتاجاتهم مما كان يأمله موزنبرغ وكاتز. وبدل أن تقفل المحاكمة على تشهير مدوٍّ بالنظام النازي، استنتجت المحاكمة المضادة، بحذر أكبر، "وجود افتراضات جدية تسمح بالاعتقاد أنه تم إحراق الرايختساغ بناءًا على أمر من، أو عبر شخصيات مهمة في الحزب الوطني الاشتراكي"...

إن بعض الخيبة التي أصابت مونزنبرغ وكاتز بعد صدور قرار المحاكمة المضادة، تلاشى بسرعة من جراء محاكمة لايبزغ بالذات والتي تحولت إلى كارثة بالنسبة للدعاية الهتلرية. فرغم جهود القاضي الألماني للمبادرة بمساعدتهم، فإن شهادات بعض الشهود النازيين الأساسيين جرى تمزيقها. أما المتهم الأساسي الشيوعي البلغاري ديمتريوف، والرئيس المقبل لمجلس النواب في بلاده عام ١٩٤٦، فدافع عن نفسه بامتياز. وقد غضب غورنغ أشد الغضب من هزيمة الفرضية النازية حتى أنه فقد

---

١ - Strojanoff P., Reichstagsbrand: Die Prozesse in London und Leipzig, Europa Verlag (Vienne,1966), p. 183.

هدوءه وصرخ بوجه ديمتريوف: "انتظر لأقبض عليك خارج هذه المحكمة". أما فان درلوب الذي راح يؤكد منذ البداية على كونه المسؤول الوحيد، فأعلن أنه مذنب وأُعدم، بينما أخلي سبيل كل المتهمين الشيوعيين. وقد ساهم هذا بتعزيز المقولة الشيوعية كما كان قد عرضها "الكتاب الأسود". وقد اختلق مونزنبرغ وكاتز ومساعدوهما "كتابًا أسود" آخر لاستغلال حيرة وارتباك النازيين في محاكمة لايبزغ، وتصحيح المقاطع الأقل قدرة على الإقناع من الطبعة الأولى وإضافة افتراءات أخرى...

ومثل "توادي أبرياء" مونزنبرغ الأولى، فقد سعت الحملة حول حريق الرايغتساغ إلى خدمة غايات الكومنترن وجهاز المخابرات السوفياتي مثلما سعت للحصول على نصرٍ إعلامي. ومع أن هدفها الأول كان إقناع الرأي العام، فقد توخت كذلك جذب بعض المثقفين البريطانيين إلى حرب سرية، بقيادة الكومنترن وضد الفاشية. وقد تزامنت التحضيرات لحملة تجنيد الشباب المثقف "البريء" مع التحضيرات للمحاكمة المضادة. وكانت جامعة كمبردج أحد أهداف موزنبرغ. وكان على مبعوثته الكونتِسّة "كارولي" التصدي للحماس الساذج الذي وجدته عند شيوعيّي كمبردج عندما أرسلها لجمع مواضيع للمحاكمة المضادة ولدفاع ديمتريوف في لبزيغ: "أتذكّرُ سفري إلى كمبردج في سيارةٍ بطيئة لطالب شاب شيوعي وقد شرح لي في الطريق وبحزن أنه من غير الضروري بل والمؤسف أنه سيتم تدمير جامعتيْ كمبردج وأكسفورد العتيقتين والرائعتين عندما تقام دكتاتورية البروليتاريا. وأضاف يقول إنهما كانتا وخلال قرون عدة رمزًا لامتيازات البورجوازية. وبدا أنه يشكك بمصداقية فكري الثوري عندما تساءلت حول ضرورة تدمير كهذا. بذهابنا إلى كمبردج، فإننا نتوجه إلى أحد المعاهد حيث يلعب فيه طلابٌ يرتدون الأبيض بكرة الطاولة على ملاعب فسيحة. وقد استقبلنا

بالكثير من الحماس. وكان أمرًا مستغربًا رؤية طلاب من جامعة بهذه الشهرة، من أصول مرتاحة بحكم الواقع، يعبرون عن أنفسهم بطلاقة ويتكلمون الروسية السوفياتية بسهولة"[١].

وكان المفتاح الرئيسي لموزنبرغ في كمبردج والمنظم المحتمل لزيارة الكونتيسة كارولي هو "موريس دوب"، أستاذ الاقتصاد في معهد بومبروك، وفي ما بعد في ترينيتي.

كانت شيوعية دوب ظاهرة لا مراء فيها. فعند تأسيس الحزب الشيوعي البريطاني عام ١٩٢٠، كان هذا ولا ريب أول جامعي إنكليزي ينضم إليه، وخطب مرارًا في كمبردج، ممجّدًا نجاحات المجتمع السوفياتي... وعام ١٩٢٥، أراد الملك جورج الخامس أن يعرف كيف سُمِح هكذا لشيوعي في أن يعلّم الشبيبة. لكن، ومع أنه لفت نظر الشعبة الخاصة ودائرة الأمن البريطانية MI-5، فقد كان بوب بالأحرى داعية ومناضلاً في التنظيمات مثل رابطة موزنبرغ المضادة للإمبريالية، ولم يكن رجلاً متورطًا ببعض الالتزامات مع الخابرات السوفياتية. وفي عام ١٩٣١، وبالتعاون مع "روي باسكال"، أستاذ اللغات الشاب في بومبروك، أسس أول خلية شيوعية في الجامعة، هي "البيت الأحمر"، وذلك تيمنًا بمنزله في شسترونون لاين[٢]. لقد كان ساذجًا بقدر ما كان متحمسًا. فمع كل عمله للتبشير للشيوعية ولحرب الكومنترن ضد الفاشية الدولية، فمن المحتمل أنه لم يدرك أنه يعمل لكشف مواهب جديدة لصالح الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD.

---

١ - Karolyi Catherine, *A Life Together*, Allen & Unwin, (Londres,1961), pp. 298-299.

٢ - Costello John, *Mask of Treachery*, Collins (London,1988), pp. 164-167, 197-198.

إن الطُعْم الذي اخترعه مونزنبرغ لإغراء شباب كمبردج المثقفين البسطاء، ومن ناحية ثانية من أجل تسليتهم بالعمل لصالح المخابرات السوفياتية، كان المثل البطولي الذي يقدمه العمال الألمان الذين شكّلوا سرًا الـ"المجتمعات Fünfergruppen" أو... "حلقات الخمسة" المزعومة للتحضير من أجل هجوم مضاد تقوم به البروليتاريا ضد النازية. فقد تم في ما بعد الخلط بين "مجموعات الخمسة" هذه والخمسة الكبار" والصيغ الأخرى من النوع ذاته التي فتحتها الـ K.G.B لجواسيس كمبردج الخمسة الموهوبين للغاية، قبل وبعد الحرب العالمية الثانية. هذا وتعود "حلقات الخمسة" إلى الفترة السرية الثورية في روسيا القيصرية. وفي الحقيقة فقد شُكلت "حلقة الخمسة" الأولى عام ١٨٦٩ على يد الطالب الثوري "سيرغي نيتشايف"، والذي استخدمه دوستويفسكي كمثال لإبداع شخصية "بيار فرخومانسكي" في روايته "الأبالسة". وإذا كان الكتاب قد اعتبره مضطرب الشخصية والعقل (سايكوباتيك)، فقد رأى فيه المتآمرون على إرادة الشعب ثم البلاشفة نبي الثورة الحقيقي...

أعاد الحزب الشيوعي الألماني (KPD) إحياء "مجموعات الخمسة" خلال السنوات الأخيرة... الشديدة التوتر، من حكم جمهورية وايمر، وذلك قبل وصول هتلر إلى السلطة. فخلال صيف ١٩٣٢، سارع إلى استبدال خلاياه النصف مفتوحة والمؤلفة من عشرة إلى ثلاثين عضوًا "بحلقات الخمسة" السرية والتي دعيت على هذا النحو تيمنًا بـ"نيتشايف"... وفي الواقع لم يصل العدد في كل هذه المجموعات إلى خمسة. والمفترض بمسؤول كل مجموعة فقط أن يعرف هوية وعنوان بقية الأعضاء، وهو وحده يملك السلطة الضرورية ليتصل مع المستوى الأعلى في الهرمية الحزبية.

في مواجهة التحدي الهتلري، تصرف الحزب الشيوعي الألماني في الواقع، وكما كشف ذلك كويستلر، مثل "عملاق مخصي ضعيف"... فقبل استيلاء النازيين على

السلطة، صوب نيرانه ليس عليه إنما على خصمه الرئيسي اليساري، أي الحزب الاشتراكي الديمقراطي (SPD)، وبعد الثلاثين من كانون الثاني - يناير عام ١٩٣٣، أيد العديد من المناضلين هتلر...

إن القسم الأساسي من المقاومة الشيوعية للرايخ الثالث لم تشكلها منظمة سرية مركبة، وإنما قامت بها معارضة متفرقة داخل الجيش المؤيد لهتلر والمكوّن من العمال. وقامت بشكل خاص من بين عمال البناء ذوي الأجور الزهيدة... لقد اقتفى الكومنترن فشل الحزب الشيوعي الألماني المخزي، وغير القادر على تحدي النازية، مؤكدًا على أن الحزب كان دخل مرحلة السرية وأن "حلقات الخمسة" خلقت "ألمانيا جديدة ثورية متوارية تحت الأرض... فلغّمت الأرض تحت أقدام هتلر".

كان الداعية على رأس المجموعات الخمسة هو "سيمون نيقولايفيتش"، العنصر غير الشرعي في المديرية السياسية الموحدة لأمن الدولة OGPU والمُلحق بمونزنبرغ، والذي وجد لنفسه متنفسًا كصحفي في لندن بالاسم المستعار "إرنست هنري"، وفي ما بعد "هنري" أو "غنري". وفي آب - أغسطس وأيلول - سبتمبر من العام ١٩٣٣، حرر ثلاث مقالات حول "الحركة الثورية في ألمانيا النازية" لصالح أكبر مجلة أسبوعية يسارية في بريطانيا هي The new Statesman. وكان عنوان الأولى هو "مجموعات الخمسة"، وفيها يكشف لأول مرة عن وجودها وتتضمن تأكيدات مبالغ فيها حول نجاحاتها: "ربما لا وجود لأمثلة أخرى في التاريخ عن حركة ثورية سرية لديها تنظيم في مثل هذا التكامل وتأثير في مثل هذه الحقيقة على مجمل البلاد، وقادرة على أن تتطور في مثل هذه الفترة الزمنية القصيرة... وتغطي مجموعات الخمسة هذه عمليًا كل الصناعة الألمانية: ولها فروع في كل المصانع تقريبًا والقسم الأكبر من المكاتب الكبرى".

وتضم المجموعات زورًا، الكثير من الاشتراكيين القدماء والجمهوريين والليبراليين والكاثوليك والذين تجاوزوا، وبقيادة الشيوعيين، كل خلافاتهم القديمة ويعملون من أجل هدف واحد: "المعركة ضد الفاشية". غير مكتفية بنشر مواد دعائية سرًا، وتنظيم مظاهرات وجمع معلومات حول الإرهاب الهتلري، توصلت مجموعات الخمسة لاختراق الحركات العمالية النازية وراحت تتهيأ لشل النظام في الداخل. ويثبت مثَل مجموعات الخمسة على هذا النحو أهمية التسلل وجمع المعلومات لشن الحرب على الفاشية. ويدّعي هنري بأن الشبكات النازية كانت في ما مضى قوية للغاية ومنتشرة بحيث شكّلت "فاشية دولية" سرية. ويترتب على ذلك بأن على المعادين للفاشية كذلك أن ينتظموا سرًا وعلنًا في الوقت ذاته. ومهما بلغَت من المغالاة فإن رواية هنري الرومانسية في مجلة The New Statesman تعطي انطباعًا عميقًا جدًّا بأن الكثير من القراء تخلوا عن كل فكر نقدي. وقد أشار رئيس التحرير "كانفسلي مارتان" إلى أن "الوقائع" التي أوردها هنري "لا يرقى إليها الشك"...

وفي آذار ـ مارس من العام ١٩٣٤، استعاد هنري الحجج ذاتها عندما وسّعها في كتاب بعنوان "هتلر زعيم أوروبا؟ Hitler over Europe?"، وقد أعيد طبع هذا الكتاب مرتين في الأشهر اللاحقة. وقد كتبت التايمز أنه يقتضي "منح القشعريرة إيجابيًا للديمقراطيين".

في هذا الكتاب كما وفي النصوص التي تلته، كانت فكرة هنري الرئيسية، أن قُرّاءه أمام خيار بسيط للغاية: برلين أم موسكو. "ففي العالم الحديث، الممزق بين هاتين القوتين العُظمَيَين، وببزوغ فجر تغيّره النهائي، لا وجود لحياد اجتماعي وسياسي ومن غير الممكن وجوده". إنه هروب ليبرالي خالص مقابل التفتيش عن طريق وسط. وخلال لقاءات مع متعاطفين، طوّر هنري الفرضية ذاتها بإضافة حجج شخصية:

"وأنتم يا أيها الإنكليز"، قال لهم، "هل أنتم ليبراليون راغبون بفعل الخير بشكل مطلق!" وعلى هذا النحو عرضت عليهم القيم الديمقراطية المحترمة، بواقعية وكحجة مقنعة للامتناع عن أي عمل. إن معنى خطاب هنري هو أن على المثقفين الإنكليز إظهار تضامنهم (الكلمة المدخل في قاموس مونزنبرغ حين يتوجه إلى المثقفين السذّج) مع العمال الألمان المسحوقين وذلك بالتحاقهم بحربهم السرية ضد الفاشية... هذا إذا كانت معاداتهم للفاشية شيئًا آخر غير التعهد الكلامي. وقد اعتبر "غي بورجيس"، الشاب الشيوعي الأكثر "بريقًا" في كمبردج، أن لهذا الخطاب قوة لا تقهر. وعلى حد قول عضو من محيطه. قرر بورجيس تشكيل "حلقة خمسة" خاصة به...

كتاب "هتلر زعيم أوروبا"؟ كان في نيسان – إبريل عام ١٩٣٤ محط تنقيح في مجلة New Statesman بقلم "بريان هوارد"، أحد أقرب أصدقاء بورجيس، وهو مِثْله "إيتونياني عتيق"، ماركسي لوطي وذو مزاج جشع. ومع أن ايفلين ووغ Waygh، مستعيدة قول السيدة كارولين لامب بخصوص بيرون، أشارت إليه بـ"مجنون خبيث وخطر"، فإن هوارد أصبح بسرعة ذا حظوة كبيرة في الأوساط الأدبية. وقد وضع تقريظًا لكتاب "هتلر زعيم أوروبا؟، إذ قال "إنه وعلى الأرجح أفضل ما كتب بالإنكليزية عن الرايخ الثالث"... "إن على كل من يحاول بجدية فهم الأسس الحقيقية من معهد إيتون Eton العالي الشهير N.D.E، للهتلرية أن يقرأ كتاب أرنست هنري... فهو يكشف لأول مرة أوليات الحركة النازية". وهكذا يوافق هذا النقد على تحليل هنري حول "مجموعات الخمسة" وينتهي بدعوة الإنكليز المعادين للفاشية للتجمُّع ثانية بلا تأخير...

يمتد نشاط هنري ضمن دوائر الاستخبارات السوفياتية على مدى نصف قرن: فقد بدأ كعنصر "غير رسمي" في المديرية السياسية الموحدة لأمن الدولة OGPU في حقبة

ما بين الحربين وأنهى مهنته في المديرية الخامسة التابعة للـ K.G.B في عهد أندروبوف. وكونه ساهم بتجنيد بورجيس عام ١٩٣٣، تلقى هنري الأمر بمراقبته بحذر. بعد ذلك بجيل واحد، أي خلال السنوات الأخيرة من حقبة نفي الجاسوس البريطاني إلى موسكو والذي كان قد أصبح مدمن خمرٍ.. وقد توفي هذا عام ١٩٦٣. علمًا بأن هنري كان يرفض دائمًا التحدث علنًا عن مهنته، غير أنه انتهى أخيرًا بالاعتراف عام ١٩٨٨، أمام كاتب غربي أنه كان قد "كشف عن مواهب" لحساب الـ K.G.B في كمبردج وذلك خلال الثلاثينات وأنه كان على صلة ببورجيس مثلما كان على صلة ببوب....

عندما التقاه بورجيس لأول مرة، لم يكن هنري قد بلغ الثلاثين من عمره. لقد كان قصيرًا، نحيفًا، أصلع، ويحمل شاربين كثَّيْن. ومثل مونزنبرغ وكاتز، كان جذابًا، مواطنًا عالميًا ومنفتحًا، يختلف كثيرًا عن الستالينيين العقائديين المحدودين الذين كانوا يسيطرون حينها على الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD. أمّا "أديت كوبيت" التي عملت معه بعد ذلك بعشر سنوات، عندما كان رئيس تحرير "نيووز سوفيات Soviet News" في لندن، فتعتبره شخصية لامعة فعلاً يرتاح المرء إليه دائمًا، وتقول: "أعتقد أنني ضحكت خلال مدّة عملي معه أكثر ممّا ضحكت في أية مرحلة من حياتي"...

كان هنري يفضّل "بيكاسو" و"ماتيس" على الفنانين الواقعيين الاشتراكيين ذوي الخطوة الرسمية؛ وكان يرتدي بذلة إنكليزية أنيقة، ويحب أفلام رعاة البقر Westerns وقادرًا كذلك على أن يكون وقحًا. ومع أنه من المفروض أن يجذب ذلك بورجيس، فإن تصرفًا كهذا كان غير معقول في الاتحاد السوفياتي. بعد قراءته لسلسلة من خطابات ستالين المملة، قال هنري يومًا لأديت كوبيت: "ألا يكون من المسلّي لو قال أحدهم "ستالين اللوطي! Sod Stalin" لكي يغيّر؟" غير أن هنري كان كذلك شيوعيًا مثاليًا

ووطنيًا فخورًا للغاية بنجاحات السوفيات وبالتحولات الاقتصادية التي تنجزها الخطط الخمسية... وعلى مدى عمله في الصحافة والمخابرات، كان يركّز دائمًا على ضرورة "الكف عن تقدير الأوضاع الثورية وقدرات الشبيبة بأقل من الحقيقة": "فخلال قرنين تقريبًا، لم يخش المجتمع البورجوازي فعلاً سوى طبقة العمال. والحاصل الآن أنها تهاب قوة أخرى: الشباب الذين نأمرهم بالإصغاء وبالعمل بما يقال لهم. وحتى وقت قريب". وفي نص يعود للعام ١٩٨٢، انتقد هنري "المتطرفين من اليمين ومن اليسار سواءً بسواء" وذلك لتلاعبهم بمشاعر الطلاب "الحساسين"[١]. ولكن قبل خمسين سنة، كان هو بالذات الذي تلاعب، مع بعض النجاح، بنفس المشاعر. وأقرّ عام ١٩٨٨ بأنه كان "مدهشًا" بأنّ "كشفه عن المواهب" لحساب الـ K.G.B في كمبردج، في الثلاثينات لم يؤدّ به إلى الاعتقال...

مع أن أربعة من "الخمسة الكبار" وبعض الجواسيس الآخرين الأقل شهرة كان قد جرى تجنيدهم كذلك في كمبردج، فإن الأول والأكثر شهرة من بينهم دخل إلى K.G.B عَبْرَ باب مختلف قليلاً. إن هارولد أدريان راسل، أي "كيم فيلبي"، المولود في الهند في الأول من كانون الثاني - يناير ١٩١٢، كان ابن "هاري سان جون" و"دورا فيلبي". ووالده الموظف في ذلك الحين لدى الامبراطورية البريطانية أصبح مستعربًا مشهورًا. ومثل ابنه، الذي كان يعبده، فإن سان جون فيلبي كان يتجول بسهولة بين عالمين شديدي الاختلاف. كان يكتب لصحيفة التايمز، وحضر مرتين الانتخابات، وكان يرتاد كوبلاند لندن، ولا تفوته أبدًا مباراة الكركت. غير أنه اهتدى إلى الاسلام، وارتدى اللباس العربي في بيته وكان لديه سعودية سوداء كزوجة ثانية[٢].

---

١ - Henry Ernest, *Halte au terrorisme!* Novosti (Moscou,1982), pp. 32-33, 195.

٢ - Knightley Phillip, *Philby: KGB Master Spy,* André Deutsch (London,1988), chap. 1.

ومثل كيم، ولكن على مستوى أقل بكثير، فإن "سان جون" خان الدوائر البريطانية لحساب قوة أجنبية أبدى لها أمانة أكبر. وكونه أعجب أشد العجب بابن سعود، وهو أمير من السلالة الوهابية (١٩٠٢- ١٩٥٣)، وأول ملك للعربية السعودية عام ١٩٣٢، كان يُعدّ له تقارير سرية حول الشرق الأوسط.

مثل والده التحق كيم بمدرسة ويستمنستر Westminster القديمة بمنحة من الدولة. وفي تشرين الأول - أكتوبر ١٩٢٩، التحق بالمعهد ذاته الذي ارتاده والده أي معهد ترينيتي Trinity حيث كان يتلقى العلم كذلك أنطوني بلونت، وابتداءً من عام ١٩٣٠، غي بورجيس.

بوصوله إلى ترينيتي، كان أحد أعمال فيلبي الأولى أنّه تسجّل في الجمعيّة الاشتراكية التابعة لجامعة كمبردج Cambridge University Soualist Society المعروفة اختصارًا باسم (CUSS)، وفي خلال سنتين اقتصر ارتباطه على حضور اجتماعين اثنين. وفي هذه الحقبة قرأ كتبًا في التاريخ، ونادرًا ما انكب على العمل ولم يحصل سوى على درجة "حسن Assez Bien" في الامتحانات حاملاً الجزء الأول من محاضرات التاريخ في كمبردج. وفي تشرين الأول - أكتوبر ١٩٣١، اختار الاقتصاد في الجزء الثاني من دورته الدراسية. وصادف تغير اتجاهه هذا مع نصر انتخابي حققته حكومة الاتحاد الوطني بزعامة مكدونالد. والذي شكّل كارثة للعمال، حيث انخفض تمثيلهم إلى اثنين وخمسين مقعدًا فقط.

"إن هزيمة حزب العمال عام ١٩٣١" كما يروي في ما بعد، "هي التي جعلتني ولأوّل مرة أفكر بجدية بتناوب ممكن"، وهكذا بادر للمساهمة بفعالية أكبر في نشاطات الجمعية الاشتراكية CUSS - الخاضعة من الآن فصاعدًا للشيوعيينَ - متسلمًا أمانة الصندوق خلال عامه الأخير في كمبردج أي العام ١٩٣٢ - ١٩٣٣. إنما لم يتجاوز

فيلبي ما اضطر إلى تسميته "شكوكه الأخيرة" قبل فصله الأخير في ترينتي، أي بداية العام ١٩٣٣. وهناك تجربتان كانتا على الأرجح حاسمتين في أمر "اهتدائه" الأخير، الأولى كانت سفره إلى برلين في آذار ـ مارس عام ١٩٣٣ خلال عطلة الميلاد قبيل حريق الرايغتساغ، وذلك عند مشاهدته أعمال التعذيب ضد الحزب الشيوعي الألماني KPD وممارسات شرطة الدولة النازية. وعاد فيلبي إلى كمبردج متحرّقًا للمشاركة في المعركة ضد النازية.

وفي الجامعة، مارس "دوب" عليه التأثير الأكبر من الأساتذة الذين أعاروه كتب الاقتصاد، وكانا يتجاذبان مرارًا أطراف الحديث، ويطيلان على الأرجح عندما يصل الأمر إلى السياسة. وكان "دوب" يمجّد أمام طلابه دور الكومنترن في المعركة ضد الفاشية. وقد اضطر "ف. غ. كييرنان"، الطالب الآخر الذي وقع تحت تأثير "دوب" في معهد ترينيتي لأن يكتب في ما بعد: "لقد انتمينا إلى عصر الأممية الثالثة ـ رسميًا أممية على الأقل في الفكرة ـ في الوقت الذي تجاوزت فيه القضية كل مطلب قومي أو محلي".

حصل فيلبي في حزيران ـ يونيو ١٩٣٣ ومع درجة الشَّرَف الثانية العالية Supper Second Class Honours على دبلوم في الاقتصاد مع "اعتقاد راسخ بأن عليه أن يكرس حياتَه للشيوعية". وكشف في ما بعد أنه وفي يومه الأخير في كمبردج، أتى "دوب" طالبًا رأيه حول أفضل طريقة في العمل للقضية: "لقد زوّد بتوصية لمجموعة شيوعية في باريس، مجموعة رسمية ومنفتحة". إن المجموعة التي لم يذكر فيلبي اسمها هي بالتأكيد اللجنة العالمية لمساعدة ضحايا الفاشية الألمانية الخاصة بمونزنبرغ. (من الممكن أنه عندما توجه فيلبي نحو مونزنبرغ، لم يع دوب أنه يمهد لتجنيده عميلاً سوفياتيًا. فقد كان على درجة

كافية من السذاجة إزاء هذا الموضوع. وفكر ببساطة بتطويع شاب في معركة الكومنترن السرية ضد الفاشية).

بعد دخوله في محادثات مع دوائر مونزنبرغ في باريس، وُجّه فيلبي نحو "منظمة شيوعية سرية في فيينا". وكان العنوان المقصود هو بيت "إسرائيل" و"جيزلاّ كوهلمان"، وهما يهوديان بولونيان أقاما في العاصمة النمساوية قُبيل الحرب.

كان إسرائيل هذا موظفًا صغيرًا يقضي القسم الأكبر من أوقات فراغه في العمل مع زوجته لصالح مؤسسات الإحسان اليهودية. وأصبح فيلبي ضيفهم ولكن بأجر، يمضي نظريًا وقته في تعلُّم الألمانية والعمل كصحافي مستقل.

أما ابنة آل كوهلمان الصغيرة والنشيطة، والمطلّقة، فكانت تستمر في التعاون مع الكومنترن. وخلال الشتاء، وبينما كانا في رحلة على الثلج، أصبح فيلبي عشيقها. "اعلم أن ذلك يبدو مستحيلاً"، روى إلى عشيقة أخرى في ما بعد، "إنما كانت الحرارة تسري فينا بقدر ما تعوّدنا عليها". وفي شباط ـ فبراير ١٩٣٤، أصبحت ليتزي زوجة فيلبي الأولى. وفي هذه الحقبة، عرّفته على عناصر الكومنترن السريين... وكما اعترف فيلبي بعد ذلك بنصف قرن، في مقابلة قبل عدة أشهر من موته، فإن عمله في فيينا "لفت نظر" المديرية السياسية الموحّدة لأمن الدولة OGPU.

إنّ أوّل من استشرف الطاقة الكامنة لفيلبي ومؤهلاته في أن يصبح عميلاً سوفياتيًا هو العضو "غير الرسمي" "تيودور مالي"، والذي أصبحت صورته معلقة بين صور الأبطال على جدران صالة الشرف التابعة للمديرية الأولى في الـ K.G.B. إن كلمة المديح الرسمية تحت صورة مالي تذكر أنّ أكبر نجاحاته كان تجنيد فيلبي والتعامل معه ومع الخمسة الكبار.

وها هو سلوتسكي، مدير فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO، ينسب نجاح مالي إلى سحره الشخصي وفطنته الفطريَّة. لقد كان رجلاً كبيرًا وجميلاً ملقَّبًا بـ"الرفيق الكبير" في الأوساط السرية لكومنترن أوروبا الوسطى. أما "ألكسندر أورلوف" المنشق عن الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD وغير المعجب بأكثرية زملائه القدامى، فيتذكر "مالي" بحنان "صاحب الوجه القوي والرجولي والعينين الكبيرتين الزرقاوين كأنهما عينا طفل"... وفي ما وراء مظهره القوي وإخلاصه العاطفي لمُثُل الكومنترن، اكتشف بعض عملائه حساسية كبيرة عنده ولم يكونوا إلاّ أكثر تعلقًا به. ولم يتمتع بشيء عظيم يشارك به كبار تشيكا المتجهين أكثر فأكثر نحو القسوة والعنف والمسيطرين على NKVD خلال مرحلة الرعب الكبير. كان هنغاري المولد، سِيمَ كاهنًا كاثوليكيًا قبل الحرب العالمية الأولى. وخلال الصراع، خدم كمرشد في الجيش الأسترالي الهنغاري قبل سجنه عند الروس في الكاربات. وقد روى في ما بعد لأحد عملائه: "شهدت كل الأهوال، رأيت شبابًا بأعضاء مجلَّدة يموتون في الخنادق. لقد تم نقلي من مخيم إلى آخر. وكنّا، أنا وبقيّة السجناء، محرومين من كل شيء. وكانت تغطّي أجسادنا الحشرات الطفيلية... ومات الكثيرون بمرض الحمى الصفراء والملاريا، لقد فقدت إيماني، وعندما تفجرت الثورة، التحقت بالبلاشفة. وقطعت كل علاقة لي مع الماضي. فلم أعد لا هنغاريًا ولا كاهنًا ولا مسيحيًا ولا ابن أيٍّ كان، فأنا مجرّد جندي "اختفى في المعركة". لقد أصبحت شيوعيًا وإنّي على هذا دائمًا".

بعيد خروجه من المعتقل، فإن رغبته الجامحة في الدفاع عن الثورة ضد أعداء الثورة أتاحت لمالي أن يكون مقبولاً في تشيكا. إن إيمانه بفردوس أرضي جديد محرر من استغلال الإنسان للإنسان حلَّ مكان إيمانه الديني. ولم تثنه عن ذلك أهوال الحرب الأهلية ولا التأميمات. وفي ما بعد، اضطر لأن يعلن: "إن مفرزاتنا الحمراء "نظّفت"

القرى كما فعل البيض تمامًا. فحيث يحل الرجال، يصار إلى إعدام الشيوخ والنسوة والأطفال كونهم ساعدوا العدو. لم أتمكن من تحمّل أنين النسوة؛ لم أتمكن بكل بساطة". ويؤكد مالي على أنه عندما كان يقتضي "تنظيف" القرى، كان يحاول الاختباء، سادًّا أذنيه.

ومع نهاية الثورة المضادة، ساد الاعتقاد أن أعمال الإرهاب انتهت. غير أنّها عادت مع التأميم: "كنت على علم بما قمنا به مع الفلاحين"، قال معترفًا، "كم عدد المنفيّين، وكم عدد المقتولين. ولكنّي بقيت رغم كل شيء... وأنّي سأُمنح الفرصة لأكفّر عما اقترفته". وراح يتصرف كرجلٍ كان قد حُكم عليه بالموت لأنه سرق كيسًا صغيرًا من البطاطا لإطعام أطفاله الجائعين. وأقنع رئيسه باستبدال حكم الإعدام بالسجن. "رأيت المرأة وقلت لها بأن زوجها قد نجا". لقد منحه هذا "العمل"، كما اعتقَد على الأقل، الفرصة لاستعادة شرفه وسمعته. "ثم كان عليَّ الانطلاق بمهمّة لعدة أسابيع. وعند عودتي، كان أوّل ما قمت به هو التحرّي عن "عملي". لم أستطع الحصول على الملف. قصدت رئيسي، الذي لم يكن يعرف ماذا حصل. وعلى العموم، رحنا نفتش عن الملف، وأخيرًا وضعنا اليد عليه. كان يحمل كلمة واحدة مخربشة: "أُعْدِم".

وفي الغد، قصد مالي فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO وطلب إلحاقه بمركز في الخارج... وكان أول تكليف له، وعلى الأرجح في نهاية عام ١٩٣٢، هو مركز "غير رسمي" في المديرية السياسية الموحدة لأمن الدولة OGPU في ألمانيا. وبعد عدة أشهر من استيلاء النازيين على السلطة، قصد فيينا. وكان الحديث الذي تناوله مع عميله النمساوي هيد ماسنغ - ومع فيلبي ولا ريب — مختلفًا عن الحديث الذي تناوله أرنست هنري في بريطانيا. وبدلاً من التشديد مثل هنري على نجاحات الحرب السرية

التي التزمت بها "فرق الخمسة" من العمّال الألمان، أكّد مالي على أن المعركة ضد النازيين يجب أن تحصل بشكل أساسي خارج حدود الرايخ: "إن الطريقة الوحيدة في ضرب الفاشية، هي العمل من الخارج. لم نتوصل إلى ذلك من الداخل، والآن علينا القيام بذلك من الخارج". وفي المعركة السرية ضد الفاشية الدولية، عثر مالي من جديد على مثاليته الأولى البلشفية وشجّع عملاءه بإمكانية النصر النهائي للأممية الشيوعية.

كانت أول تجربة لفيلبي في مجال النشاط غير الرسمي لصالح الكومنترن في فيينا هي العمل كساعي بريد بين الشيوعيين النمساويين الصادرة بحقهم أحكام معينة، واتصالات في هنغاريا وباريس وبراغ. وفي شباط ـ فبراير عام ١٩٣٤، وصلَت المعركة بين اليمين واليسار في النمسا إلى "النقطة الحرجة"، حسب كلمات فيلبي بالذات. فقد هاجمت القوى النظامية لزعيم اليمين دولفيس ومقاتلي الشوارع التابعين لهايمر، والأكثر تطرفًا كذلك، (والتي ساهم مؤسسها الأمير ستار هامبرغ بمحاولة الانقلاب التي قام بها هتلر في ميونخ عام ١٩٢٣) مراكز النقابات، وصحف اليسار، وأمكنة عمل الاشتراكيين ومكاتب المساعدة الاجتماعية وحتى بعض الأبنية السكنية. وتم تدمير أكبر مركزين بطلقات المدفعية. وأعدم تسعة زعماء اشتراكيين في باحة القصر الملكي. وإذا كان هناك ما أقنع مالي بقدرات فيلبي، فهما الشجاعة والنية السليمة اللتان أبداهما هذا لنقل شيوعيين واشتراكيين بشكل غير شرعي عبر الحدود. ويتذكر مراسل "الدايلي تلغراف" "أريك جدي" بأنه استقبل الشاب البريطاني زائرًا: "فتحت الخزانة لتناول ثيابي. رأى كيم عدة بذلات، فصرخ: "يا إلهي! عندك منها سبع؛ يلزمني بعضها. عندي ستة أصدقاء جرحى، مختبئين في المجارير، وقد يتعرضون للشنق". ملأنا حقيبة بالبذلات التي استخدمت، حسب فيلبي، لإخراج أصدقائه من مخابئهم ونقلهم عبر الحدود التشبكية". وقد أقرّ فيلبي في ما بعد وأمام أولاده بأنه "تلقى

مهمة "اختراق" دوائر الاستخبارات البريطانية وأن الوقت الذي يتطلبه هذا الأمر ليس مهمًا". وقد أرسله مالي في أيار ـ مايو ١٩٣٤ إلى انكلترا. ولكي "يتعامل" معه من هناك، بعث إلى لندن عنصرًا "غير رسمي" كان قد عمل لحسابه في فيينا، هو أرنولد دونتش، الذي عُلقت صورته في ما بعد إلى جانب صورة مالي في صالة الشرف في المديرية الأولى. ويأتي التنويه، تحت الصورة، على ذكر مساهمته في تجنيد جواسيس كمبردج والتعامل معهم. ويضعها على المستوى ذاته لمساهمة مالي.

كان "دونتش" يهوديًا نمساويًا في الثلاثين من عمره، رجلاً من أوروبا الوسطى جذابًا وموهوبًا وعالميًا، ويعمل بالطريقة ذاتها التي يعمل بها مالي ومونزنبرغ. وكابن لتاجر، وُلد وترعرع في حي يهودي تقليدي في فيينا. وكان ترك مدرسته الثانوية ذات الطابع العلمي في فيينا في حزيران ـ يونيو ١٩٢٣، بعد شهر من ميلاده التاسع عشر. وفي الخريف التالي، التحق بكلية الفلسفة في جامعة فيينا. وبالرغم من الاسم الذي تحمله، فإن عددًا من طلاب هذه المؤسسة كانوا، مثل دونتش، علماء اختصاصيين. ومع أن هذا الأخير لم ينجح في دبلوم الدرجة الأولى، فقد اجتاز درجاته بسرعة كبيرة. فخلال أربع سنوات، درس بشكل أساسي الفيزياء والكيمياء، متابعًا كذلك محاضرات في الفلسفة وعلم النفس. وكرّس سنته الخامسة لوضع أطروحة دكتوراه حول "الفضة وملح الزئبق الخاص بأميد البوننروتيازول وطريقة كمية جديدة في تحليل الفِضّة". وفي ١٩ تموز ـ يوليو عام ١٩٢٨، بعد شهرين من عيد ميلاده الرابع والعشرين، نال لقب دكتور مع تنويه. وكانت أطروحته على كل حال مجال نزاع. وفي أول مناقشة له، حيث دافع عن عمله، أعلن أحد الممتحنين الثلاثة أن هذا العمل "غير كافٍ"، غير أنه حصل على أكثرية الأصوات، وفي دفاعه الثاني، الذي انصب على حقل من المعلومات أكثر اتساعًا وحدد الحصول على اللقب، ظهر الممتحنان على خلاف كذلك:

فقد منحه البروفسور "شليك" تنويهًا، وأعلن البروفسور "ريثيجر" أنه "مقبول". وكان ان نال تنويهًا بفضل صوت رئيس هيئة التحكيم... وقد اشتهر الممتحن الذي يدين له دوتش بتنويه، وهو "مورتيز شليك"، مؤسس حلقة فيينا، التي تضم فلاسفة وعلماء، بعمل فلسفي وعلمي في آن واحد - وقد قتل عام ١٩٣٦، على يد طالب ساخط، كان شليك قد رفضت أطروحته حول الأخلاق. وكان هذا الأستاذ قد مارس على الأرجح تأثيرًا قويًا على دوتش، الذي تابع دراسته على الأخلاق خلال فترة الدراسة الصيفية لعام ١٩٢٦. كان شليك يقرن القيم الأخلاقية بمشاعر اللذة والكمال الإنساني بالإنجذاب أو النشوة. إنما، ومن أجل الحصول على الوجود أو النشوة في المجتمع المعاصر، فلا بد، برأيه، أن يقاسي الفرد الألم والعذاب أولاً؛ فالفرح والألم ينتجان معًا انقلابًا "يلامس عبره الإنسان بكلتيه عمقًا لا تصل إليه سوى قلة من المشاعر". ويعتقد شليك أنه بقدر ما تتقدم الحضارة، سيكون ممكنًا وبالتدريج الوصول إلى اللذة دون ألم[١].

وعلى مدى دراسته في فيينا، كان دوتش يقدم نفسه في الملفات الجامعية أو حياته العامة، كيهودي دينًا وأصلاً. وربما من غير الممكن أن يُرسم بيقين المسار الثقافي الذي نقله من اليهودية الملتزمة إلى المادية الجدليّة. غير أنّ افتتان دوتش بمفهوم شليك عن عالم تحل فيه اللذة مكان الألم بدا أنه مترافق - بل حل محله أخيرًا - بالتبني المتنامي لشعارات الأممية الشيوعية حول نظام عالمي جديد يحرر الإنسانية من الاستغلال والاستلاب.

ومع نهاية عشرينات القرن العشرين، التحق بحركة سكس بول Sex-Pol التي أسسها عالم النفس اليهودي من فيينا "ولِيْم رايخ"، وكانت هذه الحركة في أساس

---

١ Johnston William , *The Austrian Mind*, University of California Press (Berkeley,1983). pp. 188-192..

الاستشارات حول مسائل الجنس عند العمال، وقادت بالإضافة إلى ذلك مجموعة طبعات مونستر Münster التي نشرت كتب رايخ ونصوصًا أخرى للحركة. وفي هذه المرحلة من عمله، كان طُموح رايخ هو إيجاد روابط ما بين الفرويدية والماركسية. إذ إنّ الكبت السياسي والجنسي يسيران معًا، ويفتحان الطريق نحو الفاشية، وخلال مرحلة ما، أمِل في أن يصبح الاتحاد السوفياتي في وضع يمكنه من وضع حد لهذا الكبت. في عام ١٩٣٠، ترك رايخ فيينا وانتقل إلى برلين حيث التحق بالحزب الشيوعي الألماني (KPD). وبعد وصول هتلر إلى السلطة، بعد ذلك بثلاث سنوات، هرب من ألمانيا، وعاد لمدّة قصيرة إلى فيينا، ثم انطلق إلى اسكنديناڤيا، حيث التزم بأبحاث غريبة أحيانًا، حول السلوك الجنسي، يدين لها بشهرته...

إن التزام دوتش بحركة سكس - بول ودوره في نشر بعض مؤلفات رايخ في فيينا لفت نظر المفرزة المضادة للإباحية (في الأدب والفن) التابعة للشرطة النمساوية فباشرت تحقيقًا حول نشاطاته خلال ربيع عام ١٩٣٤ في الوقت ذاته الذي انطلق فيه إلى انكلترا...

إن التنويه الذي وُضِع تحت صورة دوتش في صالة الشرف التابعة للمديرية الأولى لا يأتي على ذكر اجتماعه مع رايخ، غير أنه يذكّر بأنه التحق بالمديرية السياسية الموحّدة لأمن الدولة OGPU وذلك بعد عمله لحساب المكتب الغربي للكومنترن. وأن مهمته الأولى في الخارج حصلت في فلسطين بتكليف بريطاني. وفي غام ١٩٣٣، زار دوتش موسكو برفقة زوجته التي تزوجها عام ١٩٢٩. وهناك تلقيا تأهيلاً، كعنصر غير رسمي" بالنسبة له، واختصاصية بالراديو بالنسبة لها. وأطلق عليه اسم "ستفان لانغ"، غير إنه توجه إلى لندن في نيسان - إبريل عام ١٩٣٤، باسمه الحقيقي مستخدمًا جواز سفره النمساوي. وعلى هذا النحو تمكن من الاستفادة من

ظهوره العلمي للتردّد على الأوساط الجامعية، حيث كان يقدم نفسه كباحث. وكان لديه بعض المنازل الموقّتة، ثم وعندما التحقت به زوجته عام ١٩٣٥، استأجر مسكنًا في لاون رواد في هامستيد. وفي أيار - مايو عام ١٩٣٦، أنجبت جوزفين طفلة، أطلق عليها اسم نينت - إليزابيت.

أما فيلبي فعاد إلى انكلترا في أيار - مايو ١٩٣٤. بعد شهر من وصول دوتش إليها، وعاش أولاً مع زوجته الشابة في بيت والدته في هامستيد. إن أول محاولة له لاختراق وزارة الحرب البريطانية في "الوايت هول"، جرت بحجة إيداع ملف، وذلك للحصول على وظيفة عامة. غير أن كفيله، أي مدير دراساته في الاقتصاد في ترينيتي دنيس روبرتسون، وصديق العائلة دونالد روبرتسون (لم يكونا أقرباء)، كان لديهما شكوك حوله. وبعد تشاوره مع الكفيل الآخر حول مشاعر كيم الشيوعية، كتب له دنيس روبرتسون ليقول له "إنّه ورغم إعجابهما المشترك بطاقته وذكائه، فهو يشعر بأنه مضطر للقول بأن حساسيته السياسية إزاء الظلم قد تجعله غير جدير بعمل إداري". وهكذا سحب فيلبي ترشيحه وقرر القيام بجولة في عمق الإدارة. فباشر عملاً في مجلة سنوية ليبرالية في المدينة هي "مجلة المجلات"، وقاطع أصدقاءه الشيوعيين في كمبردج معلنًا أنه غيّر أفكاره السياسية. وقد أظهر له دوتش (الذي لا يعرفه إلا باسم أتّو) الود وشجّعه وأوصاه بالصبر: "قال لي بأنه يقدّر التزامي؛ كانت المسألة هي معرفة كيفية استخدامي على الوجه الأفضل. فلا يجب أن أذهب لأموت كيفما اتفق في الغربة، أو أن أصبح مراسلاً حربيًا لمجلة المجلاّت. وخلال السنتين التاليتين، لم يسلمني عمليًا أي شيء لأقوم به. كان يختبر التزامي. كان علي الوصول إلى لقاءاتنا دون تقديم شيء والحصول بالمقابل على تشجيع بالصبر"...

كان دوتش قد وصل إلى بريطانيا بمهمة اتصال مع بورجيس ومع فيلبي. وكمتحمس سابق للحرب السرية ضد الفاشية التي تقوم بها مجموعات الخمسة، أشير إلى بورجيس كمتطوع محتمل من قبل فيلبي وهنري في الوقت ذاته. ولعل أي متعامل أكثر تبحرًا في العقيدة وأضيق خيالاً كان بإمكانه الاستنتاج أن إنسانًا بمثل تطرّف بورجيس قد يشكل ازعاجًا أكثر منه ورقة رابحة. على كل حال فإنّ دوتش يشارك بورجيس احتقاره الأخلاق الجنسية البورجوازية. ذلك أنه وبعد التزامه بحركة سكس ـ بول التابعة للرايخ، فكر أن القمع الجنسي والسياسي يسيران معًا، وهذا ما جعله جذابًا في عيون الخمسة الكبار وعلى الأرجح لدى بورجيس.

وعلى الرغم مما سيقال في ما بعد، يبدو أن طفولته كانت ممتازة وملائمة. كان ابنًا لضابط في البحرية تزوج امرأة غنية. وبعد عام في إتون، أُرسل غي إلى المعهد الملكي البحري في دارموت، حيث أظهر تفوقًا في الدراسة بقدر ما أظهره في مجال اللهو. ومع ذلك فقد حالت رؤيته القاصرة دون متابعته للعمل في البحرية وعاد إلى إتون في السادسة عشرة من عمره. وقد حصل في السنة الأخيرة على جائزتي روزبري Rosebery وغلادستون Gladeston في التاريخ، وكذلك على منحة لمعهد ترينيتي في كمبردج. ولكنّه رغم علاقاته الاجتماعية الناجحة، فشل في أن يختار لنفسه صديقًا في "البوب Pop" وفي مجتمع إتون المحافظ جدًا، ربما بسبب لواطته الواضحة بشكل لافت للنظر. وفي إحدى المرات، في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٣٠، أضاع بورجيس في كمبردج ما تبقى له من حظوة. ففي وقت كانت اللواطية غير شرعية وحتى في السر وبين بالغيْن متوافقين، راح بورجيس يمجد علنًا الزنى بين الشباب الذكور من الطبقة العاملة[1]. غير أن بورجيس لم يحصر نفسه بجماعة كمبردج

---

١ - Boyle Andrew, *The Climate of Treason*, Hutchinson (London, 1979), pp. 78-85.

اللواطيين. فكلامه المشوّق ومظهره واجتماعياته الطبيعية وثقته بنفسه جعلت منه أحد الطلاب الأكثر عصرية في جيله. وكان يتحرك براحة كاملة في بيت كلوب الخاص جدًا وفي المسارح غير المحترمة للغاية ترافقه طالبة تعمل في مجلة نقدية. كان بورجيس يتمتع كذلك بمواهب ثقافية رائعة ظهرت على كل حال بشكل متزايد في موهبته في مجال الأفكار العامة واختياره للأمثلة الحصيفة كما وبقدرته على تحليل موجز للنصوص. فلا حياته الاجتماعية الفعّالة ولا تعاطيه أجود أنواع الويسكي كل يوم ظهرًا، حالا دون حصوله، وبدون مجهود يذكر، على درجة الشرف الأولى على الجزء الأول من إجازته في التاريخ في حزيران ـ يونيو ١٩٣٢. بعد ذلك بخمسة أشهر، انتخب عضوًا في الرسل Apostles، وهي جماعة بحث سرية تضم طلابًا ومدرسين وتعتز بأنها تضم (وهذا لم يكن صحيحًا تمامًا) الطلاب الأكثر شهرة في كمبردج[١].

وعندما التقى كورونوي ريِّس، وكان حينها محاضرًا مساعدًا في معهد ألّ سولز، ببورجيس كزائر له في أكسفورد ولأول مرة خلال صيف عام ١٩٣٢ "كان قد اشتهر على أنه الطالب الأكثر موهبة حينها: "وفعلاً فقد كان أمينًا لسمعته. ومع أنه كان طالبًا في ترينيتي (كلية الثالوث)، فقد ساد الاعتقاد بأن أمامه مستقبلاً جامعيًا زاهرًا. وفي هذا المساء تكلمنا طويلاً في الرسم، وبدا ما قاله لي أصيلاً وحساسًا وينم، مع اعتبارنا لصغر سنه، عن معرفة واسعة بالموضوع. وكان يخالط حديثه سحر خاص. كان بهي الطلعة، رجلاً رياضيًا، وإنكليزيًا فعلاً. وبغرابة فإن كل ما يقوله تقريبًا

---

١ ـ Driberg Tom, *Guy Burgess: A Portrait with Background,* Weidenfeld Nicholson (London,1956), pp. 17-18.

يثبت بوضوح أنه لوطي وشيوعي... وقد بدا لي أن فيه شيئًا ما يذهب في أصالته حتى الأعماق، شيء ما شكّل، وهذا هو الواقع، كيانه بالذات في كل ما يمكن قوله"[1].

عام ١٩٣٢، وكما كشف ذلك ريِّس منذ لقائهما الأول، كان بورجيس ماركسيًا. وفي عام ١٩٣٣ على أبعد تقدير، انضم إلى الحزب الشيوعي، ولربما جنّده على الأرجح موريس دوب، وكانت إحدى أطروحاته التاريخية المفضلة هي الانهيار الحتمي للامبراطوريّة البريطانيّة والتي كان يبرهن عنها ببصيرة فاقت ما لدى أساتذته. وقد أعلن أمام اجتماع للقوميّين الهنود في كمبردج ـ المجلس: "إنّ الثورة في الامبراطورية ستفتح الطريق للاشتراكية في بريطانيا العظمى". أما يقينه بمعايشة غُروب الامبراطورية الرأسمالية الإنكليزية فبدا أنه ينمّي فقط إحساسه بالملذات التي يمكن التمتع بها من جراء هذا الانهيار. وكان يأخذ على محمل الجد أكثر فأكثر مقولة ماركس التي مفادها: "في حين أن الفلسفات السابقة لم تقم إلاّ بتفسير العالم، فإن المسألة المطروحة الآن، في الفلسفة، هي تغييره".

لقد أصبح بورجيس مناضلاً خلال سنته الدراسية الأخيرة. فشارك في تنظيم أحزاب ناجح لمستخدمي كلية ترينيتي (الثالوث) ضد نظام العمل الفصلي الذي يقذفهم في أشداق البطالة خلال العطل. إن الاستفادة التامة من الملذات المنحطة لنظام رأسمالي كان قد التزم بإسقاطه، شكلت سمة للطاقة الشبابية عند بورجيس في أن يلعب على كلّ الحبال.

وإذ انهمك أكثر فأكثر في عمله كمناضل وفي حياته الاجتماعية، لم ينجح بورجيس في القسم الثاني من إجازته بالسهولة نفسها التي نجح فيها في القسم الأول. وخلال

---

١ - Rees Goronwy, *A Chapter of Accidents*, Chatto and Windus (London,1971), pp. 110-111.

الامتحان النهائي لصيف عام ١٩٣٣، سقط مريضًا، وعلى الأرجح كردة فعل جسديّة ـ نفسية، وحصل على Aegrotat، وهو تنويه خارج التصنيف يُمنح للذين نالوا المستوى دون أن يتمكنوا من تقديم براهينهم. ولكن الأمل بقي بمستقبله الجامعي الزاهر، وباشر في العمل على أطروحة منصبّة على "الثورة البورجوازية" في إنكلترا القرن السابع عشر على أمل أن يكلف بإلقاء محاضرات في ترينيتي.

إن إحدى مواهب بورجيس الأكثر روعة تعتمد على طاقته في إغراء أساتذته ورفاقه. وقد أصبح غورونوي ريّس مقربًا منه مباشرة مع أنه كان ذا نزعة جنسيّة طبيعيّة Hétérosexuel وقد قاوم عروضه بمناسبة لقائهما الأول. ومنذ تلك اللحظة، فإن بورجيس أصبح المبادر في مجال هذه العلاقة.

إنّ انجذاب عدد من الأساتذة اللوطيين باتجاه بورجيس كان هائلاً أحيانًا. فهذا الاختصاصي الشهير في الدراسات الكلاسيكية في أكسفورد "موريس بوارا"، عميد كلية "وادهام" حينها، والذي كان يأتي إليه بورجيس، كان مولعًا به إلى حد بعيد. أما بالنسبة إلى ريّس، فاكتشف أن لدى زميله "إرادة واعية أو لا واعية في السيطرة... وكان يعتبر نفسه أحيانًا كنوع من الـ"فيغارو"، لديه دائمًا الإمكانات لخدمة الآخرين الذين يحركهم عمليًا خدمة لأهدافه الخاصة".

كان بورجيس"فظًا بل وقاسيًا مع عشاقه، غير أنه توفرت لسلوكه كذلك النبالة... وفي بعض الأحيان، كان ينام مع أكثرية أصدقائه، كما يفعل مع أي فرد يشتهيه ويقينًا أنه لم يكن كريهًا، بالغًا مرامه، فقد كان يحررهم من الكثير من كبتهم وكبحهم... مثل هذه القصص لم تدم طويلاً، غير أنّ غي كانت لديه الكفاءة في الاحتفاظ بتعلقه بهؤلاء الذين عاشرهم. وكذلك، وللغرابة، كان يمارس عليهم سيطرة دائمة. وحتى أن هذه السيطرة كانت تتعزز، إذ إنّه وبعد نهاية العلاقة بزمن طويل، كان يواصل مساعدة

أصدقائه في حياتهم الجنسية المضطربة والخائبة أكثر الأحيان، بالإصغاء بحنان إلى مشاكلهم العاطفية، وإذا اقتضى الأمر، بإيجاد أحباء لهم يتفقون معهم. لقد كان بالنسبة لهم الأب والمعرِّف والقواد في آن معًا".

إن عضو "الهومنترن" الذي كان لبورجيس التأثير الأكبر عليه كان "أنطوني بولنت"، والذي منه استمد بعض أفكاره عن الرسم التي أثارت شعور غورونوي ريّس عند لقائهما الأول. إن انطوني، الأكبر سنًا من الخمسة الكبار، كان ابنًا لقسيس انكليكاني له علاقاته الواسعة، هو المحترم "أرثر فوغان ستانلي بلونت"، وقد توفي عندما كان ابنه في سنته الثالثة في كمبردج. وبهذه المناسبة كتبت الملكة ماري، زوجة جورج الخامس، لوصيفتها هيلدا تقول: "أي فراغ سيتركه! لماذا ذهب، هذا الذي يقوم بعمل جيد كهذا على الأرض، بينما الكثير من الأشخاص غير النافعين والأشرار مباح لهم العيش؟" كان أنطوني على علاقة واهية بوالده الطاهر والتقي، شديد التعلق بوالدته التي وصفها أخوه ويلفريد "بأنها امرأة على درجة عالية من الطيبة والبساطة والحشمة، وكانت غير قادرة على التلفّظ حتى بأكثر الأكاذيب ورعًا"... فعندما كان عمر أنطوني أربع سنوات، أصبح والده كاهن السفارة البريطانية في باريس. وقد أمضت العائلة في فرنسا القسم الأكبر من العشر سنوات التالية. وقد "تَفَرْنَسَ" الوالد، كما يقول، إلى حد بعيد، وهذا ما حدّد كل موقعه إزاء الأشياء منذ ذلك الحين". ويضيف قائلاً: "لقد أحببت منذ نعومة أظفاري ودون وعي مني، النظر إلى الأعمال الفنية واعتبارها شيئًا مهمًا". وفي مدرسة مارلبورو Marborough، ومع سنته الرابعة عشرة، اشتهر باكتسابه "معرفة مبكرة بالفن و...موقف احتقار للسلطة المحافظة"، وذلك على حد قول صديقه المقرب والشاعر المعاصر له "لويس ماك نيس". وقد صرّح بلونت نفسه في دورة لاحقة في المدرسة بما يلي: "لقد تركنا الطريق المستقيم لنصبح محرضين مهيِّجين. وقد

اعتدنا التنزّه في النواحي السفلى من الكنيسة ملوحين بمناديلنا الحريرية ـ كنت أعلّق منديلي بسوار ساعتي ـ ولم يتمكن أحد من منعنا عن ذلك إذ لم يكن هناك من قانون يحرّمه. وفي مساء السبت غضبنا من أولاد آخرين كانوا يلعبون عند وصولنا في المكان ذاته ممّا منعنا من اللعب بكرة ضخمة ملونة وبرّاقة".

في مارلبورو، كان احتقار بلونت للأعراف البورجوازية يعبّر عن نفسه على مستوى الغنى وليس على المستوى السياسي. وحسب ما قال ماك نيس "كان يقول لمن يود سماعه بأنه يجد أنه من الأسف التكلم بالسياسة". وكان بلونت مثليًا لناحية الجنس، بينما كان بعض أصدقائه الأقربين طبيعيّي النزعة.

إن المحاضرة التي أثارت أكثر من غيرها اهتمام بلونت في كمبردج، أي تاريخ الفن، لم يتم إقرارها قبل بداية ستينات القرن العشرين. وعند وصوله إلى كمبردج عام ١٩٢٦، لم يكن هناك بعد أيّ جامعة تعلّم هذه المادة، ولم يتم تأسيس معهد الـ"كورتولد"، الذي سيصبح في ما بعد مديره، إلاّ في عام ١٩٣١. وقد التحق بلونت بكلية الثالوث بمنحة لدراسة الرياضيات، ويعتبر هذا نجاحًا بالنسبة لفتى، خصوصًا أنه موهوب فنيًا وأدبيًا. ومع ذلك لم تكن الأرقام تلائمه.

بعد نيله درجة الشرف الثانية على القسم الأول من إجازته في الرياضيات مع نهاية سنته الأولى في حزيران ـ يونيو ١٩٢٧، اتجه نحو اللغات، وهو مجال أقل بعدًا عن اهتمامه بالفن وثقافة القارة. وقد نال الجزء الأول من إجازته في هذا العلم عام ١٩٢٨، مع درجة الشرف الممتازة في الفرنسيّة، التي كان يتكلمها بطلاقة منذ طفولته، ودرجة الشرف الثانية العليا في الألمانيّة. أمّا بالنسبة لما تبقى من دراسته، فقد تمكن من التركيز على الفرنسية. وقد حصل على إجازته عام ١٩٣٠، بدرجة الشرف العليا في القسم الثاني.

في أيار ـ مايو عام ١٩٢٨، تم اختيار بلونت عضوًا في مجموعة "الرسل". وعلى الراجح فإن رفيقه في هذه الجمعية، عالم الرياضيات التابع لكلية "إليستر واطسون" الملكية، وفي ما بعد الضابط الأعلى للامبريالية وكذلك عميل الـ K.G.B، مع أنه كان في مرتبة أدنى من الخمسة الكبار... هو أول من شجعه للمباشرة بجدية بدراسة النظرية الماركسية. غير أنه اقتضى مرور عدة سنوات لكي تتحول ماركسية بلونت إلى نشاط سياسي. وقد تبنى رأي أستاذ التاريخ الشاب في كلية الثالوث، "ستيفن رانسمن"، حول الشاب بلونت، الكثيرُ من زملائه الذين كانوا قد التقوا بهذا الطالب: "أعتقد إنه كان دائمًا راضيًا عن نفسه. ولكنه كان لطيف المعشر".

إن من مارس التأثير الأكثر أهمية لجر بلونت للعمل لصالح الـ K.G.B هو بورجيس، الذي وصل إلى كلية الثالوث في الوقت الذي باشر فيه بلونت أعماله الخاصة للحصول على دبلومه في تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٣٠، غير أن بلونت هو الذي أدخل، بعد عامين، بورجيس في جمعية "الرسل". وبعد حين، حصل على منصب باحثٍ في كلية الثالوث نظرًا لاشتغاله على "تاريخ نظريات الرسم بالعودة إلى بوسّان". وقد بقي الباحث الجديد والرسول الجديد معًا أكثر الأحيان. وكان كلاهما معروفًا بحيث تمكنت طالبة من الرابطة المسيحية Corpus Christi من التعريف بهما على سمعتهما المتمردة... تقول هذه الطالبة وهي فالنتين لاوفورد: "كان يقف إلى شباك مشرف على كلية الثالوث ويرمي بحوزة على الأشخاص القادمين بعد الغداء من البوابة الكبرى، دون الاهتمام على الأقل بمعرفة أي من الأهداف الإنسانية الثلاثة سيصيب: ذي الكتفين القويتين الذي يشبه المجذّف... أما الصغير أي غي بورجيس، أما الطويل والنحيف الذي هو أنطوني بلونت"[١].

---

١ - Lawford V. G., *Bound for Diplomacy,* Jhon Murray (Londres,1963), pp. 141-14.

كانت علاقاتهم تقوم في قسم منها على الشذوذ... ولكن مثل بوارا وغيره من "الهومنترن"، كان بلونت كذلك مسحورًا بمواهب بورجيس الثقافية، بحديثه البرّاق ونظرته الرحبة. فمنذ لقائهما الأول، ذُهل غورونوي ريس بقدرة بورجيس على ربط ما يهمه على المستوى الفني مع التأويل الماركسي للتاريخ وذلك وصولاً إلى إضراب سائقي الأوتوبيس الذي ساهم بتنظيمه في كمبردج... وعام ١٩٧٧، قبل سبع سنوات من كشف خيانته، احتج بلونت علنًا ضد هؤلاء الذين يستخفون بالمواهب التي أظهرها بورجيس خلال سنوات في كمبردج: "من المهم، كما اعتقد، التذكير أنه لم يكن فقط أحد الرجال الأشد إثارة من الناحية الثقافية ممن التقيتهم، بل إنّه كان يتمتع كذلك بالكثير من السحر والحيوية المدهشة؛ وهؤلاء الأشخاص الذين يكتبون الآن أنهم يشعرون ماديًا بالضيق في وجودهم لا يقولون الحقيقة. إنهم يطبقون على سنوات شباب غي أمورًا ربما كانت صحيحة في سنواتهم الأخيرة في هذا البلد. لقد كان حافزًا ثقافيًا عجيبًا. وتمتع بمجال من الاهتمامات أوسع بما لا يقاس من مجال "جون كونفورد" أو "جيمس كلوغمان"، وهما أهم مناضلين للحزب الشيوعي في كمبردج. فكل شيء يستميله، مع أنه قد يكون مزعجًا من نواحٍ عديدة، فليس ثمة موضوع يمكن تناوله معه دون أن يعبر بصدده عن وجهة نظر مفيدة وجديرة بالاهتمام".

كان تأثير بورجيس الحاسم على بلونت في إقناعه بضرورة ترجمة ماركسيته النظرية إلى التزام فعّال في صالح الكومنترن، وفي نهاية المطاف لحساب K.G.B. ولا ريب في أن جوهر الاستبدال نفسه عند بورجيس يجد صياغته الأفضل في إحدى المقاطع، العزيزة على قلبه، من مذكرات كلود كوكبيرن: "وتأتي اللحظة التي تعقد فيها أفعالنا نموذجًا لعلاقة مع حديثنا. وهذا ما نسميه لحظة الحقيقة".

عرضت تلك اللحظة مع بداية السنة الجامعية ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤، عندما قرَّر بورجيس، الملتهب حماسًا للرؤية التي ينشرها هنري عن التضامن مع "المجموعات الخمسة" للعمال الألمان، عندما قرر إنشاء "مجموعة خمسة" في كمبردج. وقد لمّح بلونت بالذات بشكل خفي إلى هذا المنعطف في مقالة نشرت عام ١٩٧٣: "فجأة، وخلال فترة الخريف الدراسية عام ١٩٣٣، مسّت الماركسية كمبردج. لا يمكنني تحديد التاريخ بدقة، إذ إنّني كنت في إجازة سبعية طوال هذه المدة، ولكن عندما عدت في كانون الثاني ـ يناير اكتشفت أن كل أصدقائي الأكثر شبابًا تقريبًا كانوا قد أصبحوا ماركسيين وانتسبوا إلى الحزب؛ لقد تحولت كمبردج تمامًا إلى مسافة لحظة".

وهكذا لم يتمكن بلونت من أن يكشف علنًا كيف أثر عليه هذا "التحول". لقد أصرّ بورجيس على أن "لحظة الحقيقة" أزفت وأنه لا بد الآن من الالتزام شخصيًا في حرب الكومنترن السرية ضد الفاشية. ومع نهاية حقبة الخريف الدراسية عام ١٩٣٣، زاره بورجيس في إيطاليا حيث كان يقضي جزءًا من إجازته السبعية مع "أليس واترهاوس"، أمينة مكتبة مدرسة بريتش. ولم تكن واترهاوس على علم بما يجري بين بورجيس وبلونت، غير أنها دونت ما يلي: حتى وصول بورجيس "لم نتحدث أبدًا بالسياسة. وهذا هو الشيء الوحيد الذي أراد غي مناقشته. لقد كان ماهرًا للغاية في السياسة. وقد تابع أنطوني ما فعله غي". وفي روما على الأرجح، عاصمة إيطاليا الفاشية، جند بورجيس بلونت في "مجموعة الخمسة" التابعة له...

ما عدا بلونت، فإن أهم عمليات التجنيد التي قامت بها مجموعة بورجيس الخماسية كان "دونالد ماك لين"، الطالب في كلية الثالوث والذي اضطرّ للالتحاق معه بموسكو بعد ذلك بثماني عشرة سنة. كان والد ماك لين، "السير دونالد ماك لين"، رجل قانون "كالفاني" وسياسيًّا ليبراليًّا وُلد في إنكلترا، وهو من أصل اسكتلندي. وعند موته

المفاجئ عام ١٩٣٢، كان رئيسًا للهيئة التربوية...، نظير وزارة التربية الوطنية، في حكومة الاتحاد الوطني.

إن اهتمام سير دونالد بالمعايير الأخلاقية العالية دفعته لإرسال ابنه إلى مدرسة "غرشهام Gershams School" بـ"هوت Hot" في "نورفولك"، وكان مديرها "ج. إ. إكلز" يؤكد لكل جديد على أهميّة "الحقيقة والصدق والشرف، وعفة الفكرة والكلام والعمل، وقيمة العمل القاسي والشريف". ولتشجيع العفة والحد في تجارب المراهقين الجنسية، فإن جيوب سراويل الأولاد كانت مدروزة. وقد قال أحد أشهر تلاميذ غرشهام في عهد إكلز، الشاعر "و. هـ. أودان Auden" عام ١٩٣٤: "إن أفضل حجة كانت لديّ لمناهضة الفاشية هو أنني عشت في المدرسة في حالة فاشية".

كان رد فعل ماكلين أقل قوة. فلا وجود لأسباب مقنعة تشير إلى أنه كره والده أو مدرسته العامّة، حتى في ظلّ عدم وجود ما يشير إلى أنه أحبّها... كان يلعب الرُّكْبي في غرشهام، وحصل على منحة "عرض"، وهي أقل حظوة بقليل من منحة الاستاذية، إلى كلية الثالوث في كمبردج. وترك المدرسة مع سمعة أخلاقية عالية.

وبخلاف فيلبي وبورجيس، كان أوّل اتصال حقيقي لماك لين بالشيوعية في المدرسة. وقد أكّد في ما بعد رفيقه "فورمان جون كليفمان" المعروف بـ"جيمس"، وهو الذي أصبح عضو المكتب السياسي ومؤرخ الحزب في بريطانيا العظمى، على أنّه أصبح شيوعيًا في غرشهام لمعاكسة إدارة المؤسسة. وعلى هذا النحو كانت لدى ماك لين أولى تجربة عن حياته المزدوجة منذ الحقبة الدراسية... وقد أخفى عن والده فقدانه لإيمانه، ولم يعلن عن أفكاره المتجهة أكثر فأكثر نحو اليسار. ولو لم يكن شيوعيًا قبل وصوله إلى كلية الثالوث عام ١٩٣١، فسيصبح كذلك في سنته الأولى. ومن المرجّح أن صديقه "كليجرز Kluggers" طالب اللغات في المعهد المجاور، الثالوث، هو الذي

قدمه لبورجيس. وبورجيس النشال على الأرجح هو الذي أصبح عشيق ماك لين الأول... محررًا ماك لين من كبته، وانتقل بورجيس بسرعة إلى انتصارات أخرى. وقد راح في ما بعد يهزأ من فكرة أن "جسم ماك لين الضخم والرخو والمصقّر" كان قد أغراه. وفي الحقيقة، فإن مظهر ماك لين الذي كان طويلاً، أسمر ورياضيًا حوّله، مثل بورجيس، هاويًا للجنسين..

ومن المرجّح أنه خلال حقبة الخريف الدراسية عام ١٩٣٣، قبيل سفره إلى روما لرؤية بلونت، قام بورجيس بتجنيده في خليته السرية. وفي تشرين الثاني ـ نوفمبر، أعطى ماك لين مقابلة لجريدة "الفرانتا" الطلابية الرئيسية في كمبردج، حيث أشار بغرابة إلى حياته المزدوجة، الجنسية والسياسية كذلك... ومثل بعض المجموعات الخمسية الألمانية، التي يتخذها نموذجًا له، كان لمجموعة بورجيس الخمسيَّة عدد متغير... فلم يكن باستمرار العدد خمسة تمامًا. فمما لا ريب فيه أن من بين أعضائها الأوائل "إليستر واطسون" و"جايمس كلوغمان". ولم تجهّز الـ K.G.B في ما بعد أي عنصر كما جهزت فيلبي وبورجيس وماك لين أو الرجل الخامس المجنّد عام ١٩٣٥.

في ربيع عام ١٩٣٤، استبدل بورجيس موضوع بحثه، منتقلاً من "الثورة البورجوازية" في القرن السابع عشر إلى انتفاضة "السيبايس Cipayes"، وقد شكّل ذلك إشارة إلى اهتماماته بالحرب السرية ضد الفاشية. وفي أيّار ـ مايو وبعيد عودته إلى لندن، توجه فيلبي إلى كمبردج وروى لبورجيس رواية مأخوذة مباشرة عن مغامراته مع عناصر الكومنترن السرية في فيينا. وقد رأى غورونوي ريس أنّ إعجاب بورجيس بفليبي فيه الكثير من الإفراط: فهولم يستوعب الأسس الموضوعة التي قام عليها هذا الإعجاب. وعلى الأرجح كذلك أنه في أيار ـ مايو وفي مقهى من مقاهي "أند" الشرقية، التقى بورجيس للمرة الأولى بـ"أرنولد دوتش" الذي يعرفه فقط مثله في

ذلك مثل فيلبي، باسم "أوتو". وقد كتب بورجيس إلى فيلبي ليحدثه عن تجنيده، وقد أجابه فيلبي حسب روايته الخاصة "لكي يهنئه". وخلال صيف عام ١٩٣٤، وبتشجيع من دونتش، توجه بورجيس إلى ألمانيا والاتحاد السوفياتي برفقة الشيوعي "دريك بلاكي Blaikie" من سكان مدينة أكسفورد، وقد قُتل خلال الحرب العالمية الثانية. وكان توقيت سفره إلى ألمانيا في فترة حرجة. فبعيد مناقشته لطريقة هروبه إلى روسيا مع شاب ألماني شيوعي، سمع في البعيد طلقات نارية. إنه الثلاثين من حزيران - يونيو عام ١٩٣٤، "ليل السكاكين الطويلة": لقد صفى هتلر حساباته مع معارضيه داخل الحزب النازي.

ففي موسكو، وعلى حد قول معاونيه الموثوقين، التقى بورجيس بياتنيتسكي، زعيم مكتب الكومنترن الغربي وبوخارين، زعيم الكومنترن السابق[١]. وقد طمأنه سفره ورسّخ اعتقاده بأنه يعمل لحساب الكومنترن في حربه السرية ضد الفاشية الدولية. وعند عودته، توصل دونتش إلى إقناعه بأنه ومن أجل مواصلة هذه الحرب، لا بد ، وكما فعل فيلبي، من الدخول في السريّة وقطع كل علاقة علنية مع الحزب الشيوعي. وقام بورجيس بذلك بطريقة حكم عليها أصدقاؤه بأنها غريبة، فقد شبّه ستالين بالمستبدين الفاشيين وأشار إلى الفاشية على أنها "موجة المستقبل". وحتى بمناسبة اجتماعات "الرسل" السرية، كان يخفي اعتقاداته السياسية: "فخلال كل نقاش، كان يلجأ دائمًا إلى استشهاد مناسب، أو طرفة مسلية أو تشبيه موحٍ، أو جواب ساخرٍ. وإذا كان الموضوع المطروح سياسيًا، كان يتكلم مستعملاً المجازات البعيدة والغامضة. وعند وضعه في موقع التحدي لكي يصرّح عن اعتقاداته، كانت عيناه ذات اللمعان واللون الأزرق تتسعان؛ وينظر إلى محدثه بابتسامة فاتنة ويتكلم عن أي شيء".

١ - Staight Michael, *After Long Silence,* Collins (Londres,1983), p. 94.

ومثلما توصل إلى جعل بورجيس يخضع على الأقل جزئيًا، للانضباط الذي يجب أن يظهره عنصر الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD، فقد أقنعه دونتش بأن يرفض مشروعه الأصلي الخاص بخلية للكومنترن مبنية على طريقة "المجموعة الخمسية" الألمانية. وكان دونتش ثم مالي، "يتعاطيان" إفراديًا مع عمليات التطويع في كمبردج. إنما، وبارتيابه من هذا العمل، واصل بورجيس اعتباره بأن الاستخبارات تشكل نشاطًا نصف - اجتماعي، يجب ممارسته بالتعاون مع أصدقائه. وكما اعترف بذلك فيلبي في ما بعد، "إن بورجيس هو الذي أصرَّ على المحافظة على الصلات في ما بيننا جميعًا"، وهذا الإصرار هو الذي أدّى بالضرورة إلى سقوط فيلبي عام ١٩٥١.

وبناءًا على طلب دونتش، قطع دونالد ماك لين وبورجيس صلاتهما مع الحزب الشيوعي في الوقت ذاته. وبعد نيل إجازته في حزيران - يونيو عام ١٩٣٤ مع "درجة الشرف العليا"، فكّر ماك لين إما في الذهاب إلى الاتحاد السوفياتي لتعليم اللغة الإنكليزية وإمّا البقاء في كمبردج لتحضير شهادة الدكتوراه. أما موضوع الأطروحة التي فكر فيها فكان تحليلاً ماركسيًا عن "كالفان" وعن صعود البورجوازية. وبدلاً من ذلك، صرّح لوالدته في الصيف عن نيته في أن يحاول الدخول إلى وزارة الخارجية البريطانية Foreign Office. وسُحِرت الليدي ماك لين بذلك، إنما احتارت لتعرف إذا كانت نوايا دونالد ستكون منسجمة مع اعتقاداته الشيوعية. "قد تفكرين أني أتصرف مثل الأمّعة (متقلب الرأي)، أجابها، إنما الأمر هو أني أسقطت بالأحرى كل هذا مؤخرًا". وهكذا أمضى الجزء الأكبر من العام التالي في صف تحضيري قريب من المتحف البريطاني للتحضير لامتحان وزارة الخارجية والذي اجتازه بنجاح باهر في آب عام ١٩٣٥. وروى في ما بعد كيف استُجوِب في الامتحان الشفهي الأخير حول "آرائه الشيوعية" في كمبردج: "كنت خائفًا، وسألت نفسي في لحظة، أيُّ موقف أتبنّى؟:

هلى أنفي أم أكون جسورًا؟ وقررت أن أتجاسر. فقلت: نعم، كان لديَّ مثل تلك الأفكار، ولم يعد لديَّ منها شيء ما أبدًا... وفكرت أن عليهم تقدير استقامتي، إذ إنّهم هزوا الرؤوس، نظروا إلى بعضهم البعض وضحكوا. وقال الرئيس: شكرًا، سيد ماك لين، هذا كل شيء"... وفي تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٣٥، عندما اجتاز ماك لين عتبات وزارة الخارجية بصفته عضوًا في الدوائر الدبلوماسية لجلالتها، كان الأول من الخمسة الكبار الذي يتسلل إلى كواليس السلطة...

أما بورجيس فقد لزمه وقت أكبر لكي يلج إلى الأسرار الرسمية. فمع نهاية عام ١٩٣٤، تخلى عن أبحاثه، وقرر ترك كلية الثالوث Trinity. إن أول وظيفة شغلها خارج كمبردج، بداية عام ١٩٣٥، هي وظيفة مستشار مالي لدى والدة صديقه في كلية الثالوث ورفيقة في جمعية "الرسل". إنّه "فيكتور روتشيلد" الذي سيُصبح في ما بعد اللورد روتشيلد. غير أن هدفه البعيد، الذي حدده مع دوتش خلال لقاءاتهما المنتظمة في مقاهي "أند" الشرقية، كان الدخول إلى أوساط السلطة، وإذا أمكن إلى دائرة المخابرات السرية S.I.S، سلف دائرة الأمن البريطانية MI-5. ولهذه الغاية، باشر استغلال "شبكة علاقات "صديقه القديم" بوقاحة وبوعي"... مستخدمًا لأجل هذا سحره، باستثناء أنّه لم يتمكن من الاحتفاظ بأظافره نظيفة، كما أقر بذلك في ما بعد". ويبدو أنه قام بمحاولة عقيمة للحصول على مركز في فرع الدراسات التابع لحزب المحافظين، الذي يديره السيد "جوزيف بالّ"، الرئيس السابق لدائرة "التجسس" في دائرة الأمن البريطانية MI-5 والمستشار المقرب لرئيس الوزراء القادم "نفيل شامبرلان"... ومع نهاية عام ١٩٣٥، أصبح بورجيس على كل حال المساعد الشخصي لبرلماني شاب محافظ هو الكابتن "جاك ماكنمارا"، وهو لوطي، اعتبره ريّس "مستقيمًا للغاية... حتى أنه ليس من الإسراف الإشارة إليه بالفاشي".

"كان غي يتكلم عن معلمه بنوع من التسامح المتعجرف؛ وقد قام إضافة إلى ذلك بدور الفيغارو، والخادم الذي هو السيد عمليًا". وقد أنجز فيغارو وسيده في ألمانيا النازية سلسلة من المهمات التي يمكن إجمالها، حسب رأي بورجيس، بمغامرات لوطية برفقة أعضاء مؤنسين من الشباب الهتلري. وعلى هذا النحو نسج بورجيس شبكة رائعة من العلاقات داخل "الهومنترن" القاري. وكان أحد أعضائه الأساسيين هو "إدوارد بفيفر"، رئيس وزارة "إدوار دالاديه" ووزير الحرب من كانون الثاني ـ يناير ١٩٣٦ حتى أيار ـ مايو ١٩٤٠، ورئيس الوزارة من نيسان ـ إبريل ١٩٣٨ حتى آذار ـ مارس ١٩٤٠. ويروي بورجيس لأصدقائه قصصًا فاقعة الألوان عن الطريقة التي قضى بها "بفيفر، وعضوان من الحكومة الفرنسية وهو بالذات سهرة في ماخور للرجال في باريس. وقد رقصوا، وهم يغنون ويضحكون، حول طاولة، جالدين بالسياط الجلدية ولدًا عاريًا ومقيّدًا"...

وبخلاف فيلبي وبورجيس وماك لين لم يكن بلونت بحاجة لهوية سياسية يمينية جديدة وواضحة. وبما أنه لم يناضل أبدًا في صفوف الحزب، فلم يكن لديه ماضٍ متطرف يجب محوه. فالماركسية التي شملت نشاطه في النقد الفني خلال الثلاثينات بدت بعيدة جدًا عن السياسة وعن المجادلات النظرية الستالينية. وفي الواقع، فقد أدانه، عن خطأ ولا ريب، أحد أبرز النقاد الماركسيين لنزعِهِ الصفة السياسية عن تاريخ الفن ومحاولة جعله "شكلانيًا". إن مبدأه الرئيسي، الذي يذكره منذ الثلاثينات، يعتمد على الإصرار على واقع أن الفن لا يمكنه أن ينفصل عن المجتمع: "فقد أنتج الأعمال الفنية فنانون؛ والفنانون هم أناس بشر؛ وهؤلاء يعيشون حياة اجتماعية، ويتأثرون إلى حد بعيد بالمجتمع الذي يعيشون في كنفه. وعلى هذا، لا يمكن ضبط الروائع الفنية تاريخيًا إلا بحدود إنسانية، أي وفي التحليل النهائي بحدود اجتماعية".

بعد سفره إلى روسيا صيف عام ١٩٣٥، أصبحت أهواؤه الماركسية أكثر صراحة وأشد وضوحًا كما ظهر في مقالة له نشرها "المراقب Spectator" يقول فيها: "لم يعد المثقف يخشى الآن الاهتمام بالجوانب المادية للعالم، وأصبح من المسموح له أن يعير اهتمامه للشيوعية مثلما يفعل مع التكعيبية". وأطلق نداءًا لخلق نقابات الفنانين وتحويل المتاحف إلى صفوف مدرسية... ومن المرجح أنه بدأ هذا السفر، يلتقي بانتظام أرنولد دوتش. ومع أنه عُرِف بمواقفه التقدمية في الأوساط الفنية، فقد كان يُظْهِر، بتحريض من دوتش، عدم اهتمام بالسياسة. وقد استنتج ميخائيل سترايت، الشاب الأميركي والعالم الاقتصادي من كلية الثالوث والذي انتسب إلى "الرسل" في آذار ـ مارس عام ١٩٣٦، من خلال مناقشاته مع بلونت، بأن هذا الأخير كان "خارج السياسة تمامًا". ولم يستوعب خطأه إلا مع بداية عام ١٩٣٧، عندما حاول بلونت تجنيده كعميل سوفياتي.

كان العنصر الأهم الذي جنده بلونت هو الرجل الخامس، الطالب في الثالوث "جون كارنكروس"... ومع فيلبي وبورجيس وبلونت وماك لين، يذكره المركز على أنه أحد "الخمسة الكبار"، المجموعة الأشد فعالية من بين هؤلاء الذين يعملون في الخارج. إنما، وبالرغم من كل النظريات المُحاكَة حول مهنة السيد "روجر هولّيس" والدروب التي يجوبها بضلال الجواسيس الوسطاء في الثمانينيات، فقد أمكن كشف أمره قبل "غورديفسكي" بوقت طويل، إنما دون برهان واضح. ومع أن "كارنكروس" هو الأخير من الخمسة الذي تم كشفه علنا، فقد تمكن من "التسلل" إلى عدد أكبر من أروقة السلطة والاستخبارات، لم يتمكن أيٌ من الأربعة الآخرين الوصول إليها. ففي السنوات العشر التي تلت انطلاقه من كمبردج استُخدِم على التوالي في وزارة الخارجية البريطانية وفي وزارة المالية وفي أمانة سر خاصة بوزير وفي وكالة الاعتراض وفك الرموز التابعة لمدرسة الكودا والشيفرة الحكومية GC & CS وفي دائرة المخابرات السرية

S.I.S. ويتذكر غورديفسكي ديمتري سفتانكو المسؤول حينها عن الدائرة البريطانية في المديرية، متحدثًا عن كارنكروس بـ"بإعجاب وإكبار واحترام". "ويؤكد سفتانكو على أن النتائج التي أعطاها كارنكروس كانت مشابهة لتلك التي أعطاها الأعضاء الآخرون في مجموعة الخمسة، بإستثناء فيلبي". وإن مسيرته الجامعية كانت كذلك رائعة مثل مسيرة الأربعة الآخرين.

وُلِد كارنكروس عام ١٩١٣، في عائلة من الغلاسغو Glasgow، متواضعة إنما موهوبة ثقافيًا. فأخوه البكر "أليك"، الذي لم يكن على أي علاقة بالـ K.G.B، كان عالم اقتصاد شهير وأصبح على التوالي مسؤولاً عن الخدمات الاقتصادية في الحكومة، ثم أستاذًا في معهد سان بيترز في أوكسفورد، وبعد ذلك مديرًا لجامعة غلاسغو. ومثل أليك، حصل جون على منحة الدخول في أكاديمية هاميلتون، قرب غلاسغو. وعام ١٩٣٠، وكان عمره سبع عشرة سنة، وفي حين كان قد تأثر على الأرجح بتقاليد منطقة "كليد" السياسية، وبمظاهر الظلم الاقتصادي الناجمة عن أزمة عام ١٩٢٩، التحق بجامعة غلاسغو حيث درس خلال سنتين، الفرنسية والألمانية والإنكليزية والاقتصاد السياسي. وبعد ذلك انطلق يجوب القارة لتجويد لغاته؛ فأمضى السنة الجامعية ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ في السوربون، حيث حصل بسنة واحدة على إجازة في الأدب. مستفيدًا من منحة في كلية الثالوث. ومن المرجح أنه دخل في علاقة مع اللجنة العالمية لمساعدة ضحايا الفاشية الألمانية التابعة لمونزنبرغ. وقبل وصول كارنكروس إلى كلية الثالوث كأستاذ مساعد في الفرنسية والألمانية في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٣٤، كان قد أعلن شيوعيته. وقد أعطته إجازته في الفرنسية الحق بإعفائه من القسم الأول من دراسات الآداب الحديثة، ونال الدبلوم من كمبردج بعد سنتين فقط.

كان أحد "المشرفين" عليه في الأدب الفرنسي داخل المعهد هو "أنطوني بلونت"، الذي كان يستقبله شخصيًا كل أسبوع، وهو ما يسمى في كمبردج أعمال الإشراف. إن طرق بلونت النبيلة وعقلانيته، البعيدة في الظاهر عن الحقائق القاسية لصراع الطبقات كانت تصدم الاسكتلندي الشاب الشيوعي والعاطفي. "لم أحبه"، سيقول كارنكروس في ما بعد، "ولم يحبني كذلك". إن "صيّاد المواهب" بلونت قد عاينه مع ذلك من أجل بورجيس، الذي التقى به خلال زيارة إلى كمبردج وأقام الصلة معه فورًا. وبعد ذلك بأربعين سنة، وفي مقابلة أخفى خلالها الأساسي من عمله في K.G.B، اعترف كارنكروس أنه رأى بورجيس "ساحرًا، لطيفًا، وقاسي القلب تمامًا".

عند مروره في كمبردج عام ١٩٣٥، جنده بورجيس كعميل للكومنترن في حربه السرية ضد الفاشية الدولية وجعله على اتصال بدوتش.

عام ١٩٣٦، كان كارنكروس قد قطع كل صلة علنية له بالحزب الشيوعي وقدم ترشيحه إلى وزارة الخارجية البريطانية. وفي صيف عام ١٩٣٦، أُجيز في اللغات الحية من جامعة كمبردج مع "درجة الشّرَف العليا" وخصصت له كلية الثالوث منحة للدراسات العليا، واجتاز بنجاح باهر امتحان الدخول إلى وزارة الخارجية مع مئة علامة أكثر من أحد أبرز رفاقه من "كلية الأرواح Allsouh"، وهو "كون أونيل Con O'Neill" الدبلوماسي من الدرجة الأولى في ما بعد. وأصبح في الخريف بعد جوركنغ ودونالد ماك لين، العميل السوفياتي الثالث الذي يعمل في وزارة الخارجية البريطانية[١].

إن الطاقة المتنامية المتمثلة بالخمسة الكبار، وأهمية المعلومات الصادرة عن الدراسة البريطانية والتي يقدمها الكابتن كنغ إلى بيك، وتطوير دوتش المتزامن لشبكة

---

١ - Colville Jhon, *The Fringes of Power*, Hodder and Soughton (Londres,1985), pp. 30.

تجسس في الأكاديمية العسكرية الملكية Woolwich، اضطرت شعبة تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO لأن ترسل مالي مع بداية عام ١٩٣٦، إلى لندن ليتحمل مسؤولية مجموعة عمليات الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD غير الرسمية. أما المندوب "الرسمي" في السفارة آرون فاكلافوفيتش شيستر، فلم يكن على علاقة بهذه العمليات، بل إن عمله اقتصر على تقديم شبكة من الاتصالات مع المركز في موسكو وأشكال أخرى من الدعم اللوجستي. وكان سلوتسكي، رئيس الـ INO، يُجلُّ المواهب الفريدة لدى مالي وذلك بتجنيده وإلهامه والاحتفاظ بأمانة عملائه، غير أنه بقي قلقًا من خضوعه لعقدة الذنب من جراء عمله السابق. فبعد أكثر من عشاء سخي للغاية في المطاعم جمعه مع عملائه، كان ينزع لكي يتذكر مع الكثير من المخاوف ما كان شاهدًا عليه. وقد كتب "هيد ماسّينغ" عن موضوعه في ما بعد: "فالرجل الأكثر حذرًا وكتمانًا في العالم صائم، ها هو قد سقط في انهيار مخيف، واستسلم لاتِّهام الذات منذ أن راح يشرب، إن اكتشاف مثل هذه الكوابيس خلف مظهر بهذه النعومة أمر مخيف".

كان مالي على علاقة عاطفية مع أحدى عميلات ريس، وهي "جيردا فرانكفيرتر Frankfurter"، "غير أن موسكو"، يضيف هيد ماسّينغ، "التي هي على علم تام بميوله الادمانيّة، أجبرته على الزواج من روسية يمقتها. وقد اضطرت لأن تقوم بدور الممرضة وليس بدور الشرطية".

وصل مالي وزوجته إلى لندن مع بداية عام ١٩٣٦ بجوازيْ سفر نمساويين مُزَوَّرَيْن، وباسم "بول" و"ليديا هاردت"، وقدّم نفسه للكابتن كنغ على أنه "م. بترسون" مسؤول بنك هولندي وهمي.

إنَّ من يراقب كنغ من الـ NKVD أي بيك، يجد أنّه كان قد قال أن البنك يتحرى عن خبر "من الداخل" مصدره وزارة الخارجية البريطانية. في البداية، أودع كينغ

مكتب بيك في بيكنغهام غيت، نسخًا عن أوراق وزارة الخارجية عندما عاد إليه مساءً. وكانت النسخ أو أوراق الملفات الأساسية قد سلَّمها إلى مالي مهندسٌ كهربائي شيوعي هو "بريان غولد ـ فرشوال" ولقبه "فرياند" الذي، يعمل منذ عدة سنوات ساعي بريد لدى الكومنترن. إن غولد ـ فرشوال المذكور الذي كان قد انتفض ضد تربيته في المدرسة العامة Public School بنى لنفسه صورة رومنطيقية عن دولة الفلاحين والعمال السوفياتية معتقدًا أنه ينقل توجيهات سياسية من الأممية الشيوعية. وقد صُدم عندما فتحت للتو إحدى رزم كنغ ورأى بداخلها ملفات وزارة الخارجية البريطانية. كان مالي يُبرقُ المواد الأكثر أهمية التي يسلمه إياها كنغ إلى موسكو عبر السفارة السوفياتية في كنسنغتون، مستخدمًا الاسم الرمزي "مان". أما الباقي فكان يجري تسليمه على يد غولد ـ فرشوال أو على يد ساعٍ آخر ليصار إلى تصويره في\أستوديو يديره "وولف لفيت"، وهو مصور ألماني من الـ NKVD.

وفي الأساس فإن دونالد ماك لين الذي باشر عمله في وزارة الخارجية بقسم الإقليم الغربي، والمكلف بـ SND، أي البلاد المنخفضة، واسبانيا، والبرتغال وسويسرا، كان قد دخل على عدد من الملفات أقل من العدد الذي يضطلع عليه كنغ، والذي كان مركزه أكثر تواضعًا إنما أفضل موقعًا من الناحية الاستراتيجية. وكانت المعلومات الأكثر فائدة التي قدمها للـ NKVD تتعلق على الأرجح بالحرب الأهلية في إسبانيا. وهذا ما دعى ماك لين لأن يكتب: "كنا نأمل جميعًا بأن تتدخل الحكومتان الفرنسية والسوفياتية لإنقاذ الحكومة الاسبانية من فرانكو ومن الفاشيين" ولا ريب أنه كان قد أودع وجهة نظره للـ NKVD، وجهة نظر مبالغ فيها، وعلى أساسها يشكّل الحياد البريطاني جزءًا من سياسة أشمل في الحياد تجاه ألمانيا، وذلك بهدف ترك ستالين وحده بمواجهة الفاشية، غير أن مالي كان يرى أساسًا في ماك لين استثمارًا على

المدى البعيد. وقد دفعه لأن يركّز، خلال سنواته الأولى في وزارة الخارجية ليس على الحصول على معلومات إنما على ترقيته، التي يجب أن تجري بأسرع ما يمكن. وتوصل ماك لين إلى ذلك بشكل مدهش. فقد كانت دائرة الملاك تذكية بحرارة شديدة، ففي آذار - مارس عام ١٩٣٨، وبمناسبة أول تكليف له في الخارج في سفارة بريطانيا في فرنسا، كأمين سر ثالث، فإن: "ماك لين، ابن السيد دونالد ماك لين المشهور، البرلماني الليبرالي... تصرف بشكل ممتاز خلال السنتين الأولى والثانية هنا، وكان أحد أركان القطاع الغربي. إنه رجل محبوب فعلاً، ذكي ولطيف. وهو إضافة إلى ذلك ذو شخصية، ويجب أن يشكل قدومه إلى باريس نجاحًا في المجتمع كما وعلى الصعيد الوظيفي". وذاع صيته بسرعة كبيرة حتى أنه أصبح نائب أمين السر المثبّت.

إن جون كارنكروس، الذي التحق بوزارة الخارجية البريطانية خريف عام ١٩٣٦، أي بعد سنة من التحاق ماك لين بها، لم ينجح بالسهولة ذاتها التي نجح فيها هذا الأخير. فخلال سنتين، عمل على التوالي في القسم الأميركي والـ SDN والمركز، دون الحصول على موقع ما مهم. وبعد مدّة عمل في خلالها مع ماك لين في القسم الغربي، دخل على هذا النحو إلى ما وصفه هو بالذات بـ "كنز المعلومات القيمة حول مسار الحرب الأهلية في إسبانيا".

كان يفتقر إلى السحر السهل الذي يتمتع به ماك لين ومظاهر المراعاة التي تنضح منه، ومع أنه جرّب إقامة الكثير من الصلات مع وزارة الحرب البريطانية، ولكنه لم يكسب الكثير من الأصدقاء. وقد وصفه "جون كولفيل"، أمين سر "نيفيل شامبرلين" وفي ما بعد تشرشل، بـ "مزعج ومتهافت أحيانًا". وتذكّر لاحقًا أن "كارنكروس كان يوجّه دائمًا دعوات إلى الغداء... وكان يتباطأ في تناول طعامه أكثر من أي إنسان على الإطلاق". كان كارنكروس يحرر ملاحظات

مفصَّلة ينقلها إلى الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD. تتناول أحاديثه على الغداء في وزارة الحرب...

بعد سنته الأولى في الخارجية أشار عليه مالي بالانتقال إلى المالية، وهي الوزارة التي لم تتسلل الـ NKVD إليها بعد. وهذا ما حصل في تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٣٨. لقد ارتاحت وزارة الخارجية بتخليصها من أرعن غير جدير بالعمل الدبلوماسي.

وقد انزعج بورجيس عند روايته أن مَن جنده تمكن من التسلل إلى وزارة الحرب بسرعة فاقت سرعة تسلله هو بالذات، ومع نهاية عام ١٩٣٦، التحق بالإذاعة. وبعد فترة تأهيل ـ وربما بعد إنتاج مسلسل بعنوان ابق متوافقًا مع الآنسة كيغلي Keep Fit with Miss Quigley ـ، انتقل إلى قسم المقابلات من الدائرة الداخلية، وباشر الكشف عن رجال من ذوي العلاقات الماضية والحاضرة مع المخابرات: وكان يقدم لهم عرضًا مغريًا لحديث على الهواء، وكان اتصاله الأكثر فائدة، هو مع "دافيد فوتمان"، المدير المساعد، وفي ما بعد المدير لفرع الاستخبارات السياسية في دائرة المخابرات السرية SIS. ولا ريب بأن الرعب أصاب فوتمان عندما علم أن منتج برنامجه حول ألبانيا خلال صيف ١٩٣٧ كان عميلاً في الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD. غير أن أي ظن لم يلامس عقله؛ وبعد ذلك بسنة، ونتيجة تأثره الشديد بفطنة بورجيس الواضحة في مادة العلاقات الدولية. ساعده للحصول على مركز في دائرة الاستخبارات السرية SIS.

دأب بورجيس، وعلى مدة عدة سنوات، على العودة بانتظام إلى كمبردج للمشاركة في لقاءات "الرسل" ورؤية أصدقائه، وإلى حين مغادرة بلونت لكلية الثالوث إلى معهد واربورغ اللندني عام ١٩٣٧، اتفق مع بورجيس بخصوص أعمال التطويع المحتملة

لصالح الاستخبارات السوفياتية. وقد استنتج ميخائيل ستراغ، بعد أن جنده بلونت عام ١٩٣٧، بأن بورجيس كان "الرجل الخفي المتربص وراء انطوني". إن عملية التطويع الأكثر نبلاً من غيرها والتي قام بها بلونت في لندن كانت تطويع ليوناردو هنري، أي "ليو" لونغ، الشيوعي السابق، والذي وصل إلى كلية الثالوث في تشرين الأول عام ١٩٣٥، مع سمعة جامعية برّاقة ومنحة لغات: "كنت ابنًا للطبقة العاملة"، أعلن لونغ في ما بعد، و"كنت اتمتع بردة فعل حادة إزاء اللامساواة الاجتماعية". وقد أشرف بلونت على دراسته باللغة الفرنسية وكان على الأرجح المسؤول الرئيسي عن دخوله إلى "الرسل" في أيار - مايو ١٩٣٧. وقد جنده كذلك لصالح الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD في الفترة ذاتها تقريبًا. ومثل سترايت، فقد وجد لونغ أن حجج بلونت مقنعة، ذلك أنه كان يظهر الرأفة أكثر من السطوة. وقد قال لونغ في ما بعد: "إن بلونت لم يحاول أبدًا ابتزاز مالي بالتهديد أو تخجيلي، ذلك لأننا كنا على الإيمان ذاته بالقضية الشيوعية". وخلال الحرب العالمية الثانية "عومل لونغ من قبل بلونت شخصيًا بصفته "مساعد وكيل" سوفياتي.

مع أن فيلبي كان قد أصبح في نهاية المطاف الأكثر أهمية من بين الكبار، فإن عمله كان قد بدأ بهدوء أكبر من الأربعة الآخرين. ومع أنه مثير، فإن عمله لحساب "مجلة المجلات "Review of Reviews" بعد عودته إلى فيينا، تركه بين مدّة وأخرى يعاني بعض اليأس إزاء مساهمته الضعيفة في الحرب السرية ضد الفاشية.. لقد كان بحاجة إلى تشجيع دوتش. وكان أول نجاح صغير له هو قبوله في الجمعية الأنكلو - ألمانية التابعة للألمان، والتي كان قد تم كشف "اتصالها الدائم" مع غوبلز ووزارة الدعاية النازية، في تقرير سري لوزارة الخارجية البريطانية. إن مساهمته النشيطة، ولكن الجزئية، في نشاطات الجمعية أفسحت له المجال لولوج موقع محتمل باستمرار

في مجلة جديدة تمولها ألمانيا. ومع إن المشروع لم يتحقق، فقد التقى فيلبي عدة مرات السفير الألماني في لندن، "ريبنتروب" وانتقل عدة مرات إلى وزارة إعلام غوبلز في برلين.

في تموز - يوليو ١٩٣٦ كان فيلبي في برلين عندما علم بانفجار الحرب الأهلية في إسبانيا. وهذه الحرب هي التي زودته بأول مهمة كبيرة له في مجال المخابرات حيث عمل حينها كصحافي... وقد كتب في مذكراته:

"إنّ مهمتي الحصول على معلومات مباشرة حول كل جوانب المجهود الحربي الفاشي."...

وكالعادة، لا تعطي مذكراته الحقيقة كاملة، فبفضل غورديفسكي، أصبح من الممكن الآن استخلاص السر الرئيسي الباقي بخصوص المدّة التي أمضاها فيلبي في إسبانيا. ففي بداية عام ١٩٤٠، توجه المنشق كريفيتسكي إلى انكلترا حيث "فضحه" جان أرشر، الذي قال عنه فيلبي إنه الضابط الثاني في دائرة المخابرات البريطانية MI-5 الأكثر جدارة على الإطلاق من بين الذين التقاهم. ويروي في مذكراته بأن جان أرشر "حصل من كريفيتسكي على وصْلات مغرية من المعلومات عن صحفي انكليزي شاب أوفدته المخابرات السوفياتية إلى إسبانيا خلال الحرب الأهلية". إن "الصحفي الإنكليزي الشاب" كان هو. أما "وصْلات المعلومات المغرية" فارتبطت بخطة لتصفية فرانكو. وفي بداية ١٩٣٧، أمر إيجوف مالي بأن يستخدم أحد عملائه البريطانيين للتوجه إلى إسبانيا على أنه صحافي، والدخول إلى محيط الجنرال فرانكو والمساهمة في التحضير لاغتياله. وقد أقنع فيلبي إحدى وكالات الصحافة اللندنية بتفويضه مراسلاً حربيًا مستقلاً ووصل إلى إسبانيا في شباط عام ١٩٣٧. ومن هناك أمطر التايمز بتحقيقات غير مغرية عن المناطق التي يشرف عليها الوطنيون.

كاد عمله كعميل سوفياتي أن يتوقف فجأة بلا نتيجة حتى قبل أن يبدأ عمليًا. هناك حلقة مفقودة، فعلاً، في اعترافه الخاص، لفتت الأنظار إلى نشاطه. فبعد شهرين من وصوله إلى إسبانيا، أيقظه من نومه في منتصف الليل عنصران مدنيان قوميان (جماعة فرانكو!) بالضرب على باب غرفته. وبينما كان يرتدي ثيابه تحت أنظار رجال الشرطة، أيقن أنه ترك "رمز" الهيئة الشعبيّة للعمل الداخلي NKVD المكتوب على قطعة من ورق الرز في جيب سرواله. وكان من المستحيل التخلص منها في الطريق إلى المقر العام للحرس المدني.

أُدخل إلى مكتب مضاء بمصباح صغير ليستجوبه "مايجور من الحرس المدني، ذو قامة متوسطة، مسن، أصلع، ساخط". طلب منه إفراغ جيوبه. وقد كانت الدقائق القليلة الأكثر حرجًا في حياته: "تناولتُ محفظتي الصغيرة، رميتها على الطاولة تدحرجت واستقرت في آخر لحظة على طرف الطاولة. وكما انتظرت، اتجه الرجال الثلاثة نحوها منطرحين على الطاولة. ومقابل هذه الأرداف الثلاثة سحبت قصاصة الورق من جيبي، وضعتها في فمي وابتلعتها، وانتهى الأمر"...

وفي ما بعد علا نجم فيلبي بسرعة. ففي أيار ـ مايو، عينته "التايمز" رسميًا المراسل الثاني لها في إسبانيا القومية (في منطقة فرانكو)، فعاد إلى لندن لترتيب تفاصيل عمله مع التايمز وكذلك مع مالي. وبعودته عزز تمويهه متخذاً عشيقة له السيدة "فرانسز" أو "بونّي لاندسي - هوغ"، مطلقة بارون إنكليزي والملكة المتحمسة. وكان فيلبي يتكتم بنجاح حتى ضمن الجو الحميم. وقد روت "بونّي" في ما بعد: "أنه لم يُسر إلي بكلمة عن الاشتراكية أو الشيوعية أو عن شيء من هذا القبيل".

وفي نهاية العام، أصبح فيلبي بطلاً محليًا. فقد جرح ثلاثة من زملائه الصحفيين جروحًا مميتة في السيارة ذاتها التي كان موجودًا فيها وذلك من جراء سقوط قذيفة

بالقرب منهم. أما فيلبي فكانت إصابته طفيفة جدًا. وكتب بتواضع إلى قراء التايمز: "إن مراسلكم... نقل إلى مركز للعناية الفائقة حيث تم تضميد جراح رأسه الخفيفة بسرعة، بينما كان يبذل ضباط إسبان كل جهودهم بشجاعة لتخليص ركاب السيارة دون الالتفات إلى القذائف المنهمرة". وفي الثاني من آذار ـ مارس علق فرانكو نفسه على صدر فيلبي صليب الاستحقاق العسكري الأحمر! وحده البرلماني الشيوعي ويلّي غلاشر احتج في مجلس العموم. وقد اضطر الصحافي المزيف لأن يؤكد في ما بعد عن حق ولا ريب على أن "جرحه في إسبانيا سهّل عليه عمله في مجال الصحافة كما وفي مجال المخابرات. وقبل ذلك، كان هناك العديد من الانتقادات التي يوجهها ضباط فرانكو ضد الصحافيين البريطانيين والتي تفيد بأنه لا بد من أن يكون الانكليز عمومًا شيوعيين إذ إنّ الكثير من بينهم يقاتلون مع الفرق الأممية، وبعد أن جُرحتُ ومنحت من فرانكو وسامًا بالذات، أصبحتُ "الإنكليزي حامل وسام فرانكو" وفتحت كل الأبواب في وجهي".

وعلى حد قول دبلوماسي بريطاني. "هناك القليل من الأشياء التي يجهلها فيلبي حول مساهمة الألمان والإيطاليين العسكرية مع فرانكو". وكان الصحافي المزيف ينقل المعلومات التي كان بإمكانه جمعها من داخل المعسكر الفرانكي عند لقاءاته مع ضباط من الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD علىالجانب الآخر من الحدود، في "هاندي أوسان ـ جان دوليز". غير أن المهمة التي كلفه بها مالي، وهي المساهمة بالتحضير لاغتيال قائد المتمردين، تم التخلي عنها خلال صيف ١٩٣٧ وذلك قبل أن يتمكن فيلبي من كسب ثقة بطانة الجنرال..

في تموز ـ يوليو عام ١٩٣٧، استُدعي مالي إلى موسكو. إذ اشتُبه بأكثرية عملاء فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO خلال مرحلة الجنون الهذياني لعمليات التطهير؛

فالأقلية الضئيلة وحدها نجت من الإرهاب الكبير. إن الماضي الديني والاشمئزاز من الإرهاب جعل من مالي مشبوهًا ظاهرًا. وبالرغم من مديح إيجوف وستالين له في العام الماضي، فلم يكن يأمل في استمالة المدعين العامين، كائنًا من كان إلى جانبه. أما السبب الأساسي لعودته، فيشكل نوعًا من القدرية الغربية. فقد قال لـ"إليزابيت بورتسكي" زوجة اينياك ريّس: "سيقتلونني هناك، وسيقتلونني هنا. من الأفضل أن أموت هناك"...

أما الكسندر أورلوف الذي رفض من ناحيته العودة فيتذكر حديث مالي: "إني أعلم كراهب قديم، أني لا أملك أيّ فرصة. غير أني قررت العودة لكي لا يتمكن أحد من القول: قد يكون هذا الراهب جاسوسًا حقيقًا على كل حال". أما التنويه إلى جانب صورة مالي في صالة الشرف في المديرية الأولى فيذكر أنه أعدم بالرصاص في نهاية عام ١٩٣٧.

إن تصفية مالي تركت فيلبي دون إشراف منتظم خلال أكثر من عام. عند استدعائه، كان يجب إقرار التفاصيل النهائية لاغتيال فرانكو من قبل المركز كذلك. وقد تم التخلّي عن المشروع بعد ذلك. فقد اشتبه بأمره على الأقل جزئيًا، بسبب ارتداد والتر كريفتسكي الذي هو على علم ببعض أوضاعه وخصوصًا تورّط "شاب صحافي انكليزي". ومن ناحية أخرى، لم تعد أولويات الـ NKVD هي ذاتها. فبعد انتهاء الحرب الأهلية، أعطيت الأفضلية لتصفية التروتسكيين وليس لتصفية فرانكو.

إن مالي ورغم استدعائه، كان يمكن أن يتعرض للتوقيف كذلك في لندن. وحتى إذا لم تكن دائرة الأمن البريطانية MI-5 على علم باختراق الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD لوزارة الخارجية ولا تجنيد الخمسة، فإن إحدى عميلاتها، أولغا غراي توصلت إلى كسب ثقة قائد شبكة تجسس سوفياتية داخل ترسانة الكلية العسكرية

الملكية Woobwich، وهو "برسي غلادينغ"، محنك الكومنترن الذي كان مسؤولاً عنه دوتش ثم مالي. وفي شباط ـ فبراير عام ١٩٣٧، طلب غلادنغ من أولغاغراي استئجار مسكن لكنزنغتون لاستخدامه "كملجأ". وبعد ذلك بشهرين، أتى إليه مالي. وقد عرّف عنه غلادنغ باسم "م. بترز" وقدمه إلى أولغاغراي على أنه "نمساوي خدم خلال الحرب في الخيالة الروسية". وفي ١٦ آب ـ أغسطس، قبل عدة أسابيع من استدعاء مالي إلى موسكو، زار غلادنغ المنزل مع دوتشر الذي قدمه باسم "م. ستيفنز". قبلت أولغاغراي مساعدة "م. ستيفنس" لتصوير ملفات حملها غلادنغ. وهي لم تتقن أيّ لغة أجنبية ولم تكتشف أبدًا جنسية آل ستيفنس، وكذلك هويتهم الحقيقية؛ وكان أرنولد وجوزفين دوتش يتحدثان بالفرنسية بحضورها.

مع نهاية تشرين الأول ـ أكتوبر، دونت أولغاغراي رقم الإرجاع لملف صورته جوزفين دوتش، وهذا أتاح لدائرة المخابرات البريطانية MI-5 أن تعرف أن هذا الملف هو مخطط لمدفع سفينة جديد من أربع عشرة بوصة. ومع بداية تشرين الثاني ـ نوفمبر، أعلن غلادنغ أن آل ستيفنس عادوا إلى موسكو بسبب مرض ابنتهما؛ وكان من المفترض أن تعود السيدة ستيفنس بينما كان على زوجها العودة إلى لندن بعد الميلاد. وطلب من أولغاغراي أن تتدرب خلال هذه المدة على استعمال جهاز التصوير في بيت السيدة ستيفنس وذلك بهدف التمكن من استبداله. وبخلاف استدعاء مالي، فقد بدا أن استدعاء عائلة دوتش لم يتم بهذه السرعة بسبب هذيان التطهير بل بالأحرى خوفًا من إفتضاح أمرها. وخلال صيف عام ١٩٣٧، فقدت عميلة الكومنترن اديت تيودور ـ هارت، التي تستخدمها الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD كساعي بريد، مفكرة تتضمن تفاصيل مشبوهة حول عمليات استخبارات دوتش. وفي الوقت ذاته تقريبًا، فإن الطلب الذي قدمه

دونش لإنشاء جمعية تسمح له بالتصرف بقاعدة دائمة في لندن لم ينجح. وعندما أصبح الإذن بالإقامة على وشك الانتهاء، استدعاه البوليس، وسألته الشرطة عن كيفية اعتقاده بأنه سيترك البلد ومتى...

إن توقيف غلادنغ وشبكة تجسس ترسانة الكلية العسكرية الملكية على يد الشعبة الخاصة في كانون الثاني ـ يناير ١٩٣٨ حطّم الأمل بعودة دوتش إلى انكلترا. ولو أن دائرة الأمن البريطانية والشعبة الخاصة قد تصرفتا قبل ذلك، فمن المرجح أنه كان بالإمكان توقيف مالي أو دوتش، بل وحتى كليهما. فقد أرجأتا لحظة الانتقال إلى التنفيذ على أمل التعرّف على شبكة التجسس كاملة قدر الإمكان قبل توقيف غلادنغ. لم تتعرّف دائرة الأمن البريطانية على كل مندوبي الهيئة الشعبية للعمل الداخلي NKVD في لندن، إلاّ مع بداية عام ١٩٣٨، كما وأنه كان قد تم استدعاء "العملاء غير الرسميين" إلى موسكو.

وعلى عكس مالي وأكثرية، إذا لم نقل كل المندوبين في لندن، لم تجر تصفية أرنولد وجوزفين دوتش عند عودتهما إلى الاتحاد السوفياتي. فقد عمل أرنولد عدة سنوات في المركز كمزيّف وخبير في التزييف. ويكشف التنويه تحت صورته في صالة الشرف التابعة للمديرية الأولى أنه أُنزِل بالمظلة في مسقط رأسه النمسا عام ١٩٤٢ لتنفيذ عمليات خلف خطوط الأعداء، إنما سرعان ما تم أسره وإعدامه على يد النازيين.

إن مغادرة دوتش وكل مندوبي الـ NKVD لندن مع نهاية عام ١٩٣٧ ترك "الخمسة الكبار" والعملاء السوفيات الآخرين في بريطانيا دون توجيه ولا دعم. ومع أن بعض العملاء المتروكين لشأنهم توصلوا لإقامة اتصالات متقطعة مع ضباط الـ NKVD في القارة، فإن إرباكات جدية أثّرت عام ١٩٣٨ على سيل المعلومات

الوافدة إلى موسكو وعلى معالجة فرع تشيكا للاستخبارات الأجنبية INO لهذا السيل والتي لحقها التطهير بشكل بطيء.

إن مغزى هذه المرحلة الأولى من عملية اختراق وزارة الحرب البريطانية على يد عملاء سوفيات، والتي وضع حدًا لها استدعاء مالي ودوتش، جرى تأويله بشكل سيء عمومًا. إن نجاح عملية الاختراق الأكبر تمثل بتجنيد موظفين في الشيفرة، "أولدهايم وكنغ"، ودبلوماسيين شابين "ماك لين وكارنكروس"، في الخارجية. وكان للملفات المجمعة أهمية فائقة بسبب مضمونها ذاته. غير أن قيمة هذه المواد، في مساعدة "محطمي الكود" التابعين للوحدة المختلطة في اعتراض وفك رموز NKVD / المديرية الرابعة، كانت أكبر بكثير كذلك. وقد انتشرت خرافة تقول إن نجاحات "محطّمي الكود كانت في استخدامهم رياضيين لامعين (المستفيدين الآن من مواد معلوماتية هائلة). وفي الحقيقة، فإن أكثرية عمليات فك الرموز الأكثر تعقيدًا وأنظمة الشيفرة التي اختُبرت تم الحصول عليها بمساعدة، جزئية على الأقل، معلومات قدمتها الجاسوسية. وقد استفاد "محطّمو الكود" السوفيات في الثلاثينيات من مساعدة واسعة جدًا قدمتها الجاسوسية لهم. ولم تتوفر لزملائهم الغربيين. فقد سلّم عملاء الـ NKVD الأربعة في الخارجية النص الغير مرمّز للبرقيات الدبلوماسية البريطانية التي يمكن مقارنتها برواياتها المرمزة، وهذا ما ساهم بفهم الشيفرات المستخدمة. فالأربعة كانوا قادرين على تقديم معلومات حول أنظمة الشيفرة بالذات. ومع أن غورديفسكي كان لديه القليل من المعلومات المباشرة بهذا الصدد، فمن الممكن استنتاج أن نجاحات "محطمي الكود" السوفياتية ضد اليابان في الثلاثينات كانت مشابهة لنجاحاتهم بمواجهة الإنكليز.

وعلىغرار ما تبقى من الـ NKVD والمديرية الرابعة، فقد وقع هذا النشاط السوفياتي في الاعتراض وفك الرموز، في حالة من الإرباك وذلك بسبب المناخ السائد

خلال الإرهاب الكبير. ومع نهاية ١٩٢٧، تم إعدام غليب بوكي مسؤول هذه الوحدة وكذلك مساعدهُ الكولونيل خاركفيتش. وبعد توقيف بوكي، اكتشف في بيته مخبأً صغيرٌ في داخله قطع ذهبية وفضية. أما خَلَفَه شابيرو فأوقف بدوره بعد شهر فقط من تسلمه لعلمه. أما على مستوى المرؤوسين، فقد كانت عمليات التصفية أقل وطأة في أوساط مفككي الرموز منها في الـ INO، فهذا "س. تولستوي"، المسؤول عن الشعبة اليابانية، ولعله الأكثر إنتاجًا، يبقى في مركزه خلال كل حقبة الإرهاب الكبير وحقبة الحرب العالمية الثانية..

ولمجرد أن تغلبت الـ NKVD على الارتباكات التي سببها الإرهاب الكبير، لاقى عملاؤها في الاختراق العاملين في بريطانيا وفي أماكن أخرى، نجاحًا باهرًا لم يحدث من قبل. فقد توصل العملاء السوفيات خلال الحرب لأن يندسوا ليس في وزارة الحرب البريطانية فقط بل وكذلك في دوائر المخابرات البريطانية بالذات[1].

١ ـ أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران (دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١) ص١٩٦ ـ ٢٢٨.

كلود دانسي والشبكة الظلّ

وصف أحد الزملاء في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 شخصية هذا الرجل الذي كان يحمل الكنية الهزلية "العم كلود" في أوساط جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 بأنها "شخصية مقرفة". وعلى ما يبدو، فربما كان هذا التقييم دقيقًا، ذلك أنه ليست هناك دلائل توحي بأن كلود دانسي كان يُنظر إليه بين زملائه على أنه يزيد عن حد كونه إنسانًا بائسًا. ولكن أحدًا لم يكن يشك أبدًا في أن هذا الرجل المقرف كان واحدًا من أعظم الجواسيس.

جاءت شخصية دانسي سريعة الغضبة إلى حد كبير من حقيقة ما يطلق عليه الطب النفسي الحديث "الاختلال الوظيفي" في العائلة.

حينما ولد في العام ١٨٧٦ لأب ضابط في الجيش، كان دانسي واحدًا من تسعة أطفال عاشوا في ظل ظروف عائلية من الانضباط العسكري الصارم القائم على الضرب الدائم لأقل المخالفات. وبالنتيجة، مال الإخوان والأخوات إلى الشعور بالكراهية تجاه بعضهم البعض وأيضًا تجاه الأب.

في سن العشرين، انضم إلى الجيش، قاصدًا مهنة عسكرية، إذ ما كان يمكن أن يتسامح أبوه مع اختيار آخر.

في العام ١٩١٠، بسبب مرضه الناشئ عن تأثيرات الخدمة العسكرية في بورنيو الشمالية، انضم إلى وحدة الاستخبارات العسكرية الجديدة بالمعرفة باسم MO، وهذا

الجهاز، السابق على جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، كان مهتمًا على وجه الخصوص بالحركة الوطنية الإيرلندية.

تلقى دانسي تدريبًا أثناء العمل حول تعقيدات الاستخبارات الحديثة خلال الصراع السري الذي لا يلين بين البريطانيين والثوريين الإيرلنديين: عملاء مزدوجون، وعملاء ثلاثيون، وجواسيس عاملون في الظلام، وعمليات تغلغل، وعمليات تنصت. وفوق كل هذا، فإن دانسي عرف قيمة الاستخبارات في توقع نوع الكوارث التي يمكن أن تقوم بها أيّ حركة ثورية. وفي مناسبتين على الأقل، تمكن الجواسيس النافعون الذين وضعهم بين الثوريين من تحذير الاستخبارات البريطانية من وجود خطط لنسف قصر باكينغهام.

سنة ١٩١١، جرى إرسال دانسي إلى واشنطن لتنظيم عمليات ضد المؤيدين للحركة الثورية الإيرلندية في الولايات المتحدة، وهي مهمة جعلته يجري اتصالات مع منظمات استخباراتية صغيرة أميركية. والأهم من هذا كله، فإن دانسي أجرى أيضًا اتصالات هامة أخرى مع رجال صناعة أميركيين، ومنهم حصل على معلومات استخباراتية حول جهود الثوريين الإيرلنديين التنظيمية بين عمالهم الإيرلنديين. ومن واقع كونه إداريًا موهوبًا، جرى إغواء دانسي بعيدًا عن الجيش من خلال عرض لإدارة أحد الأندية الصغيرة الهادئة في الجزء الشمالي من نيويورك، وهو عبارة عن مكان هادئ خاص بالمدراء التنفيذيين في شركات أميركية وبريطانية، حيث يمكن إجراء سلسلة من اتصالات على جانب كبير من الأهمية.

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، عاد دانسي إلى جهاز الاستخبارات العسكرية البريطاني MO. وبسبب اتصالاته الأميركية الواسعة، عهدت إليه مهمة في واشنطن للعمل مع الأميركيين في مكافحة عمليات التجسس الألمانية في الولايات المتحدة. وفي

نهاية الحرب، جرى تجنيده من جانب عدد من الشركات كخبير عام. ولكن مثله كمثل الكثيرين من الرجال الذين قاموا بأعمال الاستخبارات، فإن العمل مع الشركات يأتي متضائلاً من حيث الجاذبية مع حياة الإثارة والخداع المعروفة في عالم التجسس. ولما شعر بالملل، عاد دانسي في ١٩٢٩ إلى جهاز الاستخبارات العسكرية البريطاني MO، وفي هذا الوقت أعيدت تسمية الجهاد باسم جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6. وعهدت إليه مهمة رئيس محطة في روما، بتعليمات لمراقبة حركة موسوليني الفاشية، التي تهدد المصالح البريطانية في البحر الأبيض المتوسط.

لم يكن دانسي متأثرًا بما عرف عن جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6. ومثله كمثل أي رئيس محطة، فهو حاصل على غطاء دبلوماسي في السفارة البريطانية كمسؤول في مكتب الجوازات. وكان جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 يستخدم هذا الغطاء منذ سنوات، وكما اكتشف دانسي، فحتى سائق التاكسي كان يعرف أن رئيس عمليات جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 في أي بلدة هو دائمًا مسؤول في مكتب الجوازات. وكان هذا بمثابة جزء من المشكلة. وجرى تخفيض ميزانية جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 على نحو كبير ضمن إجراءات التقشف اللاحقة على الحرب، وأصبح الجهاز مجرد ظل لسمعته. وفي ظل وجود ميزانية تشغيل ضئيلة، اضطر الجهاز في الغالب إلى استخدام ضباط عسكريين متقاعدين يتقاضون حدًا أدنى من الرواتب، أو ربما لا يتقاضون رواتب على الإطلاق، ويعيشون على منحة حكومية. وكان الجزء الأعظم من هؤلاء الضباط بلا كفاءة. وكان الجهاز نفسه تحت إشراف أدميرال متقاعد يدعى "هوغ سينكلير"، وهو رجل نصف مجنون ومصاب بجنون الارتياب في الآخرين، الذي فضل الاتصال مع رجاله على وجه الخصوص عن طريق رسائل موضوعة

في صندوق مغلق، حتى أن أخته نصف المجنونة هي التي كانت تحمل نسخة أخرى من المفتاح.

ونتيجة لذلك، كما عرف دانسي، فإن جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 لم يكن يملك معلومات موثقة حول ما كان يجري في أوروبا، القارة التي كانت في حالة إهتياج. ومن أجل تجميع معلوماته الاستخباراتية الخاصة به، لجأ دانسي إلى الاعتماد على شبكة اتصالاته مع الشركات التي تمكن من تكوينها من قبل. واكتشف دانسي أن رجال الأعمال يعرفون الشيء الكثير عن حقيقة هذا العالم بأكثر مما يعرف رجال الاستخبارات البريطاني MI-6. ومن واقع تعودهم على التقييمات الواقعية التي تهتم بالنتائج الأخيرة، فلم يكونوا متقلين ببعض الأحكام السبقية التي أصابت رجال الاستخبارات. وعلاوة على ذلك، فهم كانوا يسافرون على نطاق واسع، وكانوا يعقدون اتصالات حميمة مع رجال الأعمال الأجانب، وكانوا أيضًا خبراء أنفسهم. وعلى سبيل المثال، فإن أي مدير تنفيذي في شركة لصناعة الفولاذ كان يمكنه أن يذهب إلى مصنع أجنبي للفولاذ، ومن خلال نظرة واحدة كان يمكنه تقييم تكنولوجيا المصنع وطاقته الانتاجية ونوعية عماله. وكان رجل صناعة الطائرات، من خلال نظرة واحدة، يمكنه أن يقرر على نحو موثوق حالة التكنولوجيا المستخدمة في صناعة طائرة أجنبية.

ونتيجة لذلك، بدأ دانسي في وضع خطة. وكلما كان يعرف المزيد عن شبكات جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 العاملة في أوروبا، ازداد اقتناعًا بأنه يبحث عن كارثة وشيكة الحدوث. وانتهى دانسي إلى استنتاج مفاده أنه في حالة حرب، فإن كل محطات جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 والرجال المجانين القائمين على إدارتها يمكن إلقاء القبض عليهم في لحظة واحدة. ولذلك ينبغي أن يكون هناك هيكل بديل

لجهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، أو هيكل آخر لجهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، بحيث يكون سريًا وقادرًا على تولي المسؤولية حيثما يحدث المحتوم.

بدأ دانسي شيئًا فشيئًا في بناء تلك الشبكة الظل. وعن طريق اتصالاته مع عالم رجال الأعمال، تمكن من تكوين شبكة من رجال الأعمال الراغبين في تقديم العون، ومع حلول العام ١٩٣٦، كان لديه هيكل يتكون من ٢٠٠ مدير تنفيذي يقدمون المعلومات الاستخباراتية من كل أنحاء أوروبا. وكان البعض منهم مبتهجين بالمشاركة انطلاقًا من مجرد الرغبة الشديدة في العمل بالتجسس. وكان انهماكهم في العمل، وفق تعليمات دانسي الثابتة، ينطوي على أقل الأخطار: عدم اللجوء إلى كتابة أي شيء، أو محاولة التقاط أي صورة، أو محاولة حمل أي أداة تجسس... وكان المطلوب منهم فقط فتح عيونهم وآذانهم، ثم إعادة تذكّر ما أمكن رؤيته وسماعه... وهناك آخرون كانوا أشد طموحًا، وعلى الأخص المخرج السينمائي "ألكسندر كوردا"، المولود تآمريًا، الذي استخدم شركته السينمائية كغطاء لتبرير زيارته إلى مناطق شديدة الحساسية في أوروبا بحجة اكتشاف أماكن الفيلم...

أطلق دانسي على شبكته الخاصة به اسم منطقة Z تيمنًا باسمه الرمزي Z. وجعل دانسي رجاله مستعدين للحرب التي كان واثقًا من اندلاعها قريبًا. وفي غضون ذلك، جرت ترقيته إلى منصب رئيس العمليات الاستخباراتية السرية التي يقوم بها جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 من مراكز القيادة في لندن. وما أن وصل إلى لندن حتى اندلعت الحرب، وهكذا وقعت الكارثة الاستخباراتية التي كان يتوقعها منذ فترة طويلة.

وقعت الضربة الاستخباراتية في لاهاي، التي كانت بمثابة نقطة الاتصال الرئيسية لكل عمليات جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 في أوروبا. وكانت المحطة في لاهاي تقوم بجمع المعلومات الاستخباراتية من المحطات الأخرى في القارة وإرسالها

إلى لندن. ولكن محطة لاهاي، التي يديرها ضابطان عسكريان متقاعدان بخبرة محدودة في الاستخبارات: "باين بيست" و"ريتشارد ستيفنس"، أمكن التغلغل إليها من جانب جاسوسها النافع، وهو رجل هولندي كان يعمل في الواقع لحساب وكالة الاستخبارات النازية SD، التي كشفت تدريجيًا عن هويات جميع عملاء المحطة والجواسيس النافعين.

ولكن بدلاً من مجرد محاولة تحييد المحطة، قررت وكالة الاستخبارات النازية SD البدء في خطة راديكالية من شأنها إصابة الاستخبارات البريطانية بالشلل التام، وفي الوقت نفسه تشويه سمعة الحركة السرية المعادية لهتلر في ألمانيا. وهذه الخطة، وهي من بنات أفكار ضابط شاب في وكالة الاستخبارات النازية SD يدعى "وولتر شلينبيرغ"، الذي أصبح بعد بضع سنوات رئيسًا لوكالة الاستخبارات النازية SD، دعت هذه الخطّة إلى قيامه بالتظاهر كأنه ضابط عسكري ألماني منهمك في العمل السري. وعن طريق جاسوسه النافع الهولندي، يمكنه أن يفاتح الرجلين في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 اللذين يديران المحطة ويعرض عليهما تقديم معلومات استخباراتية مقابل قيام جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 بمساعدة الحركة السرية.

وردّ بيست وستيفنس الغافلان باندفاع نحو الطعم، واتفقا على ترتيب لقاء محفوف بالأخطار أيضًا: الاجتماع مع هذا الضابط الألماني في بلدة "فيلنو" عند حدود هولندا ـ ألمانيا. وفي ٩ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٣٩، وصل الاثنان إلى الاجتماع في مطعم. وفي غضون دقائق من وصولهما، هدرت سيارة عسكرية تابعة لوكالة الاستخبارات النازية SD عبر الحدود، واختطفت عميلي جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، وعادت مسرعة إلى ألمانيا تحت وابل من نيران حراس الحدود الهولنديين.

وما أن وصل الاثنان إلى ألمانيا، وبعد بضعة أيام تحت رحمة أيدي رجال الغستابو الرحيمة... إضطر بيست وستيفنس إلى الكشف عن كل شيء. وكانت بذلك الكارثة الأعظم التي أصابت الاستخبارات البريطانية على الإطلاق. ولأن بيست وستيفنس كانا يشغلان المحطة الأهم في لاهاي، فإنهما كانا يعرفان هويات كل عميل هام يعمل لحساب جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 في أوروبا، وأيضًا هويات جميع الجواسيس النافعين. وفي غضون بضعة أيام، تعرض هيكل جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 برمته في أوروبا إلى الانهيار.

ومن واقع حقيقة توقعه حدوث مثل هذه الكارثة، عكف دانسي على الفور على تنشيط منظمته Z. وليس من قبيل المبالغة القول في تلك اللحظة إن دانسي أنقذ جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6. ولكن مهما كان إسهامه عظيمًا، فهو نال احترامًا محدودًا جدًا داخل جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، حتى على الرغم من ترقيته إلى نائب رئيس الجهاز الجديد: ستيوارت مينزيس. وكانت المشكلة هي شخصية دانسي: حاقد ومحب للانتقام وبمزاج غاضب، وكان يكره كل شخص يحمل شهادة جامعية ويعتبره هاويًا لا قيمة له، وكان يصر على القول إن أصدقاءه من رجال الأعمال هم وحدهم الذين يقدرون حقيقة العالم الذي يعيشون فيه حق قدره.

خلاصة القول، إن دانسي كان شخصية لا تطاق، وكان نصف أعمى من تأثيرات الأمراض التي أصابته خلال خدمته العسكرية، وكان يبدو كأنه يمضي كل وقته موبخًا العالم كله. وبدأ مينزيس في الشعور بالكراهية تجاهه، وكذلك فعل جميع الرجال الآخرين في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 الذين اضطروا إلى الاحتكاك به. ولكن أحدًا لم يكن يشك في ذكائه كرجل استخبارات. وفي غضون بضعة أسابيع على كارثة "فينلو"، بدأت منظمة Z التي أشرف عليها الكثيرون من رجال جهاز

الاستخبارات البريطاني MI-6، الذين اختارهم دانسي شخصيًا، في العمل، وقدمت معلومات استخباراتية بأفضل ما كان يمكن أن يقدم هيكل جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 القديم.

كانت قوة منظمة Z تكمن في المجال الحيوي للاستخبارات الاقتصادية والتكنولوجية، ذلك أنه بفضل قيام رجال الأعمال، بخبراتهم المستقاة من مصادرها الأولى مباشرة، بزيارة الأماكن الصناعية في ألمانيا، تمكن دانسي من تكوين صورة شاملة عن حجم ونطاق وقدرات الماكينة الصناعية الألمانية... وهي صورة أقنعته بأن تلك الماكينة ليست قادرة على تغطية مطالب الحرب الشاملة.

في العام ١٩٤١، عُهدت إلى دانسي مهمة بدت كأنها مستحيلة التطبيق، ذلك أنها أوجدت مشكلة معقدة على وجه الخصوص: بفضل نظام "أولترا" لحل رموز الشيفرة، انتهى البريطانيون إلى استنتاج مؤداه أن ألمانيا على وشك غزو الاتحاد السوفياتي، وبرغم إخفائهم المصدر الحقيقي، فإن البريطانيين قاموا بتمرير تلك المعلومة الاستخباراتية إلى ستالين، بالإضافة إلى معلومات أخرى تحدد بالضبط اليوم الفعلي للهجوم وقائمة بجميع الوحدات الألمانية المشاركة. ولكن ستالين، الذي رفض كل المعلومات الاستخباراتية من محطات التجسس الخاصة به التي أبلغته بالشيء نفسه، رفض المعلومات الاستخباراتية البريطانية، واعتبرها "استفزازًا".

وأوجد الغزو، حين القيام به، مشكلة للبريطانيين، ذلك أنه بفضل نظام "أولترا" لحل رموز الشيفرة، كانوا يملكون صورة شاملة ثمينة عن الخطط العسكرية الألمانية في الجبهة الشرقية، ولكنهم لم يكونوا راغبين في جعل ستالين يعرف أن هذه المعلومات الاستخباراتية جاءت من أعظم نظام لحل رموز الشيفرة في كل العصور. واتصل مصدر الشعور بالقلق عند البريطانيين بحقيقة مخاوفهم من أنه في حالة الكشف

عن نظام "أولترا" أمام الروس، فربما يتسرب ذلك بطريقة ما إلى الألمان أيضًا. وفي واقع الأمر، فإن البريطانيين كانت لديهم خطط لاستخدام نظام "أولترا" في قراءة رسائل سوفياتية في وقت لاحق، وهي خطط كان يمكن أن ينتهي مصيرها إلى الفشل في حالة الكشف عن نظام "أولترا" قبل الأوان.

ومن ناحية أخرى، فهناك كانت أشياء أخرى على المحك، ذلك أن الجزء الأعظم من القوة العسكرية الألمانية بعد حزيران ـ يونيو ١٩٤١ كان منهمكًا في الجبهة الشرقية. ومهما يكن من أمر، كان ينبغي على الاتحاد السوفياتي الانهماك في الحرب، وعلى حد تعبير تشرشل الساخر، ولكنه الدقيق أيضًا، فإن العقربين منهمكان في استنزاف كل منهما الآخر حتى الموت. وهكذا، أصبحت فكرة إمكانية تحويل كل القوة العسكرية الألمانية الموجهة نحو الاتحاد السوفياتي ضد بريطانيا العظمى في حالة إلحاق الهزيمة بالسوفيات فكرة غير واردة.

لذلك، فإن المسألة اتصلت بكيفية نقل المعلومات الاستخباراتية عن طريق نظام "أولترا"، مع الحرص على إخفاء حقيقة هذا السر العظيم، وفي الوقت نفسه إقناع ستالين بأنها لم تأت من البريطانيين، الذين يكرههم الدكتاتور الروسي ولا يثق بهم. وكان حل دانسي لهذه المسألة معقدًا ورائعًا معًا.

كان أحد رجال دانسي في سويسرا يعرف حقيقة وجود شبكة تجسس سوفياتية واسعة النطاق في ذلك البلد المعروف لدى الألمان بأنه بلد "الحمر الثلاثة"، وذلك بسبب استخدام ثلاثة راديوهات في إرسال المعلومات الاستخباراتية إلى موسكو. وكان أحد مصادر شبكة الاستخبارات مغترب ألماني يدعى "رودولف روسلر"، الذي كان لديه بعض الاتصالات في بلده لتزويده بمعلومات استخباراتية متدنية الدرجة. ومن خلال الاتفاق مع أصدقاء في الاستخبارات السويسرية، تمكن دانسي من تدبير أمر تزويد

روسلر بجرعات من المعلومات الاستخباراتية من نظام "أولترا"، وكلها اتصلت بالخطط الألمانية وترتيب الوحدات القتالية في الجبهة الشرقية. وبرغم شعوره بالارتياب في بادئ الأمر، فإن مركز موسكو بدأ في تقدير معلومات روسلر الاستخباراتية، وكانت معلومات دقيقة جدًا على أي حال.

إنتهت العملية سنة ١٩٤٣، حينما لم يعد الروس، الذين تمكنوا من فرض اليد العليا عسكريًا، في حاجة إلى نظام "أولترا" السري. ومع أنهم لم يعرفوا حقيقة وجوده، فإن عملية دانسي كانت تقدم في الغالب الفرق بين النصر والهزيمة في الجبهة الشرقية.

وكانت تلك آخر الانجازات التي قدمها دانسي إلى جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6. وفي ظل تعاظم عزلته بين زملائه الكارهين لشخصيته الفظة، بدأت مهنة دانسي في الانحسار. وحينما أصبح من الواضح أكثر فأكثر أنّ هزيمة الألمان باتت حتمية، لم يعد هناك سبب يستدعي التغاضي عن عيوب دانسي في سبيل ذكائه في العمليات الاستخباراتية. وربما يمكن القول بصراحة إن دانسي أصبح عبئًا ثقيلاً. وفي العام ١٩٤٤، عهدت إليه وظيفة عديمة الأهمية، بدون عمل لتأديته، وبعد عام، أجبر على الاستقالة من جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 لأسباب صحية. وغادر بدون كلمة شكر... أو أي معاش تقاعدي... من المنظمة التي فعل الشيء الكثير من أجلها.

وعلى الرغم من مرضه، فهو حصل على وظيفة كمدير تنفيذي في إستوديو كوردليون للأفلام السينمائية. وفي العام ١٩٤٧، مات في بيت للمسنين من جراء نوبة قلبية. ولم يذهب أحد من جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 لزيارته في أيامه الأخيرة، وكذلك لم يفعل أحد من أفراد عائلته. وشارك في تشييع جنازته عدد قليل من أصدقائه القدامى في منظمة Z، من بينهم "نوئيل كوارد".

قبل نهاية حياته، كان دانسي متضايقًا من حادثة غريبة، ذلك أنه في صباح أحد الأيام، استيقظ، واكتشف حرف Z مكتوبًا بخط كبير على باب بيته الخارجي. وبالنظر إلى أن مجموعة من الأفراد كانوا يعرفون اسمه الرمزي في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، فإن دانسي حاول أن يعرف من منهم قام بهذا العمل المحيّر. ولم يعرف أبدًا، وحتى قبل نهاية حياته، كان يتمنى لو يعرف، وانتاب رجل الاستخبارات العجوز شعور بالإحباط من جراء واحد من الألغاز القليلة التي لم يستطع حلها[١].

---

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٩) ص٢٧٠ ـ ٢٧٩.

وليام ستيفنون. . . الجريء

كان أشد المسؤولين شعورًا بالإحباط في كل حكومة الولايات المتحدة خلال ربيع ١٩٤١ هو مساعد وزير الخارجية "أدولف بيرل". ومن واقع مسؤوليته الرئيسية في ضمان التزام الولايات المتحدة بنصوص "قانون الحياد" وبقائها بعيدًا عن الحرب المحتدمة في أوروبا، فإن بيرل كان يجد يوميًا تقريبًا دلائل على وجود عميل استخبارات بريطاني قام بتجنيد الكثيرين من الأميركيين من أجل انتهاك هذا القانون على نحو فاضح. ولم يكن هناك أحد في الحكومة الأميركية أراد أن يفعل شيئًا تجاه هذا الموضوع.

كان اسم هذا الرجل هو "وليام ستيفنسون". ومن الناحية الرسمية، فإن ستيفنسون كان رئيس محطة جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، ولكن كما عرف بيرل فإن مهمة ستيفنسون اتخذت أبعادًا واسعة: مهمته لم تكن أقل من حمل الولايات المتحدة على دخول الحرب إلى جانب بريطانيا العظمى.

وكان مصدر شعور بيرل بالإحباط هو البيت الأبيض، ذلك أنه في كل مرة كان يقدم فيها دليلاً على آخر انتهاكات ستيفنسون، كان يسمع وعودًا بتسوية المشكلة على مستوى دبلوماسي رفيع مع بريطانيا. ولكن لم تكن تُتخذ أي إجراءات، وبدأ بيرل في الظن أن البيت الأبيض كان متآمرًا مع ستيفنسون. وكان بيرل على حق على نحو قاطع...

كان ستيفنسون يحتل مكانة متفردة في الاستخبارات البريطانية، وهي مكانة لم يتمتع بها أحد من بعده. وعلى صعيد التجسس، فهو مطلوب منه القيام بمهمة مزدوجة: الأولى، مهمة استخباراتية تقليدية، وهي قيامه بمراقبة عمليات الاستخبارات الألمانية في الولايات المتحدة بعناية. والثانية، مهمة استخباراتية خفية، وهي جعل الولايات المتحدة تدخل الحرب إلى جانب بريطانيا بأي وسيلة كانت، مشروعة أو مخادعة. ومن أجل هذه المهمة الثانية على وجه التحديد كان ستيفنسون معنيًا بتكريس كل وقته وطاقته.

وجاءت تلك المهمة مباشرة من ونستون تشرشل، الذي أمر بإرسال ستيفنسون إلى نيويورك...

كان تشرشل يعرف ستيفنسون جيدًا، ولو كان هناك رجل يمكن أن يقوم بهذه المهمة، فهذا الرجل هو صاحب الكنية "بيل الصغير"، بسبب بنيته الجسمانية الضئيلة. وتجاهل تشرشل التململ في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 حول التعيين، ذلك أن ستيفنسون لم يكن واحدًا من رجال جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، كما أنه لم يكن يملك خبرة سابقة في الاستخبارات. ولكن كما جادل تشرشل، فإن فهمه لهذه المهمة في نيويورك يقوده إلى اعتبارها ذات طبيعة خاصة، وتستلزم رجلاً خاصًا تبعًا لذلك، وكان ستيفنسون بالتأكيد هو ذلك الرجل.

من المثير للانتباه هو أنه على الرغم من قناعة بيرل الحسية بأن ستيفنسون يمثل ذلك الرجل البريطاني المتكبر الذي ينتمي إلى الطبقة العليا، فإن الحقيقة هي أن ستيفنسون كان كنديًا ومولودًا في وينيبيغ سنة ١٨٩٦. ومن واقع كونه شابًا مفعمًا بالنشاط ومصممًا على عمل شيء في حياته، فإن ستيفنسون اضطر إلى الانقطاع عن الدراسة الجامعية من أجل الانضمام إلى الفيالق الجوية الملكية والمشاركة في الحرب

العالمية الأولى. وبعد إسقاط طائرته سنة ١٩١٧، هرب من مخيم الاعتقال في ألمانيا، وشرع في طريق العودة إلى خطوط الحلفاء مشيًا على الأقدام. وبعد عودته، جلس ستيفنسون على الفور، وكتب تقريرًا مطولاً عن كل شيء رآه في ألمانيا، وكان بيانًا تفصيليًّا مثيرًا من ذاكرة قادرة على الاحتفاظ بانطباعات حية.

وكان برهن عن صفات ضرورية لجاسوس جيد، ولكن ستيفنسون كان لديه طموحات أكبر من التجسس. ومن واقع ولعه بالراديو، انهمك في عالم الراديو واخترع عملية نقل الصور الفوتوغرافية عن طريق إشارات الراديو اللاسلكية، ولكن ستيفنسون، المولع بالعمل، كان مصممًا على التقدم أكثر من ذلك، وذهب إلى صناعات البلاستيك والفولاذ، ومن خلال المزيد من الاختراعات القليلة من جانب هذا الشاب الذي انقطع عن الدراسة الجامعية، تمكن من كسب الملايين.

في هذه الفترة، وبعد حصوله على المواطنية البريطانية، أصبح ستيفنسون رجلاً إنكليزيًا وطنيًّا جدًّا.

ومثله كمثل الكثيرين من أبناء جيله، فهو كان يشعر بالقلق تجاه ظهور هتلر. وما عمل على تعاظم شعوره بالإحباط هو أن الحكومة البريطانية لم تكن تظهر تفهمًا للتهديدات التي يشكلها هتلر. ولكن أحد السياسيين البريطانيين، الذي كان خارج السلطة، كان متفهمًا لتلك التهديدات: ونستون تشرشل. وحول تشرشل، احتشدت مجموعة من الرجال من أمثاله، ومن بينهم عدد من رجال الصناعة والتجارة. وهذه المجموعة الأخيرة، ومن بينها ستيفنسون، بدأت في العمل كجهاز استخبارات خاص لحساب تشرشل. وفي ظل ارتباطاتها القوية مع الصناعة في ألمانيا، كانت هذه المجموعة أول من حذر تشرشل من أن هتلر يعتزم إعادة تنظيم الصناعة الثقيلة الألمانية للإنتاج الحربي. وقام ستيفنسون، الخبير في صناعة الفولاذ، بزيارة

إلـى التسـهيلات الإنتاجيـة فـي ألمانيـا، ونقـل إلـى تشرشـل أن خطـوط الإنتـاج كلهـا نقرر وضعها جانبًا من أجل الشروع في صناعـة دبابـات ومدفعيـة كافيـة لتسـليح قـوة عسكرية هائلة.

تأثر تشرشل بأقوال ستيفنسون. وفـي ربيـع ١٩٤٠، إثـر اتخـاذ قـرار حـول خطـة جريئـة لعمليـة خاصـة يقـوم بهـا جهـاز الاستخبارات البريطـاني MI-6 فـي الولايـات المتحدة بهدف حمل أميركا على دخول الحرب، قـام تشرشـل باختيـار ستيفنسـون لهـذه المهمة. وشرع ستيفنسون في تكوين مراكز قيادته في نيويورك في الطبقتيـن ٣٥ و٣٦ في مركز روكفلر حيث كانت رسميًا مكاتب الجوازات البريطانية. ولكن هـذه المكـاتب كانت تقوم بأعمال رسمية قليلة جدًا، وبمسـاعدة ثلاثـة مـن رجـال جهـاز الاسـتخبارات البريطاني MI-6 شرع ستيفنسون في العمـل فـورًا. وقـام بتكويـن حلقـة اتصالاتـه عـن طريق الراديو مع لندن، وتسجيل اسمه الرمزي المختار على شريط: "الجريء"، وتلـك كانت الخطوة الأولى على طريق ما أصبح العملية الاستخباراتية الخفيـة الأكثـر نجاحًـا في التاريخ.

وصل ستيفنسون إلى نيويورك بورقتيـن قويتين: الأولـى هـي أن تعيينـه جـاء مـن تشرشل، وإلى تشرشـل مباشـرة ينبغي أن يقدم تقـاريره، متجـاوزًا بذلـك بيروقراطيـة جهاز الاسـتخبارات البريطـاني MI-6 وعدد مـن المسـؤولين فـي جهـاز الاسـتخبارات البريطاني MI-6 الذين كانوا مقتنعين بأن هـذا الرجـل الهـاوي النشـيط يمكـن أن يكـون سببًا في حدوث كارثة. والثانية هي أن تشرشل والرئيس روزفلت توصـلا إلـى "تفـاهم خاص" يقضي بعمل كل ما من شأنه تجنب "قانون الحيـاد" الأمـيركي وتقديـم المسـاعدة إلى بريطانيا العظمـى. وفـي الواقـع، فـإن هذا جعـل رئيس الولايـات المتحدة متـآمرًا مشاركًا.

كان ستيفنسون في مياه مظلمة، غير أنه خلال تشجيع الراعي رفيع المستوى، تمكن من تكوين امبراطورية. وتولى ستيفنسون مسؤولية كل العمليات الاستخباراتية البريطانية في الولايات المتحدة ابتداء من مكافحة التجسس وانتهاء بالرقابة الروتينية. وحين الأخذ في الاعتبار نطاق هذه العمليات، فمن الصعب تلخيص كل عمليات ستيفنسون. ومن واقع كونه رجلاً مغامرًا خالصًا، فهو كان مناصرًا لأي خطة عملية، ومن الأفضل لو كانت خطة جريئة: مجموعة من العاهرات الجميلات لإغواء الدبلوماسيين الألمان والسياسيين الأميركيين المؤيدين لموقف ألمانيا، ومجموعة من المجرمين لتنفيذ عمليات الاختطاف، ومجموعة من الخبراء لفتح وإغلاق الرسائل البريدية الدبلوماسية بدون ترك أثر ما، ومجموعة من فاتحي الأقفال والخزائن الحديدية للدخول إلى السفارات والقنصليات لسرقة أوراق رموز الشيفرة...

وكان مبدأ ستيفنسون الثابت هو أن رجلاً هاويًا مخلصًا يعمل في ظل توجيهات صحيحة يمكن أن يعالج العمليات الاستخباراتية على نحو أفضل من المحترفين. وهناك سبب واحد لذلك، كما جادل ستيفنسون، وهو أن الهواة ليس لديهم سجلات كرجال استخبارات، وتبعًا لذلك فهم غير معروفين لدى وكالات مكافحة التجسس. وهناك سبب آخر، وهو أن الهواة أرخص ثمنًا في التعامل، وذلك لأنهم يعملون من أجل الوطنية وليس النقود....

قام ستيفنسون بتجنيد حوالي ٣٠٠ شخص من الهواة، ابتداء من غير المعروفين وانتهاء بنجوم سينمائيين مشهورين مثل "غريتا غاربو"، و"مارلين ديتريش"، و"إيرول فلين"... وكل من كان لديه حد أدنى من قيمة يمكن تجنيده من جانب ستيفنسون، ذلك الرجل الذي لا يعرف التعب...

كل هؤلاء جرى تجنيدهم للقيام بحملات دعائية كثيفة وعمليات تغلغل ضد هدفين رئيسيين: العمليات الاستخباراتية والدعائية التي تقوم بها ألمانيا وحلفاؤها في الولايات المتحدة، وعمليات المنظمة الأولى الأميركية، وهي حركة سياسية هامة تمارس ضغوطًا على نحو ناشط لجعل الولايات المتحدة بعيدة عن الحرب...

قام ستيفنسون بشن حملة أفعال قذرة كثيفة ضد القائلين بالانعزالية من خلال مقالات ازدرائية في الصحف اليومية والراديوهات عن طريق جواسيس نافعين مجندين من المستويات العليا في الصحافة الأميركية. وقام أيضًا بتجنيد كبار كتاب الأعمدة في الصحف، من بينهم "ولتر ليمان"، و"ولتر وينشيل"، و"دو بيرسون"، لكتابة مقالات تزعم بحماقة أعضاء مجلس الشيوخ القائلين بالانعزالية.

مع حلول الشهور الأولى من العام ١٩٤١، كان ستيفنسون يملك جيشًا قوامه ٢،٠٠٠ رجل وامرأة ممن قاموا بتنفيذ حملاته الدعائية. ومن بين أهم جواسيسه النافعين كان هناك كاتب الرواية البوليسية، "ريكس ستوت"، الذي كتب كتيبات دعائية، وعبقري الإعلانات المشهور، ديفيد أو هليفي، الذي عمل على تنشيط حركة الإعلانات في الصحف من خلال سلسلة مقالات لا تنضب حول آراء شخصيات مرموقة تدافع عن قضية التدخل الأميركي في الحرب وتكسبها احترامًا في عيون الأميركيين. وقرأ الأميركيون أيضًا وابلاً من التقارير الصحافية المثيرة حول مؤامرات نازية مزعومة في مختلف أنحاء نصف الكرة الغربي. ولم يكن أي من هذه التقارير صحيحًا، ولكنها بدت كأنها كذلك: خطة نازية لتدبير انقلاب عسكري في بوليفيا وبالتالي الاستيلاء على مصادر التنجستين (عنصر فلزي يستخدم لتقنية الفولاذ) الضروري لصناعة الطائرات العسكرية... وتدريب جيش من الفاشيين الإسبان في معسكرات سرية في المكسيك على أيدي النازيين تمهيدًا لغزو الولايات المتحدة... وخطة وضعها هتلر لتحريم

المسيحية في أوروبا وإحلال الصليب المعقوف (شارة الحزب النازي الألماني) محل الصليب في الكنائس... وروائعة ستيفنسون نفسه، وهي عبارة عن خريطة، قال إنه حصل عليها من "مصادر سرية" في ألمانيا، تبين خطة وضعها الألمان للإطاحة بعدة حكومات لاتينية ضعيفة ثم توسيع نطاق النفوذ الألماني شمالاً، إلى الولايات المتحدة. وهذه الخريطة استخدمها روزفلت في خطاب له دافع فيه عن مطلبه أمام الكونغرس بتعطيل "قانون الحياد" مؤقتًا.

وإدراكًا منه بأن ستيفنسون كان وراء هذا كله، وربما وراء أشياء أخرى أكثر من ذلك، أصبحت شكاوى بيرل أكثر تعاظمًا، وقرر ستيفنسون معالجة مشكلة بيرل من خلال القيام بعملية ملاحقة هائلة ضده، على أمل إيجاد عيوب فيه يمكن استغلالها للحط من قدر هذا المسؤول المزعج في وزارة الخارجية. ولم يجد عملاء ستيفنسون الكثير، باستثناء المعلومة الاستخباراتية التي تفيد أن بيرل يملك حوضين للاستحمام متجاورين في بيته حتى يتمكن هو وزوجته من الاستحمام في وقت واحد، حينما يتعين عليها أن تتحمل معاناة الاستماع إلى محاضرات زوجها السياسية التي لا تنتهي على ما يبدو.

وأدى الهجوم على بيرل هاربور، وإعلان الحرب ضد الولايات المتحدة من جانب ألمانيا بعد يومين إلى وضع نهاية فعلية لعملية ستيفنسون. وأمضى بقية الحرب في إدارة محطة جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6 التي تقلص عملها إلى حد كبير ودعوة الأميركيين إلى تكوين وكالة استخبارات مدنية مركزية. وكان نفوذه في هذا المجال كبيرًا. ومن واقع كونه صديقًا مقربًا من "وليام دونوفان"، مستشار الرئيس روزفلت للاستخبارات ثم رئيس مكتب الخدمات الاستراتيجية في وقت لاحق، فإن ستيفنسون كان بمثابة الروح المحركة وراء اقتراح دونوفان لتكوين وكالة استخبارات مركزية أميركية. وهذه الخطة تعرضت للرفض من جانب روزفلت، ولكن الجزء

الأعظم منها جرى تبنّيه في وقت لاحق حين تكوين وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية CIA.

في العام ١٩٤٥، حصل ستيفنسون على جائزة وسام الفروسية من التاج البريطاني، وكتب تشرشل بخط يده على رسالة التسمية هذه العبارة: "هذا الفارس عزيز على قلبي". ولم تذكر الرسالة شيئًا عن خدمات ستيفنسون الفعلية التي قدمها إلى التاج البريطاني، وافترض معظم الناس القول إنه حصل على هذه الجائزة لأنه رجل صناعة بارز. والقليلون جدًا هم الذين كانوا يعرفون أنه الجاسوس الأعظم الذي نظم العملية الخفية الواسعة التي قلبت الرأي العام الأميركي رأسًا على عقب خلال السنتين السابقتين على بيرل هاربور. وليس هناك أحد يمكنه أن يعرف يقينًا ما إذا كان ستيفنسون، في غياب الهجوم الياباني والإعلان الألماني للحرب، كان يمكن أن ينجح في حمل الولايات المتحدة على دخول الحرب. ولكن تبقى هناك حقيقة واحدة وهي أن ستيفنسون أوجد الظروف المناسبة لتطبيق "قانون الإعارة والتأجير" (قانون صدر في مارس ١٩٤١ قدمت الولايات المتحدة بموجبه ضروب المساعدات المالية إلى الدول الحليفة المحاربة لألمانيا وإيطاليا). وتقديم الإمدادات الأميركية الهائلة التي جعلت بريطانيا العظمى على قيد الحياة. ولهذا وحده، فهو يستحق جائزة وسام الفروسية.

كان ستيفنسون نفسه مقتنعًا بالبقاء في الظل (قلما جرى تصويره، ويعرف أن هناك صورة واحدة التقطت له خلال السنوات من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥). ومع نهاية الحرب، قرر التقاعد من الخدمة الحكومية، التي لم يأخذ منها جنيهًا واحد كراتب.

وكان أجرى اتصالاً واحدًا، وهو اتصال على جانب كبير من الأهمية، مع عالم التجسس في ذلك العام، حينما أنقذ "إيغور جوزينكو"، كاتب الشيفرة السوفياتي المرتد في كندا، وهو عمل شهد بداية مرحلة جديدة من التجسس في الحرب الباردة.

إعتزل ستيفنسون في بيته الفخم في برمودا. وظهر إلى الأضواء العامة في ١٩٦٤، حينما كتب أحد مساعديه السابقين في جهاز الاستخبارات البريطاني MI-6، مونتغمري هايد، كتابًا ذكر فيه لأول مرة لمحة مختصرة عن حكاية "الجريء" وعملية نيويورك. وبعد بضع سنوات، تعاون ستيفنسون في كتابة كتاب آخر تحت عنوان "رجل يدعى الجريء" وكان بمثابة حكاية مستفيضة وضعته في مرتبة عظماء التجسس.

أصبح ستيفنسون شخصية عامة مرة أخرى حين ذيوع شعبيته في أعقاب نشر كتابه، ثم هدأ كل شيء مع انحسار موجة الاهتمام. ومات سنة ١٩٨٩، محاطًا، كما كان منذ عدة سنوات، بماكينات وكالات الأنباء والتلكس التي فاضت بالسلعة الوحيدة التي لم يحصل منها هذا المليونير على الشيء الكثير: المعلومات[١].

١ ـ فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، ص٢٦٢ ـ ٢٦٩.

خِدعَة تزييف مونتغمري

في ربيع سنة ١٩٤٤، كان الجيش البريطانيّ في غليان. وكان الجنود يشعرون باقتراب اليوم "ي" بالرغم من جهلهم خطط قادة الحلفاء الكبرى.

على الساحل، بالقرب من "بورتسموث"، كانت تجارب الإنزال المقبل تجري على نطاق واسع بحضور وزير الحربيّة والجنرال "مونتغمري"، الذي كان يستعرض فرق جيشه، وعلى رأسه الـ"بيريه" السوداء، غير مكترث برقيب يتبعه خطوة خطوة، ويحدّق فيه بإمعان... فمن هو هذا الرجل؟

لم يسبق لأحد من معاوني الجنرال مونتغمري أن رآه أو عرفه، ومع ذلك فرجال الشرطة يسمحون له بأن يذهب ويجيء كيفما شاء... إنّه يقترب من القائد الكبير، يتفحّص تقاطيعه بدقّة، ويراقب كلّ حركة من حركاته، فتستبدّ الدهشة بالجنود، ولكن يبدو أنّ الجنرال مونتغمري لا تزعجه هذه المراقبة...

إنّ هذا الرقيب هو "كليفتون جيمس"، الذي يشبه الجنرال مونتغمري كثيرًا، وهذا الشبه في الواقع يثير الدهشة: له نفس القامة، ونفس تقاطيع الوجه، ونفس النظرة، وفضلاً عن ذلك، فإنّ كليفتون جيمس ممثّل أصيل يستطيع بقليل من الجهد أن يزيد في هذا الشبه المدهش...

علمت مصلحة الاستخبارات البريطانيّة بهذا الأمر، فقرّرت الاستفادة من هذه الظاهرة الغريبة، لتخدع مصلحة الاستعلامات الألمانيّة، فعمدت إلى إجراء تحقيق سريع عن كليفتون جيمس...

كان كليفتون جيمس ضابطًا في الحرب العالميّة الأولى. وفي سنة ١٩٣٩، تطوّع في مصلحة الماليّة، وبقي أيّامًا طويلة يدوّن أرقامًا، وهو يبذل الجهد لكي لا يغفو أثناء عمله المملّ. وقد نجح في الحصول على إذن لإخراج بعض المسرحيّات في أوقات فراغه، وهكذا تمكّن من الترفيه عن الجنود أثناء راحتهم...

كان شبه كليفتون جيمس الشديد بمونتغمري سببًا لتسلية رفاقه. حتّى أنّه في أحد الأيّام ظهر على المسرح وعلى رأسه "بيريه" عريضة سوداء... وفي يوم آخر طلب منه أحد المصوّرين أن يقف أمام عدسته وعلى رأسه الـ"بيريه" العريضة السوداء المشهورة، فلبّى الطلب، وهو مضطرب يسائل نفسه عمّا إذا كانت جريمة احتقار الرؤساء لن تكلّفه غاليًا... وظهرت الصورة في الـ"نيو كرونيكل" وقد كُتب تحتها: "كلاّ إنّك على خطأ... إنّه الليوتنان كليفتون جيمس".

ولم تمضِ مدّة طويلة حتّى دُعي كليفتون جيمس إلى لندن من قبل المصلحة السينمائيّة في الجيش... فتوهّم أنّهم يستدعونه ليظهر في بعض الأفلام... فكان فرحه عظيمًا. ولمّا وصل إلى العاصمة وجد زوجته "إيفا" في انتظاره، فصحبها معه إلى المقابلة، وتركها أمام الباب، ثمّ دخل مكتبًا فوجد نفسه وجهًا لوجه مع الكولونيل "ليستر" الذي قال له بدون مقدّمات:

- إنّنا لم نستدعك لتظهر في أفلام...

وقبل أن يستفيق من دهشته، تابع الكولونيل حديثه قائلاً:

"إنّ الجنرال مونتغمري يستعدّ لشنّ هجوم عنيف، ولكي ينجح هذا الهجوم تمام النجاح، يجب أن نجعل الألمان يعتقدون أنّ الجنرال يدرس الخطط في أرض غير الأرض الحقيقيّة التي اختارها للمعركة. والأفضل أن يرى الجواسيس الألمان شبيهًا

لمونتغمري في أفريقيا الشماليّة... أو في جبل طارق. وقد كلّفني الجنرال مونتغمري شخصيًا أن أجد الشبيه الذي سيقوم بهذا الدور".

وأضاف الكولونيل:

"أرجو أن تقبل عذري... لا علاقة لي بالمصلحة السينمائيّة في الجيش... إنّني تابع لمصلحة الاستخبارات".

بقي كليفتون جيمس مدهوشًا، فقال له الكولونيل:

"لقد اخترناك لتلعب دور الجنرال مونتغمري حتّى اليوم - ي ـ ... ونحن مكلّفون بخداع العدوّ، وبإنقاذ حياة الألوف من الرجال... لم يعد لدينا وقت نضيّعه... سوف نبدأ بتدريبك... وفي اليوم المعيّن تصبح الجنرال مونتغمري.

طبيعيّ أنّه لم يكن من مجال لمناقشة هذا الأمر...

لم يبقَ أمام كليفتون جيمس إلاّ أن يحني رأسه للأوامر... فراح يصغي باحترام إلى تعليمات الكولونيل التي تقتضي السريّة التامّة. فهو يستطيع أن يختلق لزوجته أيّ قصّة يريدها، أمّا الحقيقة فيجب أن تبقى سرًّا. وطلب إليه أن يختفي لبعض الوقت وأن ينقطع عن أصحابه القدماء.

جرى كلّ شيء كما كان يتمنّاه الكولونيل. فودّع كليفتون جيمس زوجته وداعًا حارًّا... وبعد مدّة من التمرين قضاها في وزارة الحربيّة، ارتدى ثياب رقيب في مصلحة الاستخبارات لأنّه بهذا الزيّ يستطيع أن يقترب من الجنرال مونتغمري كما يحلو له. وفي صباح اليوم التالي لارتدائه هذا الثوب، اقتيد إلى "بورتسموث" حيث سنحت له الفرصة بدرس مونتغمري عن كثب. فراقب كلّ حركة من حركاته، وحفظ لهجته وصوته... وبقي بضعة أيّام يولي هذا العمل انتباهه التامّ، لأنّه كان يعي

المسؤوليّة المترتّبة عليه، بعد أن أوضح له أنّه باتقانه هذا الدور، يساهم مساهمة فعّالة في النصر النهائيّ...

بعد مدّة قصيرة، كان عليه أن يتبع الجنرال مونتغمري إلى كورسيكا. وفي هذه المرّة دخل مكتب القائد الكبير، وكانت دهشة الرجلين عظيمة عندما وقفا وجهًا لوجه... وقد قال جيمس في ما بعد:

"شعرت بأنّي أقف أمام المرآة"...

ودارت بينهما محادثة طويلة، فكان الممثّل يستوعب كلّ كلمة من كلمات القائد. قال له مونتغمري:

- إنّ المسؤوليّة التي تقع على عاتقك كبيرة جدًّا... فهل أنت على ثقة من نفسك؟

وتردّد جيمس في الجواب، فأضاف الجنرال:

- إنّي متأكّد أنّ كلّ شيء سيتمّ على ما يرام، وأنّك ستلعب دورك بإتقان.

وسرعان ما انتهت مدّة المراقبة، وحفظ جيمس الدور تمامًا، ولم يبق إلاّ أن تُقدّم التمثيليّة.

إرتدى كليفتون جيمس بزّة الجنرال التي فُصّلت خصيّصًا من أجله، ونظر إلى نفسه في المرآة فأعجبته قامته. ومع ذلك فقد كان ينقصه شيء هامّ: سلسلة ساعة، حيث كان مونتغمري يعلّق سلسلة في جيب صدرته، فأسرع ضابط إلى السوق واشترى له هذه السلسلة التي لم يزد ثمنها على نصف كورن... ولم يكن جيمس يحمل ساعة جيب يعلّقها بالسلسلة، فاكتفى بأن علّق في طرفها مبراة صغيرة وضعها في جيب صدرته الصغيرة، وكان يأمل ألاّ يسأله أحد عن الوقت...

بقي أمر هامّ كان يجب أن تُبذل له عناية خاصّة: فكان الممثّل قد خسر في الحرب العالميّة الأولى الإصبع الوسطى من يده اليمنى، وكان يمكنه أن يخفي هذا العيب بأن يلبس قفازًا، ولكن مونتغمري لا يستعمل القفازات، فصنعوا له إصبعًا علّقوه بيده برباط خفيّ... ولم ينسوا أن يعطوه عدّة مناديل طُرّزت فوقها الحروف .B.M.L، وأوصوه بأن يرميها هنا وهناك أمام أنوف الجواسيس.

ما أن تمّ تنكّره على هذا الشكل حتّى قادوه إلى المطار، وهناك أدّت له التحيّة شلّة من الجند، وخفقت القلوب فخرًا لبطل بريطانيا العظيم.

وجد كليفتون جيمس في الطائرة الجنرال "هيود"، وكان هذا القائد مكلّفًا بأن يتبع الممثّل خطوة خطوة، ليساعده عند الحاجة، وليجنّبه ارتكاب الأخطاء.

بعد انقضاء بضع ساعات، وصل المسافرون إلى جبل طارق، وكان حاكم القلعة "السير رالف إستوود"، صديق مونتغمري، قد أحيط علمًا بالأمر. وهبطت الطائرة، فخرج كليفتون جيمس منها، وحيّا بكلّ ارتياح الضبّاط الذين هرعوا إلى استقباله. وحين التقى الجنرال إستوود، لم يستطع هذا الأخير أن يخفي دهشته أمام صورة صديقه مونتغمري الحيّة.

وقال الحاكم لاحقًا: ـ لقد عرفت صديقي طوال سنين عديدة، ولكنّني لبعض لحظات، ظننت أنّه غيّر خطّطه وقرّر أن يحضر هو بنفسه...

أصبح من الواجب الآن أن نصل إلى الغاية الحقيقيّة التي بُذل من أجلها هذا الجهد كلّه، وهي تضليل الألمان عن نوايا عدوّهم الحقيقيّ.

تطلّع جيمس من النافذة، فرأى رجلاً رابضًا على أحد السطوح، وبيده آلة يوجّهها نحوه، فاضطرب...

هل ينوون أن يقتلوا في شخصه قائد القوى البريطانيّة؟

وأخيرًا تنهّد ارتياحًا عندما ثبت له أنّ تلك الآلة التي أخافته، إنّما هي منظار يوجّهه نحوه أحد الفضوليّين.

كانت المقابلة الأولى ناجحة تمامًا، ولكنّ اللعبة الحقيقيّة لم تكن قد بدأت بعد...

بعد بضعة أيّام استقبل السير "رالف" والليدي "إستوود" خطيبين قالا إنّهما من إسبانيا، وقد أُخرج هذا المشهد باعتناء...

ففي الوقت الذي سيصل فيه الخطيبان، كان السير رالف وضيفه الشهير يتنزّهان، وهما يتحدّثان بصوت مرتفع في حديقة قصر الحاكم الجميلة. وراح مونتغمري المزيّف يدلي لصديقه بتفصيلات عن الخطّة "٣٠٣" التي اخترعها من أجل هذه المناسبة. ولمّا لاحظ السير رالف الخطيبين، أخذ بيد صديقه ليفهمه أنّه يجب أن ينقطع عن الحديث. فسكت الجنرال المزيّف فجأة وعبس، كأنّما وصول الغريبين المفاجئ أثّر فيه حقيقة. ومع ذلك تمّ التعاون وبدأت المحادثة عن أشياء عاديّة...

إكتفى الجنرال المزيّف بأن يلقي بعض عبارات مبهمة عن الحرب، ولم ينسَ أن يتعمد لهجة مونتغمري في الحديث، وكان واقفًا وهو يتكلّم ويداه معقودتان وراء ظهره ليخفي إصبعه المقطوعة والمرمّمة. وبعد بضع دقائق نظر إلى السماء وقال:

- أرجو أن يبقى الطقس حسنًا، إذ ما زال أمامي ساعات طويلة من الطيران...

ثمّ حيّا الغريبين وانصرف، فظنّ هذان أنّهما تحدّثا إلى مونتغمري بالذات. والأهمّ من ذلك أنّهما اعتقدا أنّ مونتغمري سيقوم بجولة في الشرق الأوسط لكي يهيّء هجومًا في المناطق البعيدة، فنقلا معلوماتهما هذه على الفور...

كان الجواب على هذه المعلومات أن تلقّى جواسيس الألمان الذين كانوا يعملون في الخارج من مصلحة الجاسوسيّة برقيّة جاء فيها:

"إكتشفوا طبيعة الخطّة ٣٠٢ مهما كان الثمن".

ووُزّعت أوامر أخرى للعمل على إسقاط طائرة مونتغمري.

ركب كليفتون جيمس الطائرة بعد بضع ساعات، واتّجه نحو الجزائر، ولم يكن يفكّر كثيرًا في ما يعترضه من أخطار. والحقيقة أنّه لم يكن عرضة للكثير منها. إذ إنّ هتلر، في اللحظة الأخيرة، قرّر أن لا يتعرّض للقائد البريطانيّ ما دام يجهل كلّ شيء عن خططه...

في المطار، شعر شبيه مونتغمري أنّه محاط بالجواسيس من جديد. ولكنّه كان على ثقة بنفسه... فقد ناقش ضبّاطه في مسائل عدّة، ولم ينسَ أن يذكر الخطّة ٣٠٠٣، وكان الجواسيس يصدّقون كلامه...

دارت اللعبة نفسها في أفريقيا الشماليّة... فقد استقبل القائد ضبّاط فرنسيّون وأميركيّون وبريطانيّون فحيّاهم برقّة، ولكنّه لم يكن يجهل أنّ بعض الجواسيس يمكن أن يختفوا تحت هذه الثياب.

كانت مصلحة الاستخبارات قد اكتشفت جاسوسًا ألمانيًا تخفّى تحت إسم فرنسيّ معروف جيّدًا في الأوساط العسكريّة... غير أنّ مصلحة مقاومة الجاسوسيّة لم تلق القبض عليه، بل تركته يقترب من مونتغمري المزيّف، وقُدّم للجنرال باسمه الفرنسيّ، وبدأ الحديث...

كان على كليفتون جيمس أن يستعين بكلّ قواه أثناء هذه المقابلة. فبينما كان يقوم بدوره على أكمل وجه، لاحظ أنّ يد محدّثه اليمنى في جيبه... وتساءل: ألن يشهر

الجاسوس مسدّسه ويطلق عليه النار؟... إنّه ليس مغريًا دائمًا أن يكون المرء بديلاً لمونتغمري... ولم يحدث شيء لحسن الحظّ... وتمكّن كليفتون جيمس من متابعة رحلته...

تحدّث جيمس في ما بعد عن هذا القسم من الرحلة فقال:

"إنطلقت الدرّاجات الناريّة الأربع عشرة بسرعة البرق، ولن أنسى طوال حياتي هذا السباق نحو مدينة الجزائر. وكان الأميركيّون الذين أوكل إليهم أمر حراستي قد أحيطوا علمًا بمحاولة لاغتيالي، وإذا نجحت هذه المحاولة وقُتلت، فلن يمنعهم شيء من المحاكمة أمام المجلس الحربيّ. ولم يكن لديهم قوّات كافية لتؤمّن الحراسة في طريق طولها عشرون كيلومترًا، فانطلقوا بهذه السرعة الجنونيّة حرصًا على حياتي"...

زار كليفتون جيمس مدنًا عديدة في أفريقيا الشماليّة، وكان يعرف دائمًا أنّه محاط بالجواسيس. وكان يودّ لو ينطلق على سجيّته عندما يلتقي بنساء جميلات، فيطلبن إليه أن يهديهنّ صوراه مذيّلة بتوقيعه. وقد حرصت مصلحة الاستخبارات في الواقع على أن توزّع صور مونتغمري المزيّف، ولكن كليفتون جيمس كان يجيب المعجبات بخشونة، لأنّه يعلم أنّ مونتغمري لا يبدو أبدًا لطيفًا مع السيّدات اللواتي لا يعرفهنّ.

بعد جولة، وصل كليفتون جيمس إلى مقرّ القيادة العامّة في الجزائر، وقد انطلت هذه الخدعة على الجميع.

عندما انتهت مهمّة الممثّل عند هذا الحدّ، فإنّه أُرسل إلى القاهرة، وحُظّر عليه أن يظهر إلى العلن. ومرّت أسابيع على إقامته في تلك المدينة، بدت له مدّة طويلة جدًّا، واعتقد أنّ رؤساءه قد نسوه. ولمّا أعادوه إلى وطنه، سُرّ كثيرًا بلقاء زوجته... أمّا في فرقته، فقد أخذوا ينظرون إليه بازدراء... إذ انتشر أثناء غيابه خبر سجنه في برج

لندن بتهمة الخيانة... وفي الوقت الذي ستضع فيه الحرب أوزارها، سيستطيع كليفتون جيمس أن يشرح لأصحابه سبب اختفائه الفجائيّ... ولكنّه وجد صعوبة كبيرة في العودة إلى شخصيّته الحقيقيّة، ويقي الممثّل سنوات طويلة يقلّد مونتغمري، بدون إرادة منه... وكان الناس يرونه مارًّا فيخلطون دائمًا بينه وبين مونتغمري.

قالت لكليفتون جيمس زوجته ذات يوم:

ـ هل تعرف دكّان بائع التبغ الذي يقع عند منعطف الشارع، بالقرب من محطّة الأوتوبيس؟

فأجاب: نعم.

ـ لقد دخلت الحانوت في هذا الصباح، قالت الزوجة، وسألته عن الساعة فأجابني: "إنّها الساعة الحادية عشرة والنصف. وأنا متأكّد من أنّ ساعتي مضبوطة. لأنّني أضبطها دائمًا كلّما مرّ مونتغمري في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين، في طريقه ليركب الأوتوبيس"!

قد يُدهش هذا البائع بالطبع إذا قيل له إنّ الشخص الذي يظنّه مونتغمري ليس سوى ممثّل ممتاز، تابع لمصلحة الاستخبارات في الجيش البريطانيّ[٢]...

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، ص١٩٧ ـ ٢٠٤.

اللورد هَاو هَاو... متمرّد مغرورٌ حَقيرٌ ودنيء!

"ويليام جويس"، إنّه خائن، أجبروه على السير، وسيهتمّون بأمره.

هذا ما كان يتردّد على شفاه بعض العسكريّين البريطانيّين المتحلّقين حول إحدى عربات نقل الجرحى العائدة للصليب الأحمر الدوليّ، عندما توقّفت مساء أحد الأيّام الأخيرة لشهر أيّار - مايو ١٩٤٥، على مقربة من القيادة العامّة للجيش في "لينبورغ".

كان يتمدّد على إحدى ناقلات الجرحى لعربة الإسعاف رجل مربوع القامة تحيط به الأغطية، تشوّه وجهه بندبة جرح تمتدّ من أذنه اليمنى حتّى زاوية فمه الدقيق والحادّ.

إنّه ويليام جويس، الذي اشتهر باسم اللورد هاو هاو، ذلك اللقب الذي منحه إيّاه الشعب الإنكليزي بسبب أسلوبه المتصنّع السمج الذي كان يتحدّث به من إذاعة ألمانيا النازيّة.

وتبعًا لتفاوت تمسّك العسكريّين بأسس الانضباط، فقد كانت حدّة تعليقات الجنود تزداد أو تنقص في استقبال جويس صاحب الصوت الساخر الذي كان يعلن نداء ألمانيا، وهو الذي أصبح صوته مألوفًا عند عدد كبير من المستمعين، طوال سنوات الحرب التي كان يحاول أثناءها باستمرار تقويض الروح المعنويّة للشعب الإنكليزيّ عن طريق الكذب والسباب والتهويل والخداع عبر موجات الأثير. وقد خانه ذلك الصوت الساخر قبل يومين فقط عندما قفز رجل من الغابة أمام ضابطين بريطانيّين

وهما يسيران عبر طريق من طرق الغابة المتاخمة للحدود الألمانيّة ـ الدنماركيّة، وكلّمهما بالإنكليزيّة، وعندئذ صرخ أحد الضابطين:

ـ إنّه هاو هاو... هذا القذر الوضيع... رجل مذياع غوبلز.

وقام الضابطان باستجوابه. فمدّ جويس يده إلى جيبه كما لو كان يريد استخراج مسدّس منه، ومن المؤكّد أنّه أسيء فهم هذه الحركة، ذلك أنّ جويس لم يكن مسلّحًا، وإنّما أدخل يده إلى جيبه ليستخرج منها جوازًا ألمانيًا يحمل إسم "وليام هانسن"، ذلك الإسم الذي حمله منذ عام ١٩٤٠، بعد أن اكتسب الجنسيّة الألمانيّة. وبما أنّه لم يكن لدى الضابطين أيّ استعداد لأيّ مجازفة مع تلك الشخصيّة، فقد سارع أحدهما إلى إطلاق النار، محدثًا جرحًا في إلية جويس قبل أن يتمكّن هذا الأخير من سحب يده من جيبه.

كان أوّل ما سمعه عندما وصل إلى لينبورغ، تلك الصرخات التي صدرت عن الجنود، إلى أن تمّ حمله بعد ذلك إلى خارج عربة الإسعاف حيث وقعت عيناه على تلك النظرات التي تفيض بالحقد. عندئذٍ، اتّخذ الخائن والدعائي في إذاعة هامبورغ هيئة الازدراء التي حملت إليه سخرية واحتقار بريطانيا بأكملها، وقال بصوت متعجرف، وهو ينظر إلى الجنود نظرات تدلّ بوضوح على أنّه كان يعتبرهم كما لو كانوا متشرّدين أغبياء:

ـ إنّهم لا يسمحون في البلاد المتحضّرة بترك رجل جريح عرضة للنظرات الفضوليّة...

تلك كانت اللوحة الأولى في المشهد... أمّا المنظر الحقيقيّ فإنّه لم يبدأ الأ في "أولد بيلي"، مجلس القضاء في لندن، بعد ذلك بأربعة أشهر، عندما صدر الحكم

بالخيانة العظمى على ويليــام جويـس، الطـالب السـابق فـي المعـاهد الملكيّـة فـي لنـدن، والإنكليزي الفاشي سابقًا. وقد تمّ الكشف عن سيرة ويليام جويس أمــام محكمـة يرأسـها القاضي "توكر"، وتضمّ نخبة رائعـة مـن الخـبراء، بينهـم السـير "هـارتلي شـوكروس"، والسيّد "ديريك كورنيس بينيشار" مستشار البلاط.

إنّه متمرّد مغرور، حقير ودنيء نتيجة للعمل الذي أراده في سوق النازيّة، مدفوعًا إلى ذلك بحقده على إنكلترا...

إنّه تاريخ للخيانة والغدر تجاه بلد تفيّأ بظلاله عام ١٩٢١، عندمـا وصـل الجزيـرة البريطانيّة قادمًا، حسبما يقال، من إيرلندا. أمّا الواقع فهو أنّ ذلـك الرجـل الـذي عُـرف باللورد هاو هاو وُلد عام ١٩٠٦ في بروكلين من أعمال الولايات المتّحدة الأميركيّة.

كـان ويليـام جويـس ذا نفسيّـة حـاقدة، كمـا كـان فـي حـرب مسـتمرّة مـع التقــاليد والعادات، أو ما يُسمّى بثبات النظام الاجتماعيّ. وكان يُفـرغ حقده العدائـيّ باتّبـاع مـا يسمّونه سياسـة الشـارع... وبعد أن انتسـب إلـى جامعـة المعـاهد الملكيّـة، انضـمّ إلـى "الاتّحاد الفاشي البريطاني" الذي كان يوجهه السير "وولد موسكي"، وأصبح مـن أوائـل الخطباء لحركة "ذوي القمصان السوداء".

في أثناء أحد الاجتماعات التي كانت تُعقد في فندق المدينـة فـي "لامبيـت"، أصيـب ويليام جويس بضربة من موس للحلاقة... تلك الضربة التي تركت أثرها ندبـة كريهـة تشوّه الجانب الأيمن من وجهه.

كان الصنم الحقيقيّ الذي يتعبّده ويليام جويس في الواقع، هو آدولف هتـلر، بـاعث الرايخ الثالث الجديد، الذي كـان يجـد فيـه أحـلام الطمـوح والقدرة، فـلا عجـب إذا مـا أصبحت ألمانيا ما قبل الحرب موطنه الروحيّ.

صرّح ويليام جويس كذبًا بأنّه من مواليد "غالوي" في إيرلندا، وبأنّه نتيجة لذلك، فهو من أهالي بريطانيا، وهذا ما مكّنه من حيازة جواز سفر إنكليزيّ، أعطاه الفرصة ليسافر اعتبارًا من عام ١٩٣٣ عدّة مرّات إلى "فاتيرلاند" قبل أن يتمكّن من دراسة أساليب الفوهرر في موضعها على أرض ألمانيا.

في ٢٤ آب ـ أغسطس ١٩٣٩، قام ويليام جويس بتجديد جواز سفره للمرّة الثانية. وبعد ذلك بقليل، سافر إلى ألمانيا بعد أن حزم أمره وقرّر عدم العودة إلى بريطانيا نهائيًّا. وصرّح أمام أحد ضبّاط الاستخبارات الإنكليزيّة الذي كان يستجوبه أثناء إقامته في مستشفى لامبورغ، وذلك بعد اعتقاله بعدّة أيّام، بأنّه عندما اتّخذ قراره بمغادرة إنكلترا إلى ألمانيا لم يكن يسعى وراء أيّ مغنم مادّي، إنّما كان مدفوعًا بتأثير مفاهيمه السياسيّة. وكان ممّا قاله:

"بما أنّني كنت قرّرت أثناء تلك المدّة العصيبة أنّ أحيد عن شرف خدمة إنكلترا، فقد توصّلت إلى النتيجة المنطقيّة في أنّه لم يعد لي الحقّ في أن أعود إلى بريطانيا بإرادتي الخاصّة، وأنّه من المفضّل أن أطلب الجنسيّة الألمانيّة لكي أقيم في ألمانيا بصورة نهائيّة."

ولكن في الواقع، فإنّ إسم ويليام جويس كان مدرجًا بين الأسماء التي تضمّنتها القوائم التي كان يقوم هتلر بتزويدها بالمال. فمنذ عام ١٩٣٧، وبعد أن انفصل عن "موسلي" وتشرّد أعضاء الحزب الفاشي، أصبح جويس عميلاً من عملاء النازيّة، وعلى علاقة وثيقة بإحدى شبكات الجاسوسيّة التي كان يقوم على توجيهها مكتب سرّي في لندن.

كانت هذه الشبكة تضمّ أكثر من ثلاثماية عميل مزدوج، جميعهم يحمل أسماء رمزيّة، ومصنّف حسب الأحرف الهجائيّة، كان هؤلاء يتخاطبون بالنصوص

الرمزيّة... وهذا ما مكّنهم من التأكّد من شخصيّات بعضهم البعض. وكانت الشبكة على اتّصال دائم بأعضاء السفارة الألمانيّة التي كانت تقيم في ذلك التاريخ في "كارلتون هاوس تيراس" على مقربة من وزارة الحربيّة البريطانيّة.

أُذيع بعض الدقائق عن أعمال ويليام جويس في شبكة التجسّس هذه منذ عام ١٩٤١، على أثر التقارير التي عملت على تقديمها فتاة ممثّلة كانت قد انتسبت كعميلة سريّة إلى الشبكة ثم انفصلت عن المنظّمة. وكان سبب انفصالها هو ما بدأت تشعر به من شكوك راودتها حول الأهداف الحقيقيّة لتلك المنظّمة. وقد صرّحت الممثّلة السينمائيّة الناشئة أمام رجال الصحافة بقولها:

"عندما انتسبت للعمل معهم، لم يكن لديّ أيّ فكرة عن خيانة جويس ورفاقه. فقد قيل لي إنّ البلاد تتعرّض للخطر بحيث جعلوني أتوهّم في البداية أنّ روسيا هي الدولة التي يجب الحذر منها".

كان التبرير الذي قدّموه لتلك الفتاة الشابّة هو أنّ المنظّمة ترغب في جمع المعلومات للتأكّد من إمكانات الدفاع عن الوطن، ولمواجهة التطوّرات العاجلة. وقد بدا لها ذلك غريبًا ومبهجًا، وصرّحت آنئذ بأنّه "لأمر مفرح حقًّا أن يزاول الإنسان عملاً فيه الكثير من المغامرات"...

أُعطيت الفتاة إسمًا رمزيًّا كي تستخدمه في ما إذا كان لديها من التقارير الخطيّة ما يتوجّب عليها إرساله. وكان كلّ حرف بالأبجديّة يتمثّل بحرف رمزيّ، كما بولغ في إفهامها بضرورة المحافظة على السرّ بشكل مطلق، وحُذّرت من أنّ أيّ خطأ تقع فيه أثناء مزاولتها لعملها كعميلة سريّة سيضطرّ المنظّمة إلى فصلها. وقد تمّ تكريسها للعمل بشكل دقيق للغاية بحيث لفتتها دوّامة هذه الأعمال الجديدة تمامًا بشكل أصبحت معه غير قادرة على التساؤل لمصلحة من تجازف! ولماذا تقوم بعملها!...

لو تمكّنت هذه الفتاة البريئة من إدراك حقيقة عملها منذ البداية، لعرفت أيّ حيلة خُدعت بها وأيّ هوّة انزلقت إليها ... ومن هنا أدرك رجال الشرطة ورجال المباحث البريطانيّة أهميّة هذه الزاوية المهملة في أعمالهم.

لم يكن العمل بحدّ ذاته مثيرًا، بقدر ما كان الجوّ المحيط به غامضًا. وهذا ما جعل تلك الفتاة تعيش جوّ المغامرة التي كانت تطالعها في الكتب وتتعرّف أكثر فأكثر على الحيل الشبيهة بتلك الأدوار الصغيرة التي تعمل فيها عند إنتاج الأفلام السينمائيّة. وكان ممّا قالته تلك الفتاة:

"كانت التعليمات غالبًا ما تصلني بطريقة غريبة. ففي ذات مساء، وبعد أن تناولت العشاء في أحد مطاعم الطرف الغربيّ من لندن، وجدت بطاقة عُلّقت على معطفي الذي كنت قد تركته في غرفة المعاطف. وكان مضمون الرسالة يطلب منّي الذهاب والانتظار أمام مخرج إحدى دور السينما في وقت محدّد. وقد تأكّدت أنّ جويس على اتّصال بعدد من المستخدمين الذين يعملون في فنادق الطرف الغربيّ من لندن. ووصلت دار السينما في الموعد المحدّد حيث سلّمني رجل رسالة لأحملها إلى سيّدة في أحد فنادق الطرف الغربيّ".

إعترفت الفتاة أثناء حديثها بأنّها التقت بذات الرجل عددًا من المرّات بعد ذلك، وعرفت أنّه ألمانيّ الجنسيّة.

وفي مرّة أخرى طُلب من تلك الفتاة الحصول على معلومات عن أحد المطارات الجديدة للقوّات الجويّة الملكيّة، إذا كان ذلك بمقدورها. وصرّحت أمام رجال الصحافة فقالت بالضبط: "لقد ضايقني ذلك الطلب وأزعجني، لأنّني لا أحمل في نفسي أيّ شعور عدائيّ لبريطانيا، وقد وجدت أنّهم ذهبوا بي بعيدًا وخشيت أن يذهبوا بي إلى أبعد من ذلك فيطلبوا منّي الحصول على معلومات تزيد على حدود مطار جديد"...

علمت الفتاة بعد ذلك بقليل أنّ جويس وشركاءه على اتّصال وثيق مع بعض أعضاء السفارة الألمانيّة، وأنّ من عاداتهم الاجتماع في دار سيّدة تتصرّف ظاهريًا وكأنّها من نبيلات العائلات الإيطاليّة.

تأكّدت شكوك الفتاة أخيرًا عندما اكتشفت أنّ ويليام جويس نازيّ صميم، وأنّه ينتظر بفارغ الصبر وصول ذلك اليوم الذي يتمكّن فيه هتلر من فتح بريطانيا والتغلّب عليها. واعترفت الفتاة فقالت:

"عندئذ أدركت ذلك الخطأ الفادح الذي وقعت فيه، فقرّرت أن أقطع فورًا كلّ اتّصال مع ويليام جويس وزمرته. ولحسن الحظّ، فقد توقّفت عن الاستمرار معهم في الوقت المناسب، فالحمد لله".

ذهب ويليام جويس بعد ذلك بقليل إلى ألمانيا، وكان يتخيّل عندئذٍ أنّها ستكون سفرة بلا عودة، أو على الأقلّ حتّى يأتي ذلك اليوم الذي تصبح فيه أعلام الصليب المعقوف خفّاقة ظافرة فوق مباني قصر باكينغهام والوايت هول. ولكنّ تلك الرحلة في الواقع كانت بداية الطريق الذي أوصله إلى حبل المشنقة.

لم يُعرف الشيء الكثير عن حياة ويليام جويس في ألمانيا بعدَ أن وصلها من إنكلترا وحتّى أصبح عاملاً في الإذاعة الألمانيّة كدعائي رئيسيّ للإذاعة باللغة الإنكليزيّة، وكانت زوجته الثانية ترافقه عندما غادر إنكلترا عام ١٩٣٩. وكانت هذه السيّدة تفيض نشاطًا وحيويّة، ذات لون أسمر جميل، تزوّجها جويس بعد أن افترق عن زوجته الأولى عام ١٩٣٦، بعد أن كانت قد أنجبت ابنتين. وكانت الزوجة الثانية تعمل موظّفة في وزارة الإعلام الألمانيّة، وتنحصر مهمّتها في تصحيح النصوص الإنكليزيّة قبل تقديمها لتُذاع على الهواء. وكانت هي المسؤولة، على ما يبدو، عن أكثر التفاهات الصادرة عن هاو هاو. وهي التي عملت على إذاعة تلك النشرة عبر الأثير، التي

ذكرت فيها أنّه تمّ تدمير قاعدتين إنكليزيّتين ساحليّتين هما "دوفر" و"فولكستون". وكان لا بدّ لذلك الخبر الكاذب والمستحيل تصديقه من أن يعكس أثره على وجه الخائن، عندما وقف وجهًا لوجه مع أخصامه الذين يحاكمونه على جريمته أمام المحكمة الرئيسيّة المنعقدة في أولد بيلي للنظر في المواضيع الجنائيّة.

هرب ويليام جويس وزوجته من هامبورغ قبل وصول الدبّابات الإنكليزيّة إليها بساعات قليلة، واتّجها شمالاً حتّى وصلا أخيرًا إلى "فايسنبورغ" على مقربة من الحدود الدانمركيّة. وكان من المحتمل تمامًا أن يتمكّنا من الفرار والنجاة من قبضة الاعتقال لولا أن وقعت مشادّة بين الزوجين وارتفع صراخ الرجل الذي كان صوته معروفًا ومألوفًا على آذان العسكريّين البريطانيّين. وفي الواقع، أنّه إثر تلك المناقشة الحادّة، غادر جويس مباشرة المنزل الذي كان التجأ إليه في "موفر موهلل" للقيام بنزهة في الغابات بغية إراحة أعصابه المشدودة، ووجد ذاته على حين غرّة وجهًا لوجه أمام الضابطين البريطانيّين، وهما من ضبّاط الاستخبارات في الجيش المدرّع الملكيّ، وكانت الرصاصة التي انطلقت من مسدّس الملازم "بيري" هي التي أصابت ويليام جويس في إليته.

أمّا زوجته السيّدة جويس، فقد تمّ اعتقالها بعد زوجها بوقت قصير. وعُثر في حقائبها الثلاثة على عدد من الوثائق المتعلّقة بالزوجين، مع دفتر مذكّرات وحوالى مئة وخمسين صورة فوتوغرافيّة للجنود الألمان من الوحدات التي كانت تقيم في "كوربودا" بألمانيا.

كانت السيّدة جويس تحمل في أصابعها أربعة خواتم، وقد سُحبت هذه الخواتم منها لا سيّما وأنّ أحدها يحمل حجرًا كبيرًا، وذلك خشية أن يكون محتويًا على السمّ. وقد أجبرها الضابط الذي كان يعمل على استجوابها على تسليم سوارها الذي كانت تحتفظ

به، لأنّه كان ذا طرف قاطع يمكن استخدامه إذا أرادت إيذاء نفسها. كما قامت سيّدة من ضبّاط مصلحة الصحّة بتفتيشها تفتيشًا داخليًّا دقيقًا، فلم يُعثر على أيّ شيء قد تتمكّن من استخدامه إذا ما رغبت بالانتحار.

تمّ استخراج الرصاصة من إلية ويليام جويس، ثمّ نُقل هذا المتمرّد الذي يكره إنكلترا إلى لندن، كسجين وضيع حقير، وذلك بانتظار استجوابه حول جريمة الخيانة العظمى، ولذا لم يتحقّق حلمه في العودة ظافرًا في أذيال القوّات الألمانيّة النازيّة...

لقد ثارت الإنفعالات نفسها التي كانت في صدور الجنود عندما أحاطوا به حول سيّارة الإسعاف في لينبورغ مرّة أخرى في نفوس المواطنين البريطانيّين، ولكن بقوّة تزيد مئات المرّات عن السابق.

كان الجمهور المتدافع يحتشد ليحيط ببناء المحكمة في مبنى أولد بيلي عند انعقاد المحكمة في يومها الأول، والشعور بالحقد يطفح منه.

لقد شاهد قفص الاتّهام، أمام المحكمة المركزيّة للجرائم والجنايات في لندن، عددًا كبيرًا من الأشخاص الفاسدين والمجرمين، ولكنّه ربّما لم يشهد أبدًا في ما سبق متّهمًا اكتسب ذلك المقدار من الكراهية والحقد يماثل ما حصل عليه اللورد هاو هاو، ذلك الخائن الذي كان يتراقص ويضحك وراء المذياع بينما كانت لندن طعمًا للحريق والدمار.

عند بدء المحاكمة، أقرّت محكمة البلد "الذي غمره باحتقاره" حقّ المساعدة المشروعة، تلك المساعدة التي تمنحها عادة المحكمة لكلّ سجين يعجز عن القيام بالنفقات الماليّة للدفاع عن نفسه. فتمّ تعيين ثلاثة من أقوى المحامين في المملكة المتّحدة للدفاع عن ويليام جويس وهم: "جيم بورغ"، واثنان من مستشاري البلاط هما

"ج. أو. سيلاد"، و"ديريك كورتي بينيت". وكان أمر تكليف هذه المجموعة من المحامين يتطلّب نفقات باهظة حتّى لو كانت الدعوى مدنيّة. ومن المؤكّد بعد ذلك أن شعور ويليام جويس قد غمره الفرح والامتنان لما قام به هؤلاء الخبراء من الخدمات في تلك الدعوى.

أجاب ويليام جويس على اتّهامات نوّاب الحقّ العامّ الثلاثة بأنّه غير مذنب، بينما كان يرتدي ثيابه الأنيقة ذات اللون الأزرق الفاتح. أمّا نبرات صوته فكانت تختلف عن تلك النبرات التي كان يستخدمها عندما كان يتكلّم من خلف أجهزة الإذاعة الألمانيّة. ولم تقابَل إجابته هذه بأيّ بادرة من بوادر السخرية... ولكنّ ملامح الذعر ارتسمت على وجهه عندما بدأ يستمع إلى النائب العامّ السيّد "هارتلي كروس" وهو يعرض أعماله على مسمع من وزارة الأمور العامّة:

ـ حضرة رئيس محامي الدفاع،

أوّلاً: كان من واجب ويليام جويس أن يكون وفيًّا ومطيعًا للملك، ولكنّه تعاون مع أعداء الملك أثناء إقامته في ألمانيا وقام بإذاعة النصوص الألمانيّة المعادية في الحقبة الواقعة بين ١٨ أيلول ـ سبتمبر ١٩٣٩ و٢٩ أيّار ـ مايو ١٩٤٥.

ثانيًا: إنّ ويليام جويس متّهم بالتحالف مع أعداء الملك وذلك بتاريخ ٢٦ أيلول ـ سبتمبر ١٩٤٠، عندما استبدل جنسيّته بالجنسيّة الألمانيّة.

أمّا الاتّهام الثالث فكان مماثلاً للاتّهام الأوّل في ما عدا بعض التعديل في تاريخ وقوع الحوادث المحصورة بين ١٨ أيلول ـ سبتمبر ١٩٣٩ و٢ تمّوز ـ يوليو ١٩٤٠. وباختصار، فقد كان الاتّهام يرتكز على مبدأ ثابت هو أنّ جويس، وهو مواطن بريطانيّ، قد وضع نفسه تحت تصرّف النازيّين في أثناء حربهم ضدّ إنكلترا.

لقد أراد الدفاع دفع الاتّهام، فذكر أنّ جويس أميركيّ، وأنّ أباه إيرلندي، وأمّه إنكليزيّة...

لقد أثار هذا الدفاع معركة في أصول إجراءات الدعوى خلال مدّة، تمكّن خلالها أعضاء المحكمة من الإمساك بأنفسهم المبهورة لمشاهدة هذه المحاكمة المثيرة.

حسم الموقف "هارولد غودرين"، الضابط المساعد في مصلحة الجوازات عندما جلس في منصّة الشهود، وصرّح أمام النائب العامّ بأنّ ويليام جويس كان قد تقدّم بطلب تجديد سفره قبل إعلان الحرب بزمن قصير.

وقال السيّد "هارتلي" وهو يُبرز وثيقة الشهادة:

ـ أنظروا، أليست هذه الورقة هي نموذج لطلب تجديد جوازات السفر؟ وأومأ غودرين برأسه علامة الموافقة.

عندئذٍ، تابع السير هارتلي، فقال بصوت هادئ ونبرات واضحة:

ـ إسمعوا إذن المحتوى الذي تضمّنته هذه الوثيقة:

"إنّني أُقرّ وأعترف أنا المدعو ويليام جويس والمقيم حاليًا بالبناء رقم ٣٨ شارع أيردلي كريسنت في القطاع الجنوبي الغربي الخامس من لندن بأنّني أطلب وجاهيًا تجديد جواز سفري البريطاني رقم ١٢٩٤٣ الذي كنت قد تسلّمته في لندن بتاريخ السادس من شهر تمّوز ـ يوليو ١٩٣٣ بمدّة أخرى مدّتها عام واحد، وأصرّح بأنّني من مواليد بريطانيا ورعاياها، وإنّني لم أفقد هذه الجنسيّة، وإنّ كافّة هذه المعلومات التي ذكرتها في هذا التصريح هي صحيحة وثابتة".

وأجاب غودرين:

ـ نعم، هذا هو النصّ فعلاً.

ـ وهل يحمل هذا التصريح توقيع ويليام جويس؟

ـ نعم، هوذا!

ـ هل تاريخه ٢٤ آب ـ أغسطس ١٩٣٩؟

ـ نعم.

ـ هل تمّ تجديد الجواز حتّى أوّل تمّوز ـ يوليو ١٩٤٠؟

وقال هارولد غودرين: نعم... حصلت الموافقة وتمّ تجديد الجواز.

وبذلك قوّض النائب العامّ الدفوع الرئيسيّة في أقوال الدفاع، ثمّ قام باستدعاء الشاهد الثاني، وهو "ألبرت هنت"، مفتّش المباحث للفرع الخاصّ في سكوتلانديارد الجديد، الذي قام بالإدلاء بشهادته بعد أن أخذ مكانه في منصّة الشهود، وأكّد أنّ جويس كان قد دخل في خدمة المنظّمات النازيّة منذ ١٨ أيلول ـ سبتمبر ١٩٣٩، عندما احتلّ مكانه كمذيع للأنباء الإنكليزيّة. وصرّح هنت بأنّه سمع صوت السجين لأوّل مرّة قبل الحرب العالميّة الثانية مباشرة عندما وقف ويليام جويس يخطب كعضو في الاتّحاد الفاشيّ البريطانيّ أمام جمع عامّ في لندن. ولذا كان المفتّش يعرف تمامًا لهجة صوته التي استمع إليها خلال عدد من المرّات عندما كان يلقي ويليام جويس خطابه على الجماهير. وسأله السيّد هارتلي:

ـ وهل كنت في الخدمة في "فولكستون" بتاريخ الثالث من شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٣٩؟

ـ نعم... كنت هناك.

ـ بين هذا التاريخ وتاريخ العاشر من كانون الأوّل ـ ديسمبر، ترى، هل استمعت إلى إحدى الإذاعات وشعرت بصدمة خاصّة عندما استمعت إلى لهجتها؟...

ـ نعم. إنّني أذكر ذلك جيّدًا. لقد استمعت إلى إذاعة وعرفت أنّ الصوت الذي أسمعه هو صوت ويليام جويس حتمًا، وذلك عندما كان يذكر أنّه قد تمّ تدمير فولكستون ودوفر.

ـ شكرًا أيّها السيّد المفتّش...

وأعاد السير هارتلي وضع الشعر المستعار الذي يحمله فوق رأسه، والمتدلّي على كتفيه بشكل مناسب، بينما كان ذلك الرجل القابع في قفص الاتّهام يعضّ بأسنانه على شفتيه، في حين ارتمت زوجته التافهة التي سمحت بمرور ذلك النصّ وإذاعته على ظهرها لأنّها مكّنت النائب العام، بالإفادة من تلك النقطة الحاسمة في قرار الاتّهام.

لم يترك السير هارتلي ذلك الموضوع يمرّ من دون تعليق عندما وقف أخيرًا أمام رئيس المحكمة والمحلّفين ليقول:

ـ إنّه لمن المؤكّد بأنّ تصريح ويليام جويس الذي ذكر فيه أنّه قد تمّ تدمير كلّ من دوفر وفولكستون تصريح لا أهميّة له، ولا يترك أيّ أثر في نفوس أولئك المقيمين في إنكلترا. ولكنّ نتائج ذلك تبدو خطيرة أثناء سير العمليّات الحربيّة في نفوس الوحدات الإنكليزيّة المقاتلة خارج الوطن وفي المناطق التي يستطيعون فيها الاستماع إلى محطّات الدعاية النازيّة، وكذلك أولئك الذين لا يستطيعون الحصول على معلومات دقيقة عمّا يجري داخل البلاد.

بذل الدفاع قصارى جهده ليدعم وضع السجين ويدافع عنه، فوقف السيّد ج. أو. سيلاد وبدأ قوله ذاكرًا أنّ جويس لو أراد اكتساب الجمهور ليستمع إلى إذاعته بانتظام لما بدأ بتلك الأكذوبة الكبيرة التي لا يصدّقها عقل من عقول المستمعين الذين بإمكانهم أن يتأكّدوا من صحّة الأنباء بعد مدّة لا تزيد على ثماني وأربعين ساعة من إذاعتها...

واستمرّ السيّد سيلاد في دفاعه مدّعيًا أنّ ويليام جويس رجل أجنبيّ على كلّ حـال، وليس على الأجنبيّ واجب الطاعة للتاج إلاّ عندما يكون في حماية التـاج، وإنّ حيازتـه جواز سفر بريطـانيّ لا يجبره بأيّ حال من الأحـوال علـى إطاعـة التـاج البريطـانيّ... على الأقلّ في تلك الحقبة التي كان يقيم أثناءها في ألمانيا.

لم يكن هذا الدفاع إلاّ محاولة لإنقاذ الموقف. وفي اليوم الثالث مـن أيّـام المحاكمـة أعلن رئيس المحكمة أمام المحلّفين وهو يرتدي ثوبه الأحمر أنّ واجب الطاعة والوفـاء للتاج كان مفروضًا على ويليام جويس. وقد كان لزامًا عليه أن يتقيّد بذلك طـوال المدّة التي كان يحمل فيها جواز سفره البريطانيّ...

لم يتغيّب المحلّفون أكثر من ثلاث وعشرين دقيقة، عندما عادوا وأعلنوا أن ويليـام جويس مذنب، وهكذا صدر الحكم عليه بالإعدام شنقًا حتّـى المـوت، وقـد رُفض طلب الرحمة الذي بعث به جويس إلى المحكمة أوّلاً ثمّ إلى مجلس اللوردات ثانيًا.

وأخيرًا تمّ تنفيذ الحكم بتاريخ ٣ كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٤٣[١].

١ ـ سنجر كيرت، أعلام الجاسوسيّة العالميّة، ترجمة بسّام العسلي، دار اليقظة العربيّة (بيروت،١٩٦٥) ص٢٢١ ـ ٢٣٣؛ زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، ص٢٠٥ ـ ٢٢٢.

مؤامرة الـ MI-5 ضدّ هارولد ويلسون

تعرّض الإنكليز لفشل ذريع عندما فقدوا رباطة جأشهم عام ١٩٨٦، وذلك لدى اندلاع وظهور قضيّة شديدة التعقيد... هؤلاء الإنكليز الذين اعتادوا على الفضائح الكثيرة التعقيد والفروع...

بدأ كلّ شيء كما كان عليه أن يبدأ، من خلال النسخة الثانية من فيلم بوليسي دارت أحداثه في Le Carré. كان هناك إفشاء للأسرار أدّى إلى صدور مذكّرات "بيتر رايت"، وهو الذي ترأس لمدّة قصيرة مخابرات شبكة مقاومة التجسّس البريطانيّة، باعتبار أنّه كان يدير مقاطعة الولايات الداخليّة Department D التابع للـ MI-5، وكان هناك تحت إمرته ثلاثون جنديًّا يعملون بقيادته.

من المعلومات التي كان يحتويها هذا الكتاب، تلك المتعلّقة باتّهام واحد من زملاء الكاتب السابقين في العمل، هو السير "روجر هوليس"، بأنّه عميل سرّي يتعامل مع الاتّحاد السوفياتي. وهو ذاك الذي تسلّم إدارة الـ MI-5 بين عامي ١٩٥٦ و١٩٦٥، وتوفّي عام ١٩٧٣.

وهكذا فقد ظلّ البريطانيّون بعيدين عن خدع وأوهام إحكام السدّ في المخابرات السوفياتيّة. وأصبحت تفاصيل خيانات "كيم فيلبي" و"جي بورغيس" و"دونالد ماكلين" و"أنطوني بلانت"، من الآن فصاعدًا، منتشرة على الصعيد العام، كما أصبحت العاصمة لندن بأكملها، تعلم بوجود "جواسيس متخفّين" آخرين يختفون في أوساط إدارة الاستخبارات البريطانيّة، من بينهم "سير روجر هوليس"،

وهكذا لم تعد اتّهامات "بيتر رايت" جديدة أو حسّاسة... وهذا يعني أنّ الكتاب يتطرّق لقضايا هامّة، لأنّه يبدو أنّه وصل إلى حدّ اتّهام رئيسة الوزراء البريطانيّة "مارغريت تاتشر"...

بذلك أصبح بيتر رايت متحفّظًا على أسرار كثيرة، وظلّ حتّى زمن تقاعده عام ١٩٧٦ مكلّفًا بملاحقة جواسيس الـ KGB المتخفّين داخل الـ MI-5، عاملاً ضمن مكتبه في المقرّ العام لوكالة شبكة مقاومة التجسّس، في "ليكونفيد هاوس"، ثمّ في "غورستريت" مباشرة إلى جانب مكتب الـMI-5 العام.

كانت تدور في ذهن "بيتر رايت" فكرة جيّدة تكمن في تصميمه على مغادرة ضباب لندن للذهاب إلى سماء "تاسماني" الأكثر نقاء. وبذلك لم نكن لنسمع باسمه على الأطلاق لولا قراره بتأليف ونشر مذكّراته.

قرّر رايت بمنتهى الحذر إعطاء مخطوطه هذا إلى محرّر أسترالي وتوكيل مهمّة النشر إليه، إذ كان يعرف تمامًا تصميم موظّفه السابق المذهل على تحقيق أمر ما، وخاصّة في حال تعلّق الأمر بمنع نشر أيّ معلومة تخصّ المخابرات السريّة لصاحبة الجلالة. ولكن هذا المسؤول السابق في الـMI-5 قام بتعريض نفسه لتهوّر حتميّ خطير، وهو اعتقاده الخاطئ بأنّه سيكون بمنأى عن ممارسة أيّ ضغط عليه، وذلك في حال نشره هذه المذكّرات خارج أراضي المملكة المتّحدة. في حين تقدّمت حكومة مارغريت تاتشر مباشرة بشكوى ضدّه أمام المحكمة الأستراليّة، وذلك بهدف منع نشر هذه المذكّرات... ليأتي في ما بعد إلغاء القضيّة في الخريف، وهذا ما سيذهل البريطانيّين أنفسهم.

وهكذا بدأت الصحف البريطانيّة اليوميّة برواية العديد من الحكايات والشائعات، وخاصّة عندما أخذت الجلسات تصبح سريّة... في حين كانت تبدو محاولة تاتشر

لتحقيق رغبة واحدة فقط وهي منع نشر ما يحتويه هذا الكتاب بأيّ ثمن... ولكن لمَ هذا الإصرار؟ لم يكن، بالتأكيد، في سبيل حماية مذكّرات "سير روجر هوليس"...

تمّ استنتاج أنّ هذه القضيّة كانت، في واقع الأمر، مشابهة في محتواها للدمى الروسيّة، التي تحتوي الدمية الأولى فيها على الثانية، التي تخبّئ هي أيضًا دمية ثالثة وهكذا... إذ لم يكن أمرًا عاديًّا رؤية مسؤول رفيع المنصب في شبكة مقاومة التجسّس يوجّه أصابع الاتّهام إلى رئيسه بالتعامل مع العدو... بل لا بدّ من أن يكون هناك شيء آخر... وإنّ هذا الشيء الآخر هو حتمًا أشدّ خطورة بالنسبة للـMI-5، ممّا كان يدور في ذهن العميل السوفياتي.

كان كتاب بيتر رايت هذا يحتوي، على سبيل المثال، على كشف لقضيّة عاديّة نوعًا ما، إسمها الرمزي "البرتقالة الميكانيكيّة الثانية"، وهو مستوحى من كتاب "بورغيس" الذي يحمل عنوان "أنطوني، هذا هو"، ولكن يبدو أنّ تفاصيل العمليّة مستوحاة، بكلّ صدق، من رواية "أورويل" التي تحمل إسم "جورج"...

ظلّ الإنكليز لمدّة طويلة لا يعلمون شيئًا عن كتاب بيتر رايت، إلاّ عنوانه فقط "صائد الجواسيس". ويعود السبب في ذلك إلى أنّ الحكومة البريطانيّة تعتبر هذا المخطوط بمثابة سرّ يكشف عن قوّة ومصير الدفاع الوطنيّ. لذا ها هي الصحف تحاول متابعة جلسات القضيّة الأستراليّة ولكن دون جدوى. ذلك لقيام المحكمة بتحويل الجلسات العلنيّة إلى سريّة، في كلّ مرّة تبدأ فيها الاعترافات الهامّة والخطيرة العلنيّة. ولم يكن هناك في بريطانيا أيّ شخص يخاطر بنفسه من خلال مواجهة حكومة المحافظين على أرضهم. ولا بدّ من القول هنا إنّه لا يمكن العبث مع "التصرّفات الرسميّة السريّة" التي وعدت بتطبيق أقصى العقوبات بالسجن على كلّ موظّف يقدّم معلومات خاصّة بالإدارة العامّة. في حين كانت الصحف اليوميّة، مثل صحيفة

الإندبندنت التي كانت تحاول تحريك قانون الصمت هذا، تقدّم للمحاكمة وتتعرّض للعقوبة بشكل منتظم، ممّا دفع هذه الصحيفة، التي تمتلك العديد من نسخ مخطوط رايت، إلى إيثار إحراق هذه النسخ مقابل عدم إيداعها في أحد الصناديق الحديديّة.

إلاّ أنّه أمكن معرفة الكثير عن هذا الكتاب، من خلال نائب حزب العمّال في "وركينغتون" وهو "كامبيل سافورس"، إذ كان الأعضاء النبلاء في البرلمان البريطاني يتمتّعون بحقّ الإدلاء بكلّ ما يريدون خلال الجلسات في مجلس العموم، لذا قام كامبيل الساعة ١٧٠٢٧ من الحادي والعشرين من شهر تمّوز ـ يوليو ١٩٨٦ بتقديم حجّة تطرح موضوع تعديل اقترحته حكومة تاتشر ليظهر للجميع محتوى كتاب "صائد الجواسيس".

نجد لدى الرجوع إلى الملخّص الرسمي لمناقشات البرلمان البريطاني، أنّ نائب حزب العمّال لم يعط التفاصيل كاملة. غير أنّه تمّ التوصّل، في واقع الأمر، من خلاله، إلى معلومة تفيد بإخفاء الـMI-5 الميكروفونات داخل سفارتي كلّ من فرنسا وجمهوريّة ألمانيا الاتّحاديّة في لندن، إضافة إلى القيام أيضًا بإخفاء إرسالات مستقبلة خلف آلات ترميز الشيفرة التابعة لكلّ من سفارتي اليونان وإندونيسيا. كما قامت الـMI-5 بتسجيل المحاضرات الدبلوماسيّة في "لانكستر هاوس" خلال الفترة الواقعة ما بين الخمسينات والستّينات، والمحادثات الخاصّة باستقلال "زمبابواي" التي جرت خلال عام ١٩٧٩.

كما جاء على لسان كامبيل سافورس تورّط الـMI-5 في محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر أثناء أحداث السويس، وتحدّث هذا النائب أيضًا عن القيام بتنفيذ مجزرة العديد من قطعان الغنم، وذلك بحجّة إيجاد مصل سموم جديد. كما طرح مشكلة استخدام العقاقير كالـ LSD في بعض عمليّات الاستجواب...

كان كامبيل يعتقد باحتمال وجود تفاصيل عديدة ضمن كتاب رايت، تفاصيل حول علاقات الـ MI-5 مع أجهزة الاستخبارات الأميركيّة الـ CIA والـ NSA والـ FBI، وحول وجود سلسلة من الحكايات الهامّة التي تتحدّث عن النشاطات غير القانونيّة وغير الشرعيّة للـ MI-5، منها وضع ميكروفونات التجسّس داخل غرفة "خروتشيف" في "كلاريدج" أثناء زيارته إلى بريطانيا العظمى، وفتح بعض الرسائل الدبلوماسيّة وصناعة بعض الصفائح المزوّرة الخاصّة بالمعادن...

لم يكن بالإمكان منع انتشار القصص المختلفة المثيرة للمشاعر التي رواها كامبيل سافورس علنيًّا، ما أثبت نشاط وفعاليّة عمل الـ MI-5 وحثّ الحكومة على التحرّك... وها هو يلاحظ محاولة مارغريت تاتشر فرض سيطرتها على المحاكم الأستراليّة للتكتّم والتعتيم على قضيّة "هوليس"، التي قد كشف النقاب عنها منذ عامين لدى ورود ذكرها في كتاب "شامبان بينشر" الذي يحمل عنوان "الخيانة تجارتهم". إضافة إلى أنّ مصدر هذا الكتاب لم يكن إلاّ بيتر رايت نفسه. كما اعترف بينشر، في ما بعد، بأنّه هو الذي أعطى رخصة الطباعة لكتابه، الصادرة عن الـ MI-5.

ظلّ هناك قضيّة واحدة، من بين جميع القضايا التي كشف عنها نائب حزب العمّال، وهي تلك المشتبه بأنّها أثارت غضب نوّاب حزب المحافظين وحنق رجال الـ MI-5... إنّها عمليّة التهديم التي تعرّضت لها حكومة "ويلسون" من قبل المخابرات السريّة التابعة لصاحبة الجلالة، وخلال الفترة الواقعة بين العامين ١٩٧٤ و١٩٧٦... إضافة إلى العمليّة المسمّاة "البرتقالة الميكانيكيّة رقم ٢".

ظلّت الأسباب التي دفعت بالـ MI-5 إلى محاولة إحداث انقلاب في حكومة "هارولد ويلسون" العمّاليّة غامضة ومجهولة... ويبدو أنّ السبب في ذلك يعود إلى قيام رئيس قسم شبكة مقاومة التجسّس في وكالة المخابرات الأميركيّة CIA "جيمس

جيزوس أنكيلتون" ببثّ معلومة إلـى زمـلاء هـارولد ويلسـون البريطـانيّين فـي تورّطـه بالعمل كجاسوس متخفٍّ تابع للـ KGB، وأخذ يدعم أقواله ويثبّتها من خلال استناده إلى تصريحـات جاسـوس متخفٍّ حقير هو المـايجور "أنـاتولي غوليتسـين"، الجنـدي فـي المديريّة الأولى التابعة للمخابرات السوفياتيّة KGB.

قام غوليتسين بالاشتراك بـالعديد مـن العمليّـات المتنوّعـة المنفّذة ضدّ دول حلـف الناتو. كانت الفكرة التي تراوده بمنتهـى البسـاطة، وهـي تسـرّب الـ KGB إلـى جميـع الحكومات الغربيّة! وهذا ما تطلّب بالتأكيد إيجاد عمليّات صيد حقيقيّة لجاسوس متخـفٍّ في جسم الحكومات الأوروبيّة المختلفة. إذ ها هو غولتسين يتيـح المجـال فـي فرنسـا، لاعتقال جندي يعمل لصالح حلف النـاتو والمخـابرات السـوفياتيّة KGB، وإلـى ظهـور وجود شبكة "سـابفير Sapphir". وقـد ادّعـى الجاسـوس أيضـًا وجـود واحـد مـن وزراء حكومة الجنـرال شـارل ديغـول الفرنسيّة يعمـل كعميـل لصـالح المخـابرات السـوفياتيّة KGB... والأكثر من ذلك، هو ذهاب جون كينيدي إلى حدّ الكتابة إلى الجنرال ديغـول ليخبره عن تواجد عميل سوفياتيّ يعمل مع استخباراته... ولكن يبدو أن لا جـدوى مـن هذا العمل، إذ إنّ إلقاء القبض على الجاسوس المتخفّي بين ممـرّات الإيليزيـه، لـم يكـن بعيدًا أبدًا عن حكايات وشائعات الفضائح...

أمّا في إنكلترا، فقد لاقت تصريحـات وادّعـاءات غولتسين نتـائج أفضـل. إذ إنّ الـMI-5 أخذت مباشرة الاتّهامات الموجّهة إلى هارولد ويلسون على محمل الجدّ، حيث قام أنكيلتون آنذاك برواية حكاية لا تصدّق، وذلك بهدف لفت النظر لروايته ولتصديـق هذه الحكاية، حيث اعتبر غوليتسين طرفًا في عمليّـة يـراد تنفيذهـا مـن قبـل القسـم ١٣ التابع للمخابرات السوفياتيّة KGB، وذلك لانشغاله بعمليّات القتل ولتواجـد الهـدف لديـه في القضاء على مسؤول أوروبّي سياسـي رفيـع المسـتوى بهـدف استبداله بواحـد مـن

رجاله، وهكذا لم تكن الضحيّة إلاّ "هوف غيتسكيل" الذي توفّي نتيجة إصابته بمرض مستعص ونادر هو "لوبوس ديسيمينات Lupus Disseminate" عام ١٩٦٣، وبعد سفره إلى موسكو. في حين لم يكن الرجل الذي حلّ مكان رجل موسكو، حسب ما ورد على لسان أنكيلتون، إلاّ هارولد ويلسون، الذي خلف غيتسكيل، في ترؤّسه لحزب العمّال! كما وادّعى أنكيلتون في هذه القضايا وجود مصدر آخر للمعلومات غير مصدره، هو ذاك المعروف باسم الشيفرة الرمزي "واتشيف"، الذي وجّه الاتّهام أيضًا إلى هارولد ويلسون في تعامله مع المخابرات السوفياتيّة KGB.

خلال الستّينات، بعد الاعترافات التي أدلى بها غوليتسين والأوامر التي فرضها أنكيلتون، نظّم جهاز الـ MI-5 أوّل مؤامرة يحوكها ضدّ هارولد ويلسون، حيث أخذت مجموعات من رجال الأعمال تجتمع برئاسة واحد من أقطاب الصحافة هو "سيسل كينغ"، بهدف إزاحة المسؤول في حزب العمّال هارولد ويلسون، وقد طلب هؤلاء المتآمرون من نائب ملك بلاد الهند السابق "لورد ماونتباتن" الاجتماع معهم، ولكن لم يلق طلبهم أيّ ردّ. لذا قاموا بالتعامل، في معركتهم هذه، مع صحف مجموعة "ميرور Mirror"، التابعة لسيسيل كينغ. ولكن لم يمنع كلّ ذلك من إعادة انتخاب هارولد ويلسون رئيسًا لوزراء بريطانيا مرّة ثانية خلال عام ١٩٧٤.

قرّرت الـ MI-5، عندئذ، استخدام كلّ الأساليب التي لديها للانتصار على ويلسون، والإيقاع به، مع المحافظة، ظاهريًّا، على موافقة مدير شبكة مقاومة التجسّس البريطانيّة السير ميشيل هانلي، وبذلك لم يعد الشكّ والريب يردان في مثل هذه الحال، والسبب هو أنّ "هانلي" هذا، كان متّهمًا هو أيضًا، خلال الستّينات، ومن خلال اعترافات أدلى بها جاسوس بولونيّ، أنّه جاسوس متخفّ يتعامل مع المخابرات السوفياتيّة KGB.

وهكذا اجتمع كبار المسؤولين العاملين في الـMI-5 بعد مرور مدّة قصيرة على انتخاب ويلسون، وذلك بهدف مواجهة الاجراءات الواجب اتّخاذها. واشترك معهم في هذا الاجتماع بيتر رايت، الذي يعمل بمنصب المدير المساعد، في حين رفض اللورد "فيكتور روتشيلد" الانضمام إلى صفوف المتآمرين، بعد نصائح المقرّبين له بالابتعاد عن هذا العمل، والجدير بالذكر أنّ روتشيلد عمل خلال الحرب العالميّة الثانية لصالح الـ MI-5، ثمّ أتمّ عمله في الـ MI-6 في كلّ من الصين وإيران.

كان هناك ٣٠ جنديًّا من الـ MI-5 يشتركون مع مجموعة من المسؤولين يعمل قسم منهم على التحقيق والتدقيق في ماضي رئيس وزرائهم، وخاصّة في تلك الحقبة التي كان يعمل خلالها لصالح شركة "مونتاك ماير"، المكلّفة باستيراد طوابع الدول الشرقيّة إلى بريطانيا العظمى. في حين انكبّت كبرى جهود عملاء الـ MI-5 على شنّ حملة متكررة من تضليل المعلومات بحيث لم تنظّم أيّ مخابرات سريّة حملة مشابهة ضدّ رئيس حكومتها!

هذا وقام اثنان من الكتّاب البريطانيّين هما "ستيفن دورويل" و"روبين رامساي" بإعادة صياغة عشر من الحكايات المزيّفة التي اختلقتها الـ MI-5 والمتعلّقة بالحديث عن ويلسون ومحيطه وحكومته من حزب العمّال، وذلك بالاستناد إلى شهادة "كولين ولاس" الجندي الجديد ذي المنصب العالي، والعامل مع استخبارات الجيش البريطاني في شمال إيرلندا والمسؤول عن عمليّات الحرب النفسيّة. .

توجّهت وكالة الـ MI-5، بادئ الأمر، إلى السكرتيرة الشخصيّة لويلسون، "مارسيا ويليامس"، التي كان عندها طفلان غير شرعيّين، وأثارت شبكة مقاومة التجسّس شائعات تفيد بأنّ والد هذين الطفلين لم يكن سوى هارولد ويلسون نفسه. لذا قامت مباشرة بنشر نسخ عن شهادات الولادة المزوّرة الخاصّة بالطفلين، في جميع أنحاء

لندن. وساهم "أندرو روث" من خلال كتابه "يوركشاير وولتر ميتي" في إيصال هذه الشائعات إلى أعداء مارسيا وليامس بين مجموعة البرلمانيّين الممثّلين لحزب العمّال. وقد اعتقد كلّ من دوريل وراسي أنّ "الأعداء" المقصودين هنا، لم يكونوا إلاّ شخصًا واحدًا هو "جورج ويكز". كانت مارسيا وليامز قد اتّخذت مكانها كمستشارة أولى لويلسون، في حين لم يخفِ ويكز، الذي يقال إنّه مقرّب من الـ MI-5 حقده وكرهه لمن جاء بعده.

يبدو أنّه أصبح لدى مارسيا وليامس، التي أصبحت في ما بعد "الليدي فاولكيندر"، طفلان توأمان، وذلك خلال فترة عملها مع ويلسون... ولم تكن مارسيا، خلال تلك الفترة، قد تزوّجت بعد. إضافة إلى أنّ والد الطفلين، وهو صحافي يعمل في صحيفة الديلي مايل، لم يكن قد حصل بعد على الطلاق من زوجته الأولى، ممّا جعل الأمر صعبًا جدًّا بالنسبة لها... لذا كانت تبذل ما بوسعها لإخفاء وجود هذين الطفلين، وبمساعدة المحيطين برئيس الوزراء، ممّا أتاح المجال أمام الـ MI-5 إلى إشاعة نسب هذين الطفلين السريّين لهارولد ويلسون.

أشاعت الـ MI-5، بعد ذلك، الاعتقاد باحتمال قيام هارولد ويلسون بإجراء تحقيق أمني حول ماضي سكرتيرته باعتبار أنّها كانت عميلة شيوعيّة. كما تابعت مخابرات شبكة مقاومة التجسّس البريطانيّة نشر شائعاتها وتوجيه اتّهاماتها، وذلك من خلال إشاعة قصّة تروي أنّ منازل رئيس الوزراء تضمّ خليّة خاصّة بالمخابرات السوفياتيّة KGB... تلك القصّة التي لم تنشر أبدًا على صفحات الجرائد البريطانيّة، ولكنّها انتشرت، حسب ما ورد في روايات دوريل ورامساي، بصورة سريعة ضمن جميع أوساط الصحافة وحزب المحافظين، وخاصّة بين المقرّبين من الـ MI-5. وها هي الحكاية تروى، على سبيل المثال، من خلال الصحافي "شانبان بينشر" أثناء جلوسه في

إحدى الأمسيات مع الكاتب القصصي "مارتين جيلبرت" الذي توجّه مباشرة لإخبار هارولد ويلسون بالقصّة... ثمّ ها هي مصادر مقرّبة من الـ MI-5 والـ MI-6 تعلم، بعد مرور عدّة أشهر، بأنّ المخابرات السريّة "تمتلك أدلّة وبراهين دامغة تفيد بوجود خليّة شيوعيّة في ١٠ داونينغ ستريت، أنشأها كلّ من رئيس الوزراء ومارسيا وليامس، بالتعاون مع وزراء آخرين من حزب العمّال، والعنوان المعطى هو مكان إقامة رئيس الوزراء الرسميّة".

كما صرّح الجنرال "سير وولتر وولكر" من جهته قائلاً بمنتهى الجديّة: "إنّ لديّ أفلامًا للقاءات جرت مع هارولد ويلسون لدى عودته من زيارات رسميّة قام بها إلى الاتّحاد السوفياتي، وكان ويلسون يرتجف بشكل ظاهر جدًّا"... ويفسّر سير وولتر ما يراه في ارتعاشات ويلسون التعيس تلك، بأنّها دليل واضح على أنّه كان "متّهمًا بطريقة أو بأخرى" من قبل المخابرات السوفياتيّة KGB.

وذهبت وكالة الـ MI-5 في سبيل إثبات ودعم فكرتها، إلى حدّ ذكر إسم مراقب ويلسون من قبل السوفيات، آنذاك، وهو "ديك فايكسكاس" القنصل السوفياتي العام في لندن، والكولونيل في المخابرات السوفياتيّة KGB. كما ذكرت الـ MI-5، لدعم اتّهاماتها وإثباتها شهادات جاسوس سوفياتي هو "أوليغ ليالين"، الجاسوس البريطاني المتخفّي المتواجد داخل السفارة السوفياتيّة، منذ سنوات عديدة، الذي تباهى القنصل العام "ديك فايكسكاس" بإقامة علاقة مباشرة مع الـ ١٠ داونينغ ستريت... من خلال صناعي صاحب معمل نسيج يدعى "جوزيف كاكان"... في حين كانت الحقيقة أبسط من ذلك بكثير، إذ تمّ التعارف بين اليهودي الليتواني "جوزيف كاكان" وديك فايكوسكاس، الذي اعتاد اللعب معه بالشطرنج والتحدّث عن وطنه الأمّ. أمّا بالنسبة لكاكان، فقد كان مقرّبًا أيضًا من ويلسون، وقامت الـ MI-5 بالتحقيق طويلاً في أمره، ولكن من دون جدوى.

وبالتالي فلم تستطع محكمة صاحبة الجلالة التقرّب من كاكان، إلاّ من خلال تهريب رؤوس أموال...

وأخيرًا، اتّهمت الـ MI-5 ويلسون والمحيطين به بتورّطهم في قضايا الفساد، لإظهار الحكاية على أكمل صورة، حيث تمّ اتّهام وزراء حزب العمّال، ظلمًا، بالتزوير، في حين اتُّهم رئيس حزب العمّال نفسه "إدوارت شورت" باقتراضه حسابًا من بنك وهمي موجود في سويسرا.

***

كانت عمليّة "البرتقالة الميكانيكيّة رقم ٢" تتطلّب بالضرورة إحاطة مؤكّدة من قبل الأخصّائيّين في الـ MI-5، وذلك في حال التعامل معها على أساس أنّها واحدة من عمليّات الحرب النفسيّة، أي على غرار العمليّات السابقة التابعة لشبكة مقاومة التجسّس في شمال إيرلندا. لذا فمن غير المستغرب أبدًا العلم بأنّ أماكن إقامة ويلسون والمحيطين به تخضع لعدد لا يحصى من الزيارات السريّة مع حدوث عمليّات سرقات وكسر وسطو... ترُى هل هناك حاجة للإشارة إلى أنّه كان على هارولد ويلسون الذي كان يشغل، آنذاك، منصب رئيس الوزراء البريطانيّ أن يخضع، بشكل رئيسيّ، لحماية نفس الـ MI-5 التي شنّت عليه هجومًا في الأقاويل والشائعات؟... ها هو ويلسون يحصي بنفسه، حسب ما ورد في شهادة نشرتها اللجنة الملكيّة الخاصّة بالصحافة: "هناك ثماني عمليّات سطو في أماكن عمل محاسبيّ ومحاميَّ الخاصّ وسكرتيرتي"...

في حين تمّ أيضًا إحصاء وجود سبع عمليّات سطو حدثت بين أعضاء مجلس وزرائه، إثنتان منهما حدثتا في منزل مارسيا وليامس، واثنتان أخريان في منزل ويلسون القرويّ الخاصّ في "بوكينغهامشاير"، ومكتب عقود شبكة التلفزة "يوركشاير" المسمّاة YTV، حدثت جميع هذه العمليّات بعد مرور أسبوع واحد فقط على إعلان

برنامج لقاءات هارولد ويلسون الذي أجراه "ديفيد فروست". وقامت الـ MI-5 أيضًا بوضع ميكروفونات داخل جميع أماكن اجتماعات المقرّبين من ويلسون، إضافة إلى مراقبة بريده ومحادثاته الهاتفيّة...

وهنا يمكن التساؤل: إلى أين ستذهب غيرة مخابرات شبكة مقاومة التجسّس في ما إذا كانوا قد تعرّضوا لخطر وضع رئيس الوزراء البريطاني تحت المراقبة والتنصّت؟ قد لا يكون الأمر مستحيلاً... إذ إنّ المخابرات السريّة التي تحاول تشويش سمعة وزير من خلال توريطه في قضيّة أخلاقيّة، كما فعلت الـ MI-5 مع "طوني بين"، قادرة تمامًا على القيام بأشياء مماثلة.

أدّت عمليّة "البرتقالة الميكانيكيّة رقم ٢" منذ عام ١٩٧٤ إلى تشكيل مجموعات شبه عسكريّة، عُرفت بالتسمية العسكريّة باسم "وطنيّات"، خاصّة أنّه كان هناك اثنتان منها تتمتّعان بحقّ إعطاء العناوين إلى كبرى الصحف وهي الـ GB-72 التي أسّسها "ديفيد ستيرلينغ" مؤسّس مجموعات فصيلة الكوماندوس المسلّحة ذائعة الصيت SAS، خلال الحرب، والمساعد المدني للجنرال "سير وولتر وولكر"؛ أمّا مهمّة هذه المجموعات فهي "إجراء عمل ما في حال تواجدها بحالة معيّنة لا يكون فيها هناك أيّ وجود للحكومة البرلمانيّة لاتّخاذ الإجراءات الحيويّة اللازمة". وهكذا فقد ذكرت صحيفة التايمز في لندن، ضمن العدد الصادر بتاريخ ٣١ أب ـ أغسطس ١٩٧٤ وجود أربعين مجموعة مسلّحة من هذا الطراز. تُرى هل تتواجد هذه المجموعات تواجدًا فقط؟ يمكن التحدّث هنا، حسب ما ورد على لسان كلّ من "دوريل ورامساي" عن تواجد عمليّة أخرى خاصّة بالحرب النفسيّة وتقوم على أساس جعل الناس يعتقدون بانهيار الحالتين الاقتصاديّة والاجتماعيّة للبلاد وذلك بهدف تأييد وجود الميليشيات السريّة. والسبب هو ترك الـ MI-5 تصغي، خلال تلك

الفترة، إلى حكومة ويلسون في تواجد حقيقيّ لمثل هذه القوى التي تهدّد بالتدخّل ضدّه في أيّ وقت...

ومع ذلك، لم تكن هذه الفصائل المسلّحة المتخفّية تمثّل أيّ خطر حقيقيّ. وهكذا فقد كانت الـ GB-75، التي أسّسها ستيرلينغ، تعمل لصالح عضو واحد فقط هو بائع أسلحة "جيرسي"، المدعو "جيوفري إدوارد"، الذي قام بكتابة مؤلّفَين اثنين من مذكّراته تحدّث فيهما عن "مغادرة" أعضاء سرّيّين للمنظّمة لإدارة الـ GB-75، بانتظار موعد الانتخابات في شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٤. هذا ولم يعد يُسمع شيء حول هذه الميليشيا منذ ذلك التاريخ.

في حين ظهرت المجموعة شبه العسكريّة الثانية، لأوّل مرّة، في الثامن والعشرين من آب ـ أغسطس ١٩٧٤، وتمّ تأسيسها بتحريض من الـ MI-5، وترأس المجموعة سير وولتر وولكر، ومساعده الكولونيل "روبير بوتلر".

كان السير وولتر من المعتادين على موضوع الأسلحة الخاصّة، وذلك باعتبار أنّه قام، قبل زمن قصير، بتأسيس مجموعة Unison. كما اعترف بتسلّمه أنواعًا مختلفة من الدعم من قبل العديد من الشخصيّات، منها "اللورد ماونتباتن" والـ"فيلد ماريشال سر كلود أوشينليك"، و"الأميرال فاريل بيك"، والدوق "ويستمينيستر"، و"اللورد بويد"، في حين لم يتردّد آخرون عن وضع يدهم على هذه المجموعة وتسيير خطواتها أمثال ماريشال قوى الطيران الملكي البريطاني "سير جون سلسيور"، أو "سير ألكسندر أبيل سميث"، بينما كان المتوفّي "روس ميغفيرتر" يهتمّ فقط بالتخطيط لعمليّات المجموعة، أمّا اللورد "كايزر" فقد منح المجموعة مبلغ ١٥ ألف جنيه استرليني كمساعدة ماليّة. ويعتبر اللورد كايزر، حسب الـ P-DG من "بريتيش كومنويلث شيبينغ"، واحدًا من أهمّ المموّلين لحزب المحافظين خلال الثمانينات، إذ كان يقوم خلال عام ١٩٨٣ فقط

بتحويل ما يزيد على التسعين ألف جنيه استرليني لحزب "المرأة الحديديّة" مارغريت تاتشر. أمّا بالنسبة للأعضاء الآخرين للمساعدة المدنيّة فكانوا مجهولين تمامًا. كان "سير جون سليسور" واحدًا من مجموعة سريّة يطلق عليها إسم "لجنة المقاومة والعمليّات النفسيّة RPOC"، التي تُعتبر، في الأصل، حركة سريّة مسلّحة ضدّ الشيوعيّة. ولا ننسى أن نشير هنا أيضًا إلى قيام العميل "غوردون وينتر" من جنوب أفريقيا باتّهام اثنين من أعضاء المساعد المدني هما "روس ميغفيرتر" و"جورج كينيدي يونغ" بأنّهما من "كبار المسؤولين في الاستخبارات البريطانيّة".

لم يكن لدى وولكر ومساعده المدني أيّ فرصة في التدخّل للدفاع عن بلدهما ضدّ العدوّ الداخليّ... حيث جاء انتخاب مارغريت تاتشر ليزيل محاولات الانقلاب والعصيان. وكان السير وولكر هو أوّل من اعترف بذلك من خلال رسالة وداع كتبها وأعلن فيها عن انتهاء المساعد المدني قائلاً: "إنّ مارغريت تاتشر هي السلام بالنسبة لهذا البلد".

ويمكن التأكيد، في حال أنّنا ما زلنا نجهل الحيل المرافقة لعمليّة "البرتقالة الميكانيكيّة رقم ٢" أنّه تمّ إيجاد هذه الشبكة من خلال الـ MI-5 وأنّ اليمين الأكثر تطرّفًا لم يختف مع انتهاء حكومة ويلسون.

الجدير بالذكر أنّ وصول مارغريت تاتشر إلى السلطة، محاطة بمجموعة "حسّاسة حقًّا" لأيّ تهديد داخلي، يعتبر، من خلال بعض المراقبين، وكأنّه استمرار لهذه العمليّة رغم أنّ وصولها جاء بعد استبعاد كلّ من "إدوارد هيث" والمحافظين المعتدلين.

***

أتاحت هذه المحاولة، لما تضمّنته من إثـارة للاضطرابـات والتخريـب ومـا رافقهـا من أعمـال بعـد ذلـك، المجـال لإثبـات وإيضـاح الأعمـال والممارسـات الفرديّـة لشـبكة مقاومة التجسّس البريطانيّة، التي لم تتردّد أبدًا في معالجة بعـض مـن أسـوأ الإنقلابـات التي قامت بها وأدارتها المخابرات السريّة الغربيّة، مثل الـ Boss في جنوب أفريقيا.

قام عميل الـ "بـوس Boss" فـي لنـدن "غـوردون وينـتر" بلعـب دور هـامّ جدًّا فـي مؤامرة الـ MI-5، وذلك من خلال تكليفه بانهيار ضمان الحزب الليبرالي، وهو الحزب الوحيد الحليف لحزب العمّال.

كانت العمليّة تتحرّك، في واقع الأمر، وبدافع من الشـائعات، ضمـن إطـار الزعيم الليبرالي "جيرمي ثورب"، ولكن سيعود الحـزب البسـيط إلـى الحيـاة، مثلـه مثـل إعـادة حزب العمّال إلى إحياء عمليّة "البرتقالة الميكانيكيّة رقم ٢".

حاولت حكومتا حزب العمّال برئاسة ويلسون ثمّ كالافان اللتان شـاركتا فـي عمليّـة "البرتقالة الميكانيكيّة رقم ٢" وفي نشاط شبكات الـ MI-5، التحرّك من جديد مـن خـلال مهاجمة المنظّمات الرسميّة أو الخاصّة التي تشكّل شبكات الـ MI-5، وهكـذا قـام أفـراد حزب العمّال عام ١٩٧٧ بإغلاق كلّ من Information Policy Unit و"لجنـة عمليّـات المقاومة والمعالجة النفسيّة RPOC والـ Information Research Department - IRD التابع لمكتب الأجانب. ثمّ ها هم يقرّون، بعد مـرور سنة واحدة فقط، منـع الحصـول علـى المدخل إلـى ملفّـات الــ MI-5 الأرشيفيّة الموجـودة فـي المجموعـة الاقتصاديّــة والمتعلّقة بالاستخبارات الخاصّة الأخرى.

كان رئيس الوزراء "هارولد ويلسون" الـذي يتحـرّك بسـرعة كبـيرة، هـو أوّل مـن أعلن جماهيريًّا عن وجود بعض الانحرافـات فـي الــ MI-5، إذ كـان مـن النـادر جدًّا وجود الشجاعة لدى رئيس حكومة تخوّله انتقاد المخابرات السريّة لبلده بصورة علنيّـة.

بالمقابل، كان ثمن الانتقاء الذي دفعه هارولد ويلسون باهظًا جدًّا... إذ هو قدّم عام ١٩٧٦ استقالته وترك منصبه لـ"جيمس كالاغان".

إستمرّت هذه القصّة تعكّر الحياة السياسيّة البريطانيّة على مدى ما يقارب العام الكامل، باعتبار أنّها اندلعت في جوّ مشحون بالاضطرابات والتوتّر، وقبل عدّة أشهر من مرحلة الانتخابات التشريعيّة ـ هذا ما اتّضح من خلال العودة إلى واحدة من صحف المملكة المتّحدة اليوميّة والتي كانت تصدر في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٨٦ و١٩٨٧.

لم تكن مارغريت تاتشر، المتأكّدة من تحقيقها الفوز بالانتخابات، تخشى أبدًا، الظهور أمام الرأي العام وهي تستخدم جميع أسلحتها في المعركة القضائيّة التي لم يسبق لها مثيل، والهادفة من ورائها إلى الحصول على قرار منع نشر كتاب بيتر رايت.

ولكن ها هي الولايات المتّحدة الأميركيّة بعد أستراليا تبدأ بنشر اعترافات بيتر رايت حول المؤامرة المدبّرة ضدّ ويلسون، وذلك لدى قيام صحيفة الواشنطن بوست مع بداية شهر أيّار ـ مايو بنشر أوّل صفحة من ملخّص محتوى كتاب "صائد الجواسيس"، مع ارتباط تلك الصحيفة بقناة مؤلّفة من ٤٠٠ إذاعة راديو وصحف محليّة. ممّا دفع دار نشر هذا الكتاب إلى الإعلان عن هدفها بنشر الكتاب الممنوع.

أمّا في لندن، فقد أعيد رفع الدعوى من جديد، وذلك لدى العلم برفض مارغريت تاتشر تأسيس لجنة تحقيق، اعترض وزراء حزب العمّال السابقين على وجودها. في حين أخذت الصحف تطالب بما يمكن عمله تجاه الخوف من مارغريت تاتشر... حتّى اعتقدت صحيفة الغارديان في عددها الصادر في السادس من أيّار ـ مايو ١٩٨٧ أنّها حصلت على الإجابة التي تكمن بتوصيل تحقيق أجري حول نشاطات الـMI-5 إلى

هناك وزيرًا سابقًا، كان في ذلك الوقت عضوًا في مجلس العموم، هو، في حقيقة الأمر، عميل للمخابرات الأميركيّة CIA.

لم يكن ذلك، بدون شكّ، هو التسيّب الوحيد بالنسبة للمرأة الحديديّة، إذ هناك تحقيق جرى حول الـ MI-5 سيكشف عن قصص أخرى مثيرة للقلق أكثر من قضيّة "البرتقالة الميكانيكيّة"[1].

وهكذا فقد استمرّت محاولة حكومة مارغريت تاتشر البريطانيّة لوقف نشر الكتاب الذي وضعه الضابط السابق في جهاز "MI 5" "بيتر رايت"، الذي كان كتابه "صائد الجواسيس" يسرد تفاصيل مربكة عن جهاز الأمن البريطاني. وقد تابعت الحكومة البريطانيّة حملتها لوقف نشر الكتاب، حتّى لحقت بها هزيمة نكراء في المحاكم الأستراليّة حيث كان مقرّ دار النشر التي أصدرت كتاب رايت. بعدئذ أصبح "صائد الجواسيس" الكتاب الأكثر مبيعًا في العالم، وظهرت بريطانيا بمظهر الغباء[2].

---

١ ـ كالفي فابريسيو وشميدت أوليفر، تعريب ريمة الفوّال، التاريخ الأسود للاستخبارات السريّة، دار الجيل، (بيروت، ١٩٩٨) ص٣٠٨ ـ ٣٢٣.

٢ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، إغتيالات وأكاذيب وارتزاق، ترجمة د. محمّد معتوق، دار بيسان (بيروت،٢٠٠٠) ص٢١٦ ـ ٢١٧.

جَاسوس في القَصر المَلكي البَريطاني

أصيب الأمن البريطاني ومن ورائه المخابرات البريطانيّة بأضرار فادحة نتيجة هروب كلّ من "دونالد ماكلين" و"جاك بيرغيس" و"جورج بليك" وأهمّهم "كيم فيلبي" وغيرهم من الجواسيس المزدوجين إلى الاتّحاد السوفياتي، ومن هذه الأضرار كشف عشرات الجواسيس الذين زرعتهم المخابرات البريطانيّة والغربيّة في الكتلة الشرقيّة، وإعدام بعضهم نتيجة كشفهم، ومن ثمّ توقّف حصول المخابرات البريطانيّة على المعلومات عن الدول الشرقيّة وخاصّة الاتّحاد السوفياتي لمدّة طويلة حتّى تمكّنت المخابرات البريطانيّة والغربيّة من زرع بعض العملاء الجدد، لكنّهم لم يكونوا بأيّ حال أحسن من العملاء الذين كشفوا.

مع ذلك بقيت ثغرة في بريطانيا تتسرّب منها المعلومات إلى الاتّحاد السوفياتي، فأُثيرت الشكوك حول "السير أنطوني بلانت"، مستشار القصر الملكي في لندن، وهو بنفس الوقت مستشار الملكة إليزابيت الفنّي. ولكنّ أحدًا لم يستطع إظهار هذه الشكوك من القلب إلى العلن حتّى عام ١٩٧٩، حين قامت المخابرات البريطانيّة بتكليف القاضي "ستيفن بلوك"، وهو من القضاة البريطانيّين المتمرّسين في عملهم، بالتحقيق في هذه الشكوك.

إصطدم القاضي بلوك في كلّ مرّة كان يطلب فيها المستشار أنطوني بلانت للتحقيق معه حول الشكوك به، بصدور أوامر ملكيّة من القصر الملكي بالذات بإقفال ملفّ التحقيق. وكان يُقال تلميحًا عن القصر بأنّ سبب إقفال التحقيق بأوامر ملكيّة هو

لسدّ الطريق على الشائعات التي ستُطلق حول المستشار بلانت في ما لو خضع للتحقيق أو اعتُقل، لأنّ هذه الشائعات كانت ستخرق "حزام العفّة" الذي يحيط بأسرار العائلة المالكة البريطانيّة...

كان بعض الذين يقفون وراء أنطوني بلانت ويحبّونه عن غباء ودون علمهم أنّه يعمل قبل كلّ شيء للمخابرات السوفياتيّة، يصوّرون للملكة بأنّ "أعداء التاج البريطاني" يراهنون على انهيار الملكيّة في بريطانيا من وراء مثل هذه الادّعاءات. ولكنّ الصحف البريطانيّة التي تبحث عن الأسرار والفضائح الحقيقيّة لتقديمها إلى الملايين من القرّاء أكّدت على أنّ الملكة إليزابيت تعلم منذ عام ١٩٧٥ بنشاط مستشارها الذي كان يتّخذ من البلاط الملكي ستارة ذهبيّة يختبئ وراءها، ولكنّ الملكة لم تفعل شيئًا تجاه بلانت، لأنّها كانت مقتنعة بأنّ مستشارها فنّان يتعاطف فقط مع الفنون السوفياتيّة، وأنّ المسألة لا تتعدّى كونها "تعاطفًا وجدانيًّا" يمتلكه فنّان حيال أوضاع معيّنة. ومع ذلك حاول رجال المخابرات البريطانيّة إيجاد تفسيرات مغرضة وسيّئة ضدّه، ولكن عندما يجد ضابط المخابرات، مهما كانت رتبته، أنّ الملكة شخصيًّا تحمي مستشارها المتورّط وتنفي عنه تهمة التجسّس... فماذا يفعل؟...

من المعروف أنّ أيّ جاسوس مهما كان بارعًا في عمله ومتسترًا وراء منصبه، لا بدّ من سقوطه يومًا... ولا بدّ من أن تضع المخابرات يدها على كتفه لتدعوه للتحقيق معه... إلاّ إذا تدارك الأمر وهرب إلى البلد الذي يتجسّس لحسابه، كما فعل الجواسيس الذين فرّوا إلى الاتّحاد السوفياتي والذين جاء ذكرهم. وخير دليل على ذلك إلقاء المخابرات الألمانيّة الغربيّة القبض على الجاسوس العقيد "غونتر غيوم" الذي وصل بتجسّسه للمخابرات الألمانيّة الشرقيّة إلى مرتبة السكرتير الأوّل "مدير مكتب المستشار الألماني الغربي فيلي برانت في حينه"، الذي لم يتمكّن من الهرب فاعتُقل وهو على

رأس عمله، ممّا سبّب استقالة المستشار الألماني بالذات من منصبه الرفيع واعتزاله السياسة.

وأنطوني بلانت، الذي نحن بصدده، كان يتعامل مع نفس المخابرات البريطانيّة قديمًا، وقد استخدمته هذه المخابرات رغم معرفتها بكونه ماركسي النزعة، بل ولم يكن ماركسيًا عاديًا في جامعة كمبريدج، فقد قاد "موضة" الشيوعيّة التي تفشّت في حينه. كما أنّ المخابرات البريطانيّة التي كانت تأمل منه الكثير تغاضت عن شذوذه الجنسي. وكان بلانت قد أعلم كيم فيلبي، الذي كان يشغل منصبًا مماثلاً في المخابرات البريطانيّة عن الشكوك التي أحاطت بزميلَي الدراسة الجامعيّة جاك بيرغيس ودونالد ماكلين، ممّا جعل فيلبي ينصحهما بالهروب لكي لا يقعا في قبضة المخابرات البريطانيّة، وهكذا كان. وقد استمرّ بلانت في العمل لصالح الفرع MI-5 حتّى قبلت استقالته لينتقل للعمل "مستشارًا فنيًا" في قصر برمنغهام، وليكون عمله الإشراف على المجموعة النادرة من التحف والآثار التي كانت بحوزة الملك جورج السادس.

السبب المباشر لموافقة القصر الملكي على منحه لقب "مستشار" هو كونه مؤرّخًا فنيًا عالميًا. ومن أهمّ أعماله الفنيّة دراسات حول لوحات الفنّان "نيكولا بوسان"، ووضعه كتابًا شيّقًا عنها، دلّ على وجود تعاطف داخليّ شديد بين بلانت وبين بوسّان، صاحب الشخصيّة المليئة بالتناقضات والشكوك، عدا عن أنّه من ألمع مؤرّخي الفنّ في العالم، حتّى أنّ الجامعات الأجنبيّة كانت تعتمده كمرجع أوّل في عمليّات تقييم النظريّات والأعمال الفنيّة. وقد وُجد في بريطانيا بلد التناقضات، من يقول: "إنّ المخابرات البريطانيّة نفسها هي التي زرعت بلانت في القصر الملكي لتبقى على اطّلاع تامّ ومعرفة خبايا القصر الملكي، وإنّ هذه المخابرات كانت تعرف بأنّ بلانت يتعامل مع المخابرات السوفياتيّة بتأثير المراهقة الفكريّة، وإنّ المخابرات البريطانيّة

أيضًا عادت وأقنعته بوصل الخيوط مع موسكو وذلك بالاتّفاق مع شريكتها المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA التي تقاسمها مثل هذه الأعمال". ولكنّ بلانت الذي كان يخدم المخابرات السوفياتيّة عن عقيدة راسخة، وجد هذه الفرصة مؤاتية لأنّه كان منذ نشأته يكره الأنظمة الرأسماليّة والملكيّة خصوصًا. وبعد أن أصبح فنّانًا مرهف الحسّ زادت كراهيّته لهذه الأنظمة، ووجد في العقيدة الشيوعيّة راحة نفسه واستقرارها، فأخذ يزوّد الإنتلّجانس سرفيس، قبل استقالته، بمعلومات خاطئة سواء عن القصر أو عن العملاء السوفيات. بينما كان يزوّد المخابرات السوفياتيّة بمعلومات صحيحة، وقد رأى أنّ هذه خير وسيلة لتحطيم الملكيّة من الداخل.

الكاتب البريطانيّ الشهير "أندرو بويل" بقي سنوات طويلة وهو يتقصّى أعمال المخابرات البريطانيّة وعملاءها في الداخل والخارج، وعندما تجمّعت لديه معلومات مذهلة عن هذه المخابرات وعن كيفيّة عملها، أصدر كتابه الشهير "مناخ الخيانة" الذي كشف فيه شبكة جاسوسيّة مؤلّفة من خمسة وعشرين عميلاً وعلى رأسهم المستشار أنطوني بلانت الذي أثبت أندرو أنّه عميل للاتّحاد السوفياتي...

كان بلانت من الذكاء بحيث هيّأ نفسه لمثل هذه الفضيحة المرتقبة، فحبس نفسه في مكتبه بالقصر الملكيّ تاركًا الأمور بين يدي الملكة. عند ذلك أسقط في يد الملكة، فاستدعت مارغريت تاتشر رئيسة الوزراء وعقدت معها اجتماعًا مغلقًا توجّهت تاتشر بعده إلى مجلس العموم البريطاني الذي انعقد في جلسة مغلقة أيضًا، وصرّحت أمام الأعضاء: "إنّ السير أنطوني بلانت، المستشار الفنّي للملكة، كان يعمل لحساب المخابرات السوفياتيّة"...

بينما كانت الملكة تستمع إلى اعتراف رئيسة وزرائها بتجسّس بلانت، كانت عيناها تدمعان... ولكن هل تكفي هذه الدموع لطيّ دور الملكة في هذه القضيّة؟ لأنّه من

الثابت من التحقيق الذي جرى في ما بعد أنّ بلانت سبق أن أخبر سكرتير الملكة بعمالته للمخابرات السوفياتيّة بحكم كونه صديقًا له، وإنّ هذا السكرتير أبلغ الملكة بذلك... ومع هذا فإنّ الملكة تجاهلت الموضوع وكأنّ بلانت قد ارتكب "مخالفة سير" ولم يرتكب الخيانة بحقّ وطنه...

علم البريطانيّون من صحفهم أنّ جميع أسرارهم وأسرار ملكتهم قد ذهبت إلى المخابرات السوفياتيّة على طبق من ذهب... ومع ذلك فإنّ هذه القضيّة قد طويت بعد أن مُنح أنطوني بلانت "حصانة ملكيّة"، مثلما طويت قضايا غيره من الجواسيس العظام. ولو أنّ قضيّة مثل هذه قد حصلت في أيّ بلد آخر لدفعت نظام ذلك البلد للسقوط، ولكن في بريطانيا كم من الأمور تطوى بهذا الشكل حيث أصبح المجهول في قضيّة هذا الرجل أكثر من المعلوم. ولعلّ هذه هي المرّة الأولى التي تطرح فيها قضيّة جاسوس من هذا الحجم في حضوره، أي دون أن يكون قد فرّ مثل فيلبي أو مات مثل روجر... وأهمّ ما في هذه القصّة عن الجاسوس بلانت أنّه اعترف بتجسّسه للمخابرات السوفياتيّة وأُعطي حصانة لقاء هذا الاعتراف... وبالتالي لن تتمكّن المخابرات البريطانيّة من تقديمه للمحاكمة، فعاد ليعيش كإنسان مثقّف وفنّان. ومع ذلك أخذ بعض السياسيّين البريطانيّين الذين هزّتهم الفضيحة يحاولون نبش تهم أخرى غير التي اعترف بها. وقد دفع هؤلاء السياسيّون بعض الصحافيّين البريطانيّين لاستجواب بلانت في مبنى صحيفة "التايمز" اللندنيّة المعروفة، حيث قبل بلانت التعرّض لهذا الاستجواب بروح رياضيّة لأنّهم صحافيّون وليسوا مخابرات.

إستجوب الجاسوس بلانت ثلاثة صحافيّين، وفي ما يلي أهمّ ما ورد في الاستجواب:

س ـ تقول إنّك أخذت إجازة سنة من جامعة كامبريدج، أين قضيت هذه السنة؟

ج - في روما حيث وضعت دراسة حول الأمور الهندسيّة. أجل لقد قضيت ذلك العام بين روما وجنوب ألمانيا.

س - لقد طرحت عليك هذا السؤال لأنّ البعض يقول إنّك ذهبت إلى روسيا للقاء "غي بيرغيس" العميل الذي فرّ إلى الإتّحاد السوفياتي مع "دونالد ماكلين".

ج - لقد ذهبت فعلاً إلى روسيا في إجازة ولكن ليس للقاء بيرغيس الذي لم يكن قد فرّ أصلاً إلى موسكو. إنّما كانت تلك رحلة سياحيّة عاديّة نظّمتها وكالة "أنتوريست"، وقد ذهبت إلى هناك برفقة بعض الماركسيّين واليساريّين المتحمّسين.

س - هل لك أن تحدّد لنا بالضبط التاريخ الذي أقنعك فيه بيرغيس بالعمل للسوفيات؟

ج - لا، لا يمكنني بالتحديد. لكنّي أعتقد أنّ ذلك تمّ في أوائل العام ١٩٣٦.

س - قلت إنّ نشاطك في ذلك الوقت كان لمناهضة الفاشيّة، فهل كانت مهمّتك انتقاء المؤهّلين للعمل مع المخابرات السوفياتيّة؟

ج - نعم.

س - كم رجلاً اخترت للعمل في هذا المجال؟

ج - إنّني لا أستطيع الإفصاح عن ذلك وفقًا للقانون المتعلّق بأسرار الدولة.

س - خلال تلك الفترة، هل كنت تعرف أن بيرغيس وماكلين لا يزالان يعملان للمخابرات السوفياتيّة؟

ج - نعم.

س - كيف حدث ذلك؟ كيف توصّلت إلى معرفة وضع بيرغيس وماكلين؟

ج ـ عن طريق كيم فيلبي.

س ـ متى حدث ذلك؟

ج ـ بعد عودة ماكلين من أميركا وقبل فراره إلى موسكو بعشرة أيّام.

س ـ هل إنّ ماكلين هو الذي أخبرك بأنّ فيلبي أطلعه على قرب انكشاف أمره وبيرغيس؟

ج ـ أجل.

س ـ ألم تشعر آنذاك أنّ من واجبك إطلاع المخابرات؟

ج ـ لا، إنّهم كانوا أصدقائي.

س ـ لقد قلت في بيانك إلى الصحافة إنّك أجريت اتّصالاً مع الروس لحساب برغيس؟.

ج ـ أجل، وكان ذلك بعد ذهاب ماكلين. وقد أُمرت في ذلك الوقت أن أذهب إلى روسيا لكنّني لم أذهب.

س ـ إنّك تستخدم كلمة أوامر. ماذا تقصد بذلك؟ فأنت تقول إنّك لم تعمل لحساب المخابرات السوفياتيّة بعد الحرب؟

ج ـ الحقيقة أنّني لم أقطع معهم العلاقة رسميًا.

س ـ إنّك تقول إنّك لم تتّصل بهم لمدّة خمس أو ستّ سنوات، فما كانوا يعتقدون أنّك كنت تفعل خلال هذه الفترة؟

ج ـ أعتقد أنّهم كانوا يظنّون أنّني لا أزال معهم؟

س ـ هل كان بيرغيس هو الذي دعاك لكي تعمل مع هؤلاء الناس؟

ج ـ نعم.

س ـ هل كان ذلك لأنّك كنت آنذاك في كليّة "ترينتي" وتمثّل نوعًا من النموذج لجيل من الخرّيجين؟

ج ـ إلى حدّ ما. ولأنّني كنت أسكن في كامبردج.

س ـ ماذا كنت تعمل عندما جئت إلى لندن؟

ج ـ لقد حصلت على عمل في معهد "واربورد".

س ـ هل كنت لا تزال تمارس آنذاك مهمّة اختيار العملاء للمخابرات السوفياتيّة؟

ج ـ لا.

س ـ إنّني لا أدري كيف ينطبق قانون أسرار الدولة على الإفصاح عن عدد أولئك الذين اخترتهم للعمل مع المخابرات السوفياتيّة؟

ج ـ أجل، أعتقد أنّ ذلك ينطبق على هذا القانون.

س ـ أريد أن أكرّر بأن لا يُعتبر قانونًا سريًّا ما ليس هو معلومات حكوميّة، فهل أفهم من ذلك أنّه طلب منك ألاّ تكشف النقاب عن تلك الأسماء؟

ج ـ حسنًا. ألا يعني لكم أنّني كشفت عن هذه الأسماء للمخابرات وبالتالي أصبحت سرًّا من أسرار الدولة؟

س ـ هل بحثت هذا الأمر مع المخابرات وهي التي قرّرت لك ماذا تستطيع أن تفشي من الأسرار وماذا لا تستطيع؟ وبالذات مع السير روبرت أرمسترونغ الوزير الأوّل المسؤول عن هذه القضيّة؟

ج ـ لا، إنّني أفعل ذلك حسب فهمي لقانون أسرار الدولة.

س ـ هل كان بيرغيس الرابط الوحيد بينك وبين المخابرات السوفياتيّة؟

ـ لقد كنت أعرف أيضًا بوجود فيلبي وماكلين.

س ـ هل كانت علاقتك الوحيدة مع المخابرات السوفياتيّة؟

ج ـ نعم.

س ـ ألم يكن هناك رجل أو عميل أو رسائل أو أيّ شيء من هذا القبيل؟

ج ـ لقد أصبحت في النهاية على اتّصال شخصي بالمخابرات السوفياتيّة.

س ـ على ما نعتقد أنّ هناك من يقول إنّ المخابرات البريطانيّة رفضت طلبك للعمل معها.

ج ـ نعم، لقد قبلت ثمّ رفضت... ومن المسؤولين أنفسهم، ومن ثمّ انضممت إلى الجيش.

س ـ علمنا أنّك ذهبت إلى فرنسا ثمّ عدت منها وانضممت إلى المخابرات، كيف تقدّمت بالطلب وهل رتّب لك أحد ذلك؟

ج ـ فعلاً، لقد تمّ ذلك ببساطة، فقد أوصى بي أحد العاملين في المخابرات.

س ـ هل لك أن تسمّي هذا الشخص؟

ج ـ أفضّل ألاّ أفعل.

س ـ هل كان ذلك الشخص نظيفًا؟

ج ـ تمامًا.

س ـ عندما قُبلت في المخابرات هل دقّقوا في أمرك قبل قبولك؟

ج ـ أعتقد أنّهم فعلوا ذلك بالطريقة الروتينيّة.

س ـ هل لأنّ الجميع كانوا مشغولين في ذلك الوقت؟

ج ـ أعتقد أنّ الأمر كذلك.

س ـ الأرجح أنّ الرجل الذي ذكّاك للعمل في المخابرات كان يعرف ميولك العلنيّة السابقة.

ج ـ نعم.

س ـ عندما كنت تعمل مع المخابرات السوفياتيّة، إلى من كنت تقدّم المعلومات؟ هل كنت تقدّمها إلى عميل أو إلى أحد أصدقائك الإنكليز العملاء؟

ج ـ إلى الإثنين معًا.

س ـ إذن لقد التقيت العميل، هل كان روسيًّا؟

ج ـ نعم كان روسيًّا.

س ـ كل كان من موظّفي السفارة في لندن؟

ج ـ أعتقد ذلك.

س ـ أين التقيتما؟

ج ـ حسنًا، إنّني أعتقد مرّة أخرى أنّ هذه الأشياء يجب عدم ذكرها.

س ـ أيّ نوع من المعلومات كنت تقدّم؟

ج ـ تقريبًا لا شيء مهم. ففي تلك المرحلة كنت في قطاع غير مهمّ إطلاقًا... قطاع لم يكن يمكّنني من الحصول سوى على القليل من المعلومات... كان نوعًا من القطاعات الروتينيّة جدًّا.

س ـ بعد ذلك، أيّ نوع من المعلومات كنت تعطيهم؟ الأرجح أنّك كنت قد أصبحت في منصب أعلى آنذاك...

ج ـ أجل كنت قد ترقّيت. لم يكن منصبًا رفيعًا جدًّا إنّما كنت في وضع يمكّنني من الاطّلاع على الكثير من المعلومات الهامّة.

س ـ هل كان جهاز الـ MI-5 من المخابرات البريطانيّة في ذلك الوقت مهتمًّا بالنشاط السوفياتي في بريطانيا؟

ج ـ نظريًّا أجل. وكان هناك فرع من الجهاز يقوم عمله على تتبّع النشاط السوفياتي والحزب الشيوعي البريطاني، لكنّه كان فرعًا عاديًّا جدًّا وغير دقيق.

س ـ هل كانت لديك معلومات سوفياتيّة حول هذا الموضوع؟ ذلك لأنّنا نعتقد أنّه كان هناك بعض القلق من النشاط السوفياتي في بريطانيا والأرجح أنّك قدّمت للمخابرات السوفياتيّة مثل هذه المعلومات.

ج ـ لو توافرت لديّ مثل هذه المعلومات لكنت قدّمتها فعلاً، ولكنّي لا أذكر ذلك.

س ـ إنّ الكثيرين من رفاقك في كامبريدج وغيرها تخلّوا عن الشيوعيّة، لكنّك لم تفعل، ماذا كنت تشعر آنذاك؟

ج ـ حسنًا، إنّني لم أفعل لأنّ حجّتي كانت ببساطة آنذاك قويّة.

س ـ هل استمرّوا مهتمّين بك؟ هل كانت لديك اتّصالات مستمرّة معهم؟

ج ـ لا أعتقد. ولكنّني لم أكن في مكانة تخوّلني من إعطائهم أيّ معلومات مهمّة. وثمّة من يقول إنّني اطّلعت على أوراق سريّة في قصر باكنغهام، ولكن هذا بالطبع هراء.

س ـ لقد قيل أيضًا إنّك استمرّيت في العمل معهم على أيّ حال، وإنّـك كنـت صلـة الوصل بين بضعة عملاء للمخابرات السوفياتيّة؟

ج ـ إنّ ذلك غير صحيح مطلقًا.

س ـ كيف توقّفت عن العمل والاتّصال مع المخابرات السوفياتيّة؟

ج ـ ماذا تقصد، في أيّ مرحلة؟ في نهاية الستّينات. حسنًا، لقد حصل ذلك. لقد تيقّنوا أنّني لم أعد مهمًّا بالنسبة لهم في حينه.

س ـ إنّ إسم العميل غي بيرغيس لا يكفّ عن الظهور. إنّه أحيانًـا يصـوَّر كسكّير وأخرى كشاذّ جنسيّ ومتوحّش وما إلى ذلك... ويبدو أنّه لعب دورًا بالغ الأهميّة. كيف تقيّم أنت زميلك بيرغيس؟

ج ـ كان بيرغيس شخصًا ممتازًا جدًّا وكان أكثر اللامعين بين رفاقه الجامعيّين. ودعني أشدّد، وهذا من واجبي، على أنّه كان من أذكى الرجال الذين عرفتهم.

س ـ إلى أيّ مدى كانت اتّصالاتك مع الأعضاء السابقين في المخابرات؟

ج ـ لم يكن لي أيّ اتّصالات سوى أنّني كما أعتقد كنت ألتقي من حين إلى آخر بواحد أو اثنين على كأس، ولم يكن لي أيّ اتّصال رسمي بهم من أيّ نوع.

س ـ أذكر أنّني قرأت في مكان ما أنّك كنت تلتقي بالسير "ديك وايت" الذي كان يحتلّ مركزًا رفيعًا جدًّا في المخابرات البريطانيّة؟

ج ـ أجل لقد عرفته. لقد كان السير ديك وايت رئيسي المباشر، إلاّ أنّني لم ألتقه سوى مرّات قليلة. لقد التقيته طبعًا خلال التحقيق، وبعد ذلك لم أعرفه شخصيًّا بصورة حسنة... وهو لم يكن من الرجال الذين لهم نشاط إجتماعي.

س ـ متى ابتعدت عن السوفيات أي عن المخابرات السوفياتيّة بشكل عمليّ؟ هل كانت هناك نقطة حاسمة بالنسبة إلى ذلك؟

ج ـ أجل، لقد شعرت بوضوح أنّني أردت العمل، بعد أن أعطيت "الوظيفة الملكيّة"، فابتعدت عن الجاسوسيّة.

س ـ هل خطر في بالك آنذاك أنّه بسبب ماضيك قد يكون بعض الإحراج للتاج؟

ج ـ أعتقد أنّني في ذلك الوقت اعتقدت أنّ الأمر لن ينكشف على الإطلاق.

س ـ إذاً الإحراج لم يخطر ببالك؟

ج ـ الواقع أنّني نظرت إلى المنصب كمستشار فنّي للملكة أنّه ضمن نطاق اختصاصي الفنّي الأكاديمي فعلاً، وقد كان مهمًّا بالنسبة لي لأنّه كان في مقدوري القيام به.

س ـ هل أنّ المخابرات أعطتك الضوء الأخضر للوظيفة؟

ج ـ أجل.

س ـ هل أخبرت الذين حقّقوا معك قبل إعطائك الوظيفة عن رفاقك القدامى؟

ج ـ أجل. لكنّي أخشى أنّه ليس في استطاعتي أن أجيبك على هذا السؤال بوضوح.

س ـ تقول في بيانك أنّك استُجوبت ١١ مرّة، ماذا كانت طبيعة تلك الاستجوابات، هل كانت استجوابات بالمعنى الكامل للكلمة، أو كانت مجرّد لقاءات وأسئلة حول كأس؟

ج ـ قبل كلّ شيء، إن الرقم ١١ لا يعني لي شيئاً في هذا المجال. ثانيًا، إنّ معظم هذه الاستجوابات جرت نتيجة لهروب ماكلين وبيرغيس وكانت تلك الاستجوابات في

معظمها عبارة عن محادثات مريحة وفي منتهى الصراحة، لكن كان واضحًا في أيّ حال أنّي كنت موضع شبهة.

س ـ هل أنّ زملاءك السابقين هم الذين أجروا معك هذه التحقيقات؟

ج ـ أجل، لقد أجراها أناس التقيتهم في لندن، ولكن لم أكن صديقًا لهم.

س ـ في تلك المرحلة كنت في حالة نفسيّة قلقة ومع ذلك فقد قطعت مرحلة الاستجواب بهدوء ورباطة جأش، كيف فعلت ذلك؟

ج ـ لست أدري، وعلى كلّ حال لعلّ المرء ينمّي في نفسه شيئًا من المقاومة في مثل هذه الحالات.

س ـ لقد كان أولئك الذين استجوبوك أناسًا تعرفهم، وهذا يعني أيضًا أنّهم عملوا معك في المخابرات نفسها؟ فهل كانوا يعتقدون أنّك مذنب؟

ج ـ أعتقد أنّ البعض ظنّ أنّي مذنب، أمّا البعض الآخر فلا.

س ـ عندما أنعمت الملكة عليك بلقب "سير" وهو أمر كما تعرف من شأنها وحدها ولا حاجة بها للعودة إلى رئيس الوزراء فيه، هل خطر لك آنذاك أنّ مثل هذا اللقب يجعلك في مكانة رفيعة بحيث أنّ أيّ انكشاف لأمرك قد يحرج التاج بعد تلك الاستجوابات؟

ج ـ لا. لقد اعتقدت خطأ أنّ المسألة قد انتهت.

س ـ هل أصبحت بعد ذلك متّفقًا تمامًا مع النظام البريطانيّ؟

ج ـ نعم.

س ـ إنّ عددًا كبيرًا من الناس يتحوّلون من اليسار إلى اليمين وقد أصبحوا إمّا كاثوليك وإمّا يمينيّين متطرّفين، فإلى أيّ الفريقين تنتمي؟

ج ـ أنا لا أنتمي لأيّ من الفريقين، وأعتقد أنّ الطريقة البريطانيّة في الحياة الدستوريّة البريطانيّة هي الأفضل.

س ـ لماذا تقول ذلك؟ هل هي أفضل من النظام الأميركي؟

ج ـ دعنا لا ندخل في ذلك. لا علاقة لهذا بذلك.

س ـ هل لا تزال إذن تحمل شيئًا من العداء نحو الأميركيّين؟ إنّ ذلك كان معروفًا عنك كما تدري.

ج ـ لا. كنت سابقًا في حالة حقد وخوف وهستيريا خوفًا من أن تقحم المخابرات الأميركيّة نفسها في التحقيق.

س ـ هل قرّرت الاعتراف بماضيك قبل أن تمنح "الحصانة" أو بعدها؟

ج ـ لقد حدث الأمران في وقت واحد تقريبًا.

س ـ هل تعني أنّهم عرضوا عليك الحصانة عندما جاؤوا لبحث أمر التحقيق معك؟

ج ـ نعم.

س ـ هل لك أن تصف لنا كيف وقعت تلك الأحداث؟ إنّ كلّ شيء يبدو أنّه انتهى فماذا حدث؟

ج ـ أعتقد أنّ هذا شيء لا يمكنني الدخول في تفاصيله. لكنّهم جاؤوا إليّ ببعض المعلومات التي أظهرت لي أنّهم كانوا "يعرفون الكثير عنّي".

س ـ أعتقد أنّك قلت في الحديث التلفزيوني أنّ هروب كيم فيلبي هو الذي جعلك تشعر بالتحرّر من ولائك لأصدقائك، هل هذا صحيح؟ وأعتقد أنّك قلت أيضًا أنّ الذي حرّرك هو الأفعال وليس أقوال أصدقائك.

ج ـ أجل لقد قلت هذا وهو صحيح.

س ـ هل أنّ المعلومات التي حملها إليك جهاز المخابرات كان مصدرها جواسيس هربوا أم من زملاء سابقين؟

ج ـ لم تكن من الهاربين.

س ـ وهذا يعني أنّها جاءت من زملاء سابقين؟

ج ـ أجل، إنّها من زملاء أو أصدقاء في المخابرات البريطانيّة.

س ـ لقد أدلى فيلبي باعتراف، هل للمرء أن يعتقد بأنّ الاعتراف الذي أدلى به هو الذي كشف أمرك بحيث تغيّر الوضع كليًّا؟

ج ـ لا أعتقد.

س ـ هل لك أن تعرف مصدر تلك المعلومات؟ هل أتت من روسيا أم من هذا البلد؟

ج ـ إنّ هذه النقطة كما ترى شيء رئيسيّ، إنّني لا أستطيع أن أفصح عن أيّ شيء من هذه الناحية.

س ـ هل أنّ المعلومات التي أعطيتها للمخابرات البريطانيّة واعترافك كانا من الأهميّة بعد مضيّ كلّ هذه السنوات؟

ج ـ أجل، لقد اعتبروها مهمّة. فقد رأوا برغم أنّ الزمن قد مرّ عليها أنّها منطلق لأبحاث جديدة تؤدّي إلى مواضيع جديدة.

س ـ هل لنا أن نسألك من الذي جاء بالتحديد إليك في هذا الموضوع؟

ج ـ كان عضوًا بارزًا في فرع MI-5.

س ـ هل كان رجلاً تعرفه؟

ج ـ أجل كنت أعرفه ولكن ليس جيّدًا.

س ـ هل هو المحقّق في المخابرات "فيك سكدرون" الذي استجوبك؟

ج ـ لا.

س ـ إذًا هل هو المحقّق "هولس"؟

ج ـ لا. إنّي آسف لا أستطيع التذكّر تمامًا. إنّي أتذكّر إسمه الأوّل ولا أتذكّر إسم عائلته.

س ـ إنّ السؤال الذي طرحه المهتمّون وننقله للقرّاء هو أنّك رجل ارتكبت "خيانة" ضدّ بلدك بريطانيا، ثمّ غيّرت رأيك بعد ذلك ولكن بعد أن ارتكبت الجريمة، ويستغرب الكثيرون أن تُعطى "الحصانة" بعد أن تكون قد أدليت باعترافك، فهل كان ذلك لأنّ المعلومات التي أعطيتها ذات قيمة؟

ج ـ أجل، أعتقد أنّ ذلك كان الدافع. وأعتقد أنّهم شعروا بأنّني إذا أُعطيت الحصانة فمن الواضح أنّي أتعاون معهم. ولكنّي لا أعرف إذا كانوا قد اعتقدوا أنّني سأكون كعميل مزدوج، وإن اعتقدوا ذلك فإنّهم كانوا على خطأ

س ـ هل حاولوا استخدامك كعميل مزدوج؟

ج ـ لا. ربّما لأنّه لم يكن لديّ أيّ وسيلة لمثل هذا العمل.

ج ـ هل عرضوا عليك الخيار أن تعترف ثمّ تعطى الحصانة أم ماذا؟

ج ـ لا، لأنّ ما فعلت كان بكلّ بساطة اعترافًا مباشرًا.

س ـ ماذا تفهم الآن عن شروط تلك الحصانة؟ وكيف فهمتها في ذلك الوقت؟

ج ـ لقد فهمتها ولا أزال أفهمها كونها تعني الحصانة التامّة من التقديم إلى المحاكمة.

س ـ أي أنّها لا تشمل النشر في الصحافة وكتب المخابرات؟

ج ـ لا، لا أعتقد أنّ ذلك ممكن من الناحية القانونيّة.

س ـ لكنّك اعتقدت ذلك لبعض الوقت؟

ج ـ لقد اعتقدت في الواقع أنّ القضيّة كلّها ستبقى طيّ الكتمان داخل جدران بناء المخابرات.

س ـ عرضت عليك هذه الحصانة من فرع MI-5؟

ج ـ لقد كنت تحت انطباع قويّ، بل إنّي أخبرت بالواقع أنّها عرضت بناء لطلب سلطة عليا.

س ـ ماذا تعني بـ"سلطة عليا"؟

ج ـ لا أريد أن أحدّد هذه الأشياء ولكنّ انطباعي الشخصي أنّ الذي أعطى التحويل هو رئيسة الوزراء، غير أنّي لا أريد أن أؤكّد على ذلك لأنّ رؤساء الوزراء يقولون إنّهم لا يعرفون على ما يبدو... وربّما أنّني كنت على حقّ.

س ـ هل جاءتك الحصانة ضمن نطاق المفاوضات؟ أم كصفقة شاملة واحدة؟

ج ـ لقد جاءت كذلك، والواضح أنّه كانت هناك محادثات قبل ذلك ولكن ليس معي.

س ـ هل عُرضت عليك على أساس أنّها مسألة لها سوابق مماثلة وأنّهم أقدموا عليها في حوادث سابقة؟

ج ـ لا.

س ـ ألم يقولوا لك بأنّنا سوف نعطيك الحصانة؟ وإنّنا مستعدّون لأن نفعل ذلك بالنسبة إلى الآخرين من الذين كانوا أصدقاء لك؟

ج ـ لا، كلّ ما حدث أنّه عُرضت عليّ أنا الحصانة فقط على حدّ علمي هذا لم يحدث مع غيري.

س ـ هل فهمت آنذاك أنّ الملكة أُطلعت على الأمر؟

ج ـ إنّها مسألة أخرى أشعر أنّني لا أعرفها تمامًا. ففي حينه لم أعرف أيّ شيء، لكنّني أبلغت في ما بعد بأنّ الملكة كانت مطّلعة على الأمر. وكان هذا انطباعي دائمًا.

س ـ إذن إنّ سكرتير الملكة كان قد علم بالأمر ولكنّه قرّر بمبادرة منه أن يطلع الملكة؟

ج ـ حسنًا، ولكن ليس في ذلك الوقت. وبعد ذلك تأكّدت من أنّ السكرتير الخاصّ قد عرف، سواء أخبر الملكة أم لا، فإنّي لا أدري.

س ـ لقد أكّد بيان السيّدة تاتشر رئيسة الوزراء على أنّ بقاءك في منصبك في القصر الملكي كان ضروريًّا من أجل تأمين تعاونك مع السلطات؟

ج ـ هل قالت ذلك حقًّا؟

س ـ لقد قالت ذلك مرّتين. وورد ذلك في بيانها.

ج ـ كنت أجهل ذلك تمامًا.

س ـ إنّ مسؤوليّاتك في القصر الملكي في ذلك الوقت كانت محصورة في التحف والصور الفنيّة، إذن أيّ نوع من الصلة كانت لك مع الملكة والناس القريبين منها؟

ج ـ كانت صلتي قليلة جدًا. فقد كانت مهمّتي الرئيسيّة العناية باللوحات الفنيّة العريقة. وكان يفترض أن أحادث الملكة فقط في حال الإضطرار إلى قرار بشأن إعادة تعليق التحف، أو تغيير الديكور.

س ـ هل أزعجك انكشاف تعاملك مع المخابرات السوفياتيّة؟

ج ـ بالطبع لقد أزعجني ذلك. وإنّني لا أستطيع القول بأنّي اعتقدت في أيّ مرحلة بأنّ الحصانة تعني أنّ الأمر لن ينكشف. ولقد قيل بأنّي غضبت من السيّدة تاتشر لأنّها خرقت دورها في صفقة الحصانة لكنّ الواقع أنّي لم أقل شيئًا من هذا القبيل.

س ـ لقد قال أحد أصدقائك أنّك أخذت تصبح أكثر راحة مع الناس وأكثر اطمئنانًا، هل هذا صحيح؟

ج ـ أجل، وقد ظهر ذلك جليًّا عليّ. وكانت راحة كبرى لي أن أزيح هذا العبء عن صدري.

س ـ لقد قيل إنّ السبب الذي كشف أمرك ليس الصحافة ولا التلفزة ولا كتاب المخابرات بل هم بعض أعضاء المخابرات الذين لم يكونوا راضين عن الصفقة التي تمّت معك على الإطلاق وهذا ما حملهم على فضح القضيّة.

ج ـ ربّما وهذا ممكن. وقد اعتقدت بعض الوقت أنّ هذا محتمل، ولكن عندما قال أندرو بويل مؤلّف كتاب المخابرات في لندن بأنّ اسمي قد أعطي له من قبل غولوريسز. شعرت بأنّ ذلك كان تفسيرًا كافيًا. وهذا يعني أنّه لم يكن هناك أيّ تسريب معلومات من الفرع MI-5.

س ـ هل كانت لك اتّصالات مع أجهزة الأمن الأخرى أو مع أيّ مسؤول آخر حول إمكانيّة إجراء أيّ اتّصال مع المخابرات السوفياتيّة أو حول أيّ معلومات أخرى؟

ج ـ لقد استمرّت المحادثات والتحقيقات من قبل المخابرات فقط ولفترة طويلة. وأعتقد أنّهم كانوا يعدّون في كلّ مرّة بعض الأسئلة.

س ـ أين تمّ ذلك؟ ثمّ هل إنّهم كانوا يفرغونك من المعلومات بالمعنى العسكري للكلمة أو ماذا؟ وهل تمّ ذلك خلال سلسلة من الاجتماعات؟

ج ـ أجل تمّ ذلك في سلسلة من المحادثات التي جرت في مقرّ المخابرات حينًا وفي شقّتي حينًا آخر.

س ـ من الذي كان يستجوبك؟

ج ـ لا أعتقد أنّ ذلك مهمّ خصوصًا وأنّ زميلك قد سألني نفس السؤال وعلى كلّ حال إنّه ضابط أحيل على التقاعد.

س ـ دعنا نطرح عليك سؤالاً عامًّا جدًّا. قد يكون محرجًا بعض الشيء ولكن إذا نظرت إلى أناس مثل بيرغيس وماكلين، وليس فيلبي، ترى أنّهم شاذّون جنسيًّا؟

ج ـ سبق أن دافعت عن ماكلين وأكرّر الآن أنّه لم يكن شاذًّا جنسيًّا.

س ـ إنّ الجواسيس الآخرين اشتهر عنهم أنّهم شاذّون جنسيًّا. أقصد هل هناك علاقة ما بين الشذوذ الجنسي وبين الخضوع لمهنة التجسّس؟ هل إنّ الشاذّ يفعل ذلك لأنّه يشعر بأنّه مرفوض من المجتمع؟

ج ـ لا أعتقد ذلك، أعني أنّه في هذه القضيّة بالذات فيلبي لم يكن شاذًّا على الإطلاق، وماكلين كان طبيعيًّا إلى حدّ بعيد، لا أعتقد في حالات الخضوع للتهديد أنّه قد استخدم الشذوذ مع غيرهم، لكن هناك أساليب أخرى لابتزاز الإنسان من قبل المخابرات وتسخيره لخدمتها.

س ـ ألم تطلب أو تحاول استئناف الاتّصال مع المخابرات السوفياتيّة بعد حصولك على الحصانة؟ أو بالأحرى بعد انتهاء التحقيق معك وهدوء الأحوال؟

ج ـ أبدًا.

س ـ قبل ذلك هل جرت أيّ محاولة لوصلك بأيّ دولة أخرى وراء الستار الحديديّ؟

ج ـ لا.

س ـ هل جرى تهديدك في أيّ وقت من قبل المخابرات السوفياتيّة أنّك إذا لم تنفّذ الأوامر فسوف تواجه مضاعفات؟ وبالأصحّ هل كان لهم أيّ ممسك عليك يستعملونه كنقطة ضعف؟

ج ـ لا، وأعتقد أنّهم كانوا يعرفون بأنّني سوف أنفّذ طلباتهم.

س ـ ألم يقولو لك بأنّهم قد يقتلونك؟

ج ـ كلاّ.

س ـ لكنّك في النهاية اعتُقلت وأدليت بما لديك؟

ج ـ أجل.

س ـ ماذا كان نوع المعلومات التي أدليت بها؟ هل أعطيت عددًا من الأسماء؟ من الواضح أنّك عرضت تاريخ القضيّة كلّها، لكنّ المخابرات كانت مهتمّة بأسماء الذين كانوا باقين على قيد الحياة.

ج ـ أجل، خصوصًا أولئك الذين كانوا يعملون مع المخابرات السوفياتيّة.

س ـ هل استطعت أن تعطي تلك الأسماء وضميرك مرتاح؟

ج - لا، لكنّي استطعت بخبرتي إعطاء بعض الأسماء دون أن يتعرّضوا للأذى.

س - هل استطعت أن تحدّد هويّات عناصر المخابرات السوفياتيّة العاملين في هذا البلد؟

ج - أجل.

س - كيف استطعت تحديد هويّاتهم ما دمت لم تكن على اتّصال بهم؟

ج - هنا كان استعمالي للذكاء والخبرة. فقد كان مَن حدّدت هويّاتهم من الذين كنت على اتّصال بهم في البداية، أي أنّي أعترف باتّصالي بالمخابرات السوفياتيّة سابقًا إستنادًا لحصولي على الحصانة، ولكنّ جميع الذين ذكرتهم كانوا قد غادروا لندن، أو أنّهم لم يكونوا هنا.

س - هل حدّدت هويّة أيّ بريطانيّ يتعامل مع المخابرات السوفياتيّة أو أحد معاصريك أو زملائك؟

ج - إنّ ذلك، لا شكّ، كان من الاهتمامات القصوى بالنسبة إلى فرع MI-5.

س - سرت تكهّنات كثيرة أخيرًا بأنّ عددًا كبيرًا من الناس هم في مثل وضعك، البعض قدّرهم بثمانية والبعض الآخر يقول عشرين. فما هو تقديرك لهذا العدد؟

ج - هذا مجرّد تكهّن. وأعتقد أنّه كان هناك عدد كبير من الناس الضالعين في العمل الجاسوسي وأنّهم جميعًا توقّفوا عن ذلك منذ مدّة طويلة.

س - هل لا تزال أسير الرغبة في حماية أصدقائك القدامى في هذه القضيّة؟ لقد كنت شديد التحفّظ حول البعض منهم.

ج - إنّ هذه المشكلة لم تعد قائمة.

س ـ هل نفهم من ذلك أنّ الأصدقاء الذين كنت تدين بالولاء لهم قد ماتوا جميعًا الآن أو ذهبوا؟ ثمّ إنّ جميع أولئك الذين التقيتهم في جامعة كامبريدج قد ماتوا؟

ج ـ آسف لا أستطيع الإجابة على ذلك.

س ـ إنّك قلت أنّه كان هناك عدد كبير من الناس ضالعين في مثل هذه الأمر فهل كان هؤلاء في الخدمة العامّة؟

ج ـ أعتقد ذلك إلى حدّ كبير، لكنّي آسف إذ يجب أن ألتزم الصمت حول هذا الموضوع لأنّني أتحدّث الآن عن معلومات رسميّة عامّة.

س ـ لقد قلت في حديثك المتلفز أنّ حلقة كامبريدج كانت مؤلّفة من بيرغيس، وماكلين، وفيلبي، وأنت، ولم يكن أحد غيركم؟

ج ـ لا.

س ـ ألا تعتقد أنّه كان هناك عملاء آخرون في جامعة كامبريدج؟

ج ـ لا، ليس في الوقت الذي تحدّثت عنه.

س ـ لقد قيل أيضًا أنّ تلك المشكلة لم تكن قائمة في كامبريدج وحدها بل إنّ أشياء مماثلة حصلت في أكسفورد وجامعات أخرى.

ج ـ هذه مسألة لا أعرف عنها شيئًا.

س ـ لكن بالنسبة لتجربتك هل تعتقد أنّ هذا صحيح؟

ج ـ أجل. إذا كنت تطلب منّي مجرّد التكهّن، لا بدّ من إجابتك أنّ هذا صحيح.

س ـ لقد سئلت وأكرّر عليك السؤال بالنسبة إلى الكشف عن أمرك كخائن. كيف تشعر؟

ج ـ من الصعب الردّ على هذا السؤال، وأوضح في النهاية أنّي أصبحت مضطربًا بعد هذا السيل من الأسئلة التي لم تسألها المخابرات لي. أمّا بالنسبة لشعوري فلا أستطيع تقديم تعبير كافٍ عنه ولا عمّا أشعر، إلاّ أنّني أشعر وقد يبدو لكم ذلك غريبًا، أنّي تصرّفت وفقًا لضميري، أمّا كلمة خائن فهي من ضميركم أنتم فقط[1].

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٩) ٣: ٣٧١ ـ ٣٩٧.

مدير المخابرات البريطانيّة جاسوس سوفياتي

في منتصف ثلاثينات القرن العشرين، وفي الحقبة التي شهدت الانهيار الاقتصاديّ في الغرب وبريطانيا بشكل خاصّ، وفي وقت بلغت فيه البطالة حوالى نصف القوى العاملة أو تجاوزت ذلك، وسقطت فيه قيمة العملة الورقيّة وانفجر التضخّم المالي كما لم يحدث من قبل، وأصبح منظر الجياع بالألوف مألوفًا في لندن وبقيّة المدن البريطانيّة... في هذا الوقت شهدت الحياة الثقافيّة في بريطانيا، إحدى أشدّ موجات النقمة على النظام القائم، وهو ما يسمّونه: المؤسّسة. وكفر جزء كبير من المثقّفين بالنظام الرأسمالي واعتبروه نظامًا عاجزًا ومتهالكًا قد استنفذ أغراضه وتحوّل إلى نظام للقهر والظلم والعجز الاقتصادي في آن واحد.

لم يكن غريبًا في هذه الحقبة أن تسيطر النزعات الماركسيّة واليساريّة المتطرّفة في الجامعات البريطانيّة، خاصّة في جامعتي أكسفورد وكمبريدج موطن أولاد الذوات والأرستقراطيّين البريطانيّين الذين وجدوا في الماركسيّة والنسخة الروسيّة منها التي تمثّلها ثورة تشرين الأوّل ــ أكتوبر في روسيا أمل الخلاص أو الطريق الآخر، وكان التنكّر للمجتمع الرأسمالي، وهو وسيلتهم للتعبير عن غضبهم والتنفيس عن ضمائرهم بصفتهم أبناء الطبقة المسؤولة عن النظام. هذه الحقبة بالذات، أنتجت أقدر الجواسيس البريطانيّين من طلبة أكسفورد وكمبريدج والذين ينتمون إلى أرفع طبقات المجتمع الأرستقراطي، والذين وضعوا أنفسهم في خدمة المخابرات السوفياتيّة.

تمّ الكشف عن أربعة جواسيس من النوع الراقي المثقّف كانوا يعملـون عـن عقيدة للمخابرات السوفياتيّة أي بمعنى أنّهم يعملون للنظام السوفياتي حيث كـانوا يجدون فيـه راحتهم الفكريّة، وهم "دونالد ماكلين"، "غابي بيرغيس"، "أنطوني بلانت"، و"كيم فيلبي". وكان هناك "الرجل الخامس" أو الجاسوس الخامس واسمه الحركـي "إيلـي"، الـذي تـأكّد وجـوده سـابقًا إلـى جانب هـؤلاء الجواسيس الأربعـة الذيـن افتضـح أمرهـم وعُرفـت أدوارهم... ولكنّ الجاسوس الخامس لـم تُعرف هويّتـه فـي حينـه، علـى وجـه التحديـد واليقين.

أخيرًا، تضافرت أدلّة متعاظمة بأنّ الرجل الخامس لم يكن سوى "مدير المخـابرات البريطانيّة بالذات"، الذي شغل إدارة المخـابرات البريطانيّـة مـن عـام ١٩٣٦ إلـى عـام ١٩٦٥، أي لمـدّة ٢٩ عامًـا: المسـتر "روجـر هوليـس"، الـذي ابتـدأ عملـه موظّفًـا بالمخابرات البريطانيّة ثمّ تدرّج بالترفيع حتّى أصبـح مديرهـا العـام ورجلهـا الأوّل فـي السنوات الأخيرة من عمله.

ولـد روجر هوليس سـنة ١٩٠٥ مـن والـد كـان رجـل ديـن معروفًـا بميولـه اليمينيّة التـي سـهّلت للإبـن قبولـه موظّفًـا فـي المخـابرات البريطانيّـة، وهـو مـن هذه الناحية شبيه بأنطوني بلانـت، العميل الآخر رقـم ٣ الـذي كـان والـده رجل ديـن أيضًا.

كان روجر في صغره ضعيف البنية، فأحسّ بشيء من مركّب النقص نحو أشـقّائه الثلاثة، وقد صار أحدهم كوالده رجل دين، في حيـن أنّ الثـاني اهتـمّ بالتـاريخ والعمل السياسيّ، فاستطاع أن يكون نائبًا، أمّا الثالث فكان مثله ميّـالاً للخدمـة فـي المخـابرات، وقد عمل بالفعل في القسم الذي عمل فيه فيلبي: "قسم مكافحـة الجاسوسـيّة السـوفياتيّة" بالذات.

بعد الدراسة في كليفتون كوليدج في بريستول، التحق روجر بجامعة أوكسفورد، لمتابعة دراسته الجامعيّة، غير أنّ نتائجه الدراسيّة لم تكن مشجّعة على ما يبدو في السنتين الأولتين، فآثر أن يترك الجامعة خوفًا من الفشل في الدراسات النهائيّة كما يقول متّهمون، متظاهرًا بأنّه يفضّل الذهاب إلى المكسيك بصحبة أحد رفاقه الذين تعرّف إليهم في الجامعة. ولكنّ حياته في مرحلة التعليم كانت تتسع لأكثر بكثير من مجرّد النشاطات التعليميّة، فقد نشط في ناد جامعيّ للاصلاح الاجتماعيّ والسياسيّ. وتعرّف إلى زميل له يعمل في جريدة الـ"دايلي ووكرز" الشيوعيّة، وهو "كلود كوكبرن" الشيوعي، ثمّ تعرّف على شيوعيّ آخر هو "موريس ريتشاردسون".

لعلّ أهميّة هذه الحقبة القصيرة في الجامعة تكمن في مشاركته بالاجواء الليبيراليّة الجامعيّة المناهضة للسلطات المحافظة، وتعزيز مزيّة الاستقلاليّة لديه، ويبدو أنّ بذور المعارضة بدأت تترسّخ عنده هنا، إنّما بشكل سرّي وهادئ.

غضب والد روجر لتركه الجامعة قبل إتمام تعليمه، وامتنع عن الصرف عليه. ثمّ أصيب روجر بنكسة أخرى حين علم أنّ رفيقه "موريس ريتشاردسون" عدل عن رأيه بالذهاب معه إلى المكسيك، فما كان منه إلاّ أن بحث عن عمل فوجده في أحد مصارف لندن لتأمين نفقاته، ولتوفير بعض المال لتنفيذ مشروع عمل في الصين عوضًا عن المكسيك.

لماذا اختار روجر الانتقال إلى الصين؟ لا ندري... لعلّها رغبة من قبيل الرومانسيّة والتعلّق بالشرق، أو لعلّها مغامرة لجمع المال، بدلاً من الذهاب إلى المكسيك. على أنّ ذهابه إلى الصين هو دليل عناد ومثابرة.

كانت السنوات التي قضاها في الصين مهمّة بالنسبة إلى هذا الشابّ وخصوصًا لعمله في المستقبل. ولعلّ عزمه وإصراره كانا تعويضًا على ما بدا عليه من مستوى

عقلي معتدل، في رأي منتقديه، أو لانعدام موهبته كما يقول خصومه. ولكنّه استطاع برغم ذلك أن يجد له مجالاً للعمل في قسم الإعلان في شركة تبغ أميركيّة بريطانيّة في شنغهاي، بينما كان ينضب ما معه من مال... ولهذه السنوات التي قضاها في الصين أهميّة أخرى في حياته بالنسبة للمستقبل. ففي شنغهاي التقى بصحافيّة أميركيّة يساريّة تدعى أغنيس سميدلي، التي كانت معروفة بعلاقاتها بالكومنترن، أي "الشيوعيّة الدوليّة"، وبفرع المخابرات السوفياتيّة في الصين.

في أجواء الصين، وخاصّة جوّ العلاقات الصينيّة اليابانيّة المتشنّجة وسياسة "تشان كاي تشيك" المعادية للشيوعيّة في حينه، ونشاط المخابرات السوفياتيّة لدعم النضال الصيني ضدّ اليابان، تعرّف إلى "أورسولا بيرتون"، وهي شيوعيّة معروفة، كما ألف أجواء الصراع الطبقي المحموم الذي كان يشكّل المناخ السائد في تلك الأيّام.

ليس هناك من يجزم بأنّ روجر قد تعرّف إلى المسؤولين السوفيات في هذه الحلقات، لكن الأنباء التي نشرتها عنه المخابرات الأميركيّة بعد الشكّ في أمره، منذ سنوات قليلة، أشارت إلى اشتغاله آنذاك "عميلاً" للقسم العسكري في هيئة المخابرات السوفياتيّة العامّة KGB، وبإشراف الجاسوس السوفياتي الشهير "ريتشارد سورج" الذي أسّس بعد ذلك أضخم شبكة تجسّس للمخابرات السوفياتيّة في طوكيو. وأُلقي القبض عليه نتيجة خطإ مهنيّ وأُعدم في السجن لأنّ المخابرات السوفياتيّة لم تستطع الاعتراف به في حينه لضرورات الأمن.

عُزي تجنيد روجر في هذا القسم إلى أنّ المسؤولين عن المخابرات السوفياتيّة استغلّوا ميوله الجنسيّة العنيفة وانغماسه في المغامرات النسائيّة في شنغهاي بالصين، ممّا يحمل على الاعتقاد بأنّ روجر أصبح شيوعيًّا، ومن ثمّ "عميلاً للشيوعيّة"، وهو في

الصين، أي أنّه دخل في خدمة المخابرات السوفياتيّة قبل دخوله في خدمة مخابرات بلاده بريطانيا.

من المعروف أنّ الابتزاز الجنسي والتهديد بالتشهير والفضيحة كانا من الوسائل المجدية لاختراق المخابرات البريطانيّة التي كانت تضمّ عددًا كبيرًا من اللواطيّين. وهذا أمر غريب في بريطانيا... وإحدى الصفات المشهورة للارستقراطيّة البريطانيّة. ومن أشهر حوادث التجسّس التي تعبق برائحة الجنس والشذوذ قضيّة الجاسوس البريطاني "وليم فاسال" الذي باع للسوفيات أسرار البحريّة البريطانيّة، وقد تستّر عليه روجر في ما بعد حين أصبح رئيس المخابرات البريطانيّة ومديرها العام.

في الصين، أصيب روجر بداء الصدر. فانتقل إلى سويسرا للاستشفاء عبر خطّ سيبيريا الحديديّ مارًا بروسيا حيث قضى وقتًا قصيرًا. والمعروف أنّه اجتمع بأورسولا بيرتون التي تعرّف إليها بالصين مرّة أخرى في سويسرا أثناء وجوده فيها للاستشفاء. ولهذه المرأة أهميّة خاصّة في حياته ولو أنّه سوف يتجاهل في وقت لاحق معرفته بها، ثمّ إنّ أهميّة وجودها في أكسفورد عند وجود روجر فيها أيضًا لم تتّضح سوى عام ١٩٥٧.

بعد الصين، وبعد الاستشفاء في سويسرا، عاد روجر إلى وطنه إلى لندن الضباب ليؤدّي دوره الذي أسند إليه من قبل المخابرات السوفياتيّة هناك، وكان عليه أن يلتحق بالمخابرات البريطانيّة وبالقسم الذي يتولّى عمليّات مكافحة التجسّس الخارجيّ وخاصّة الجاسوسيّة السوفياتيّة.

كيف يتسنّى له ذلك وهو الشيوعيّ والعضو في المخابرات السوفياتيّة الـ "مسبق الصنع"؟

من المعروف أنّ هنالك أولويّات عمل للمخابرات السوفياتيّة في خطّتها لاختراق المخابرات البريطانيّة، فهي تفضّل أن تزرع عميلها في المجالات التالية التي ترد بحسب أهميّتها من وجهة النظر السوفياتيّة:

أوّلاً: ضمن المخابرات البريطانيّة نفسها وفي قسم مكافحة النشاطات السوفياتيّة إن أمكن. وقد نجحت المخابرات السوفياتيّة بزرع روجر في هذا المركز بالذات.

ثانيًا: في هيئة الإذاعة البريطانيّة BBC، لما يوفّره مثل هذا الموقع من صلات واسعة في السياسة البريطانيّة والعالميّة.

ثالثًا: في جريدة "التايمز" لما يتيحه المكان من صلات واسعة مع كبار المسؤولين في الحكومة أو الجيش أو الإقتصاد.

رابعًا: في وزارة الخارجيّة البريطانيّة.

خامسًا: في وزارة الداخليّة بما فيها "المباحث العامّة اسكتلنديارد".

هذا الترتيب في الأهميّة يعكس الأهميّة الحقيقيّة لمختلف المجالات المتّصلة بعالم المخابرات في بريطانيا، إذ تتيح هذه المجالات الاطّلاع على أكبر قدر من المعلومات.

والظاهر أنّ تحرّكات روجر في الصين وعلاقاته هناك كانت تتمّ وفق خطّة موضوعة، مكّنته في ما بعد من الالتحاق بالمخابرات البريطانيّة، لأنّ هذا ما أرادته المخابرات السوفياتيّة. ولكنّ حالته الصحيّة لم تكن جيّدة، كما كان في وضع معنويّ متدهور، لا سيّما بعد فشله في أوّل محاولة له لدخول المخابرات البريطانيّة، لكنّه عاد وتمكّن من الالتحاق بالمخابرات البريطانيّة ـ هيئة مكافحة التجسّس السوفياتي ـ كما خطّط له، حيث ابتدأ عمله مساعدًا لـ"جاين سيسمور" المسمّاة "جاين آرتشر" في وقت

لاحق، وهي موظّفة كبيرة في المخابرات البريطانيّة، من غير أن يخضع للتحقيق الصارم المألوف بالنسبة لتعيين أمثال هؤلاء الموظّفين.

لقد كانت الفرصة مؤاتية له آنذاك إذ إنّ هذه الهيئة كانت تتوسّع بسرعة خصوصًا لمواجهة الخطر السوفياتي، ممّا استلزم تجنيد عدد متزايد من رجال المخابرات. ومن المؤكّد أنّ بيئته الدينيّة بصفته إبن أسقف "أوحت للمخابرات البريطانيّة بالاطمئنان إليه"، وقُبل دون أن يتمّ التحقيق عنه.

من الطبيعيّ أن لا يذكر روجر علاقاته اليساريّة في طلب التوظيف في المخابرات، وتسمّى في البلاد العربيّة "نشرة استعلامات"، أثناء وجوده بالجامعة أو أثناء عمله بالصين، حتّى أنّه لا وجود لملفّ له عن هذا النشاط في القسم الذي عمل به وحتّى نهاية عمله بالمخابرات التي بلغت ٢٩ يومًا بصفته موظّفًا عاديًّا في البداية، ثمّ نائب مدير قسم، ثمّ مدير قسم، وفي النهاية مديرًا عامًّا للمخابرات البريطانيّة، وعلى الأغلب أنّه هو نفسه قد أتلف ملفّه.

كانت مهمّة أو عمل روجر الرئيسي، باعتباره المساعد الأوّل لجاين سيسمور في ابتداء عمله، أن يشرف على عمليّات المخابرات السوفياتيّة في بريطانيا ومستعمراتها. وكان طبيعيًّا وهو في هذا المنصب أن يطّلع على محاولات المخابرات البريطانيّة اختراق الحزب الشيوعيّ البريطانيّ وتجنيد أعضائه، أو زرع عملاء في داخله. والملاحظ أنّ المخابرات البريطانيّة كانت قد تمكّنت من أن تفكّ رموز الشيفرة السريّة لاتّصالات الكومنترن بالأحزاب الشيوعيّة وبرجال المخابرات السوفياتيّة. ومن هنا كانت أهميّة إصرار المخابرات السوفياتيّة على دخول روجر إلى هذا القسم أو المنصب. والواقع أنّ كلّ الاتّصالات المذكورة عبر تلك الشيفرة والرموز قد توقّفت بعد انتساب روجر إلى هذا القسم...

الحياة الشخصيّة لروجر هوليس، ذات أهميّة كبيرة، لأنّ تجاهلها كليًّا يترك فراغًا لا مبرّر له. ولعلّ الإشارة السريعة إليها تثير شيئًا من التسلية القصصيّة وتلقي بعض الضوء على شخصيّته وعلى أسلوب تفكيره ومعتقداته. إنّ طلاق روجر لزوجته الأولى وزواجه من سكرتيرته له علاقة وثيقة بإثارة التحقيق معه سنة ١٩٧٠.

كان روجر وسيمًا، متوسّط القامة، هادئًا بوجه عام، متكتّمًا بطبيعته، قليل الكلام. فلا يفتح شفتيه إلاّ نادرًا حين يردّ على سؤال موجّه إليه، كما أنّه كان يكره النقاش والحوار، ولئن اعتبره أصدقاؤه وخصومه معًا غير مرفوب، فالواقع أنّه كان محبًّا للدعابة ولكنّه رصين إلى أبعد حدّ في الوقت نفسه، دقيق في تعليماته، واضح في تحديد ما يريده.

جميع هذه المزايا كانت قد أصبحت معروفة عن روجر حين تسلّم رئاسة قسم مكافحة التجسّس بدلاً من جاين سيسمور، وبذلك بلغ أوّل مركز مرموق في جهاز المخابرات البريطانيّة.

كذلك كان معروفًا عن روجر أنّه يجيد لعب الغولف. ويذكر الذين رفضوه في محاولته الأولى لدخول المخابرات أنّهم لم يروا فيه سوى شخص عاديّ لا يصلح سوى لوظيفة عاديّة لأنّ مزيّته الوحيدة أنّه يلعب الغولف...

على أيّ حال، فإنّ نجاح روجر في التسلّل إلى المخابرات البريطانيّة ووصوله إلى المركز الذي أرادته له المخابرات السوفياتيّة يدلّ بوضوح على قصور إجراءات الأمن في المخابرات البريطانيّة، والتي كانت تعتمد على العلاقات الخاصّة بين أفرادها الذين يتحدّر معظمهم من الطبقات الأرستقراطيّة والمحافظة، وهي صنعة كانت تفتح الأبواب وتتيح الفرص دون تحقيقات جديّة.

بدأت الشكوك تحوم حول روجر عندما لجأ إلى الغرب عدد من ضبّاط المخابرات السوفياتيّة، وكشفوا عن مدى التسلّل السوفياتيّ في المخابرات الغربيّة والبريطانيّة، بشكل خاصّ، وعن وجود حلقة مؤلّفة من خمسة من البريطانيّين في خدمة المخابرات السوفياتيّة، وكان هروب "دونالد" و"بيرغيس" العاملين في المخابرات البريطانيّة إلى الاتّحاد السوفياتي بداية تشكيك قويّ وتنبيه عنيف إلى هذه الحلقة وضرورة معرفة بقيّة أفرادها اعتقادًا بأنّ العميلين المزدوجين اللذين فرّا هما اثنان فقط من بين الخمسة. والواقع أنّ المخابرات الأميركيّة لم تتمكّن من الكشف عن هذه الحلقة الخماسيّة. يضاف إلى ذلك أنّ الملاحظات حول تصرّفات روجر، لم تثر أيّ اهتمام به أو انتباه إليه. ولكنّ المعلومات أو الوقائع التي توفّرت في وقت لاحق دفعت البعض إلى الشكّ به، وتوجيه أصابع الاتّهام إليه. والجدير بالذكر هنا أنّ المخابرات الأميركيّة كانت واثقة من ضلوع روجر بالخيانة. وقد قامت بالتحقيقات بمعاونة مكتب التحقيق الاتّحادي الأميركي وفق خطّة مدروسة خاصّة بالمؤسّستين. وقد اعترف شخص يدعى "آرغو"، وهو موظّف الشيفرة في السفارة التشيكيّة بواشنطن وعميل سرّي لمكتب التحقيقات الاتّحادي، بمعلومات عن وجود "عميل مهم" للسوفيات في المخابرات البريطانيّة، وقد عمد العملاء السوفيات إلى تغيير طريقة عملهم ممّا يدلّ على معرفتهم بأنّهم مراقبون.

بعد ذلك، أبلغ غوليتسين، الموظّف بالسفارة السوفياتيّة في هلسنكي المخابرات الأميركيّة بوجود عميل كبير للسوفيات في المخابرات البريطانيّة، وأشار إلى حلقة خماسيّة معزّزًا بذلك أنباء وشكوكًا سابقة.

وأيضًا كشف "إيغور غوزينكو" الموظّف في السفارة السوفياتيّة في أوتوا لأوّل مرّة عن وجود عميل سوفياتي في المخابرات البريطانيّة باسم "إيلي"، وقال عنه إنّه موظّف

عالي الرتبة، واستطاعت المخابرات الغربيّة بالتالي أن تكشف النقاب عن حلقة من العملاء السوفيات في الغرب، أمّا العميل العالي المكانة، الملقّب بإيلي، فظلّ مجهولا لأنّ اتّصال المخابرات السوفياتيّة به كان عبر وسائل سريّة توضع له في أمكنة سريّة وفي شقوق أو ثقوب لا تخطر على البال. وباعتبار روجر مسؤولاً عن مكافحة الجاسوسيّة السوفياتيّة في بريطانيا والبلدان الأخرى الخاضعة لها، فقد انتُدب هو بالذات للذهاب إلى كندا للتحقيق بشأن غوزينكو وصحّة معلوماته. ومن المعلوم أنّ "إيلي" أبلغ السوفيات عن معلومات المخابرات البريطانيّة بشأن العملاء الروس في بريْطانيا.

الطريف الخطر هنا، في عمل المخابرات، أنّ "إيلي"، وهو نفسه "روجر"، قد كُلّف بالتحقيق في كندا مع غوزينكو السوفياتي عن معلوماته عن "إيلي" نفسه...

في العام نفسه، جاء أحد رجال المخابرات السوفياتيّة إلى سفارة بريطانيا في أنقرة بتركيا وأبلغها نبأ وجود عميل للمخابرات السوفياتيّة في رئاسة المخابرات البريطانيّة، ولم يستطع تحديد هويّته، لكنّه أكّد على أنّه رفيع المستوى.

حين كثرت المعلومات المتواردة للمخابرات البريطانيّة عن وجود عميل رفيع المستوى للمخابرات السوفياتيّة بين جدرانها أرادت المخابرات البريطانيّة أن تقوم بحملة واسعة لمكافحة عمليّات التجسّس والتخريب الشيوعيّة في بريطانيا. وطلب من روجر هوليس نفسه، وكان مدير دائرة مكافحة الجاسوسيّة السوفياتيّة، أن يجري تحقيقًا حول هذا الموضوع. فقام بتحقيق تافه وبسيط ينفي هذه الادّعاءات، ولم يتضمّن هذا التحقيق أيّ معلومات ذات قيمة، رغم اعتقاد رئيس المخابرات ورئيس الوزراء الذي يطّلع على بريد وأعمال المخابرات البريطانيّة بوجود مثل هذه العمليّات.

في هذه الحقبة أيضًا، وأثناء رئاسة روجر لقسم مراقبة النشاطات السوفياتيّة في بريطانيا، وافق على استخدام العالم الذرّي "كلاوس فوخس" في المحطّة الذريّة

البريطانيّة للأبحاث الذريّة، وهو المعروف بميوله الشيوعيّة منذ لجوئه إلى بريطانيا من ألمانيا. وكانت السلطات البريطانيّة المختصّة بالمخابرات والمباحث العامّة قد أجرت بشأن العالم الذرّي كلاوس ستّة تحقيقات متواصلة ولكنّها لم تسفر عن شيء، كما تجاهل روجر بالذات علاقة كلاوس بالشيوعيّة أورسولا بيرتون وغضّ النظر عن قيامها بدور المراسلة له وعن علاقة الإثنين بحلقة مخابرات سوفياتيّة في سويسرا، وهي معلومات كان يفترض أن تكون معروفة جيّدًا من قبل رجال المخابرات المتخصّصين في مراقبة محاولات التسلّل السوفياتيّة، رغم أنّ روجر نفسه كان على علاقة بأورسولا أثناء وجودها بالصين، وتجدّدت هذه العلاقة في جامعة أوكسفورد، التي انتقل إليها روجر لفترة وجيزة.

تمكّنت المخابرات الأميركيّة من فكّ رموز شيفرة سوفياتيّة تكشف عن عمالة العالم الذرّي كلاوس فوخس، وقدّمت هذه المعلومات كهديّة منها للمخابرات البريطانيّة. غير أنّ العالم الألماني كلاوس لم يعترف بعمالته للمخابرات السوفياتيّة إلاّ بعد تحقيق عنيف متواصل من قبل أحد المحقّقين البريطانيّين المعروفين بالحنكة والقدرة، وبمشاركة المخابرات الأميركيّة، ورغم اعتراف كلاوس، لم يتبيّن بصورة مباشرة أيّ دور لروجر في إخفاء حقيقته في الفترة السابقة.

شكّل افتضاح أمر كلاوس فوخوس ضربة عنيفة، ليس من حيث إلقاء الشكّ على قدرة المخايرات البريطانيّة فحسب، بل أيضًا من حيث أثرها على العلاقات بين بريطانيا والولايات المتّحدة الأميركيّة، ذلك أنّ المخابرات الأميركيّة أصبحت لا تثق بالمخابرات البريطانيّة ولا تضمن ألاّ يسرّب العملاء السوفيات من داخلها كلّ المعلومات التي تصلها من الولايات المتّحدة. وبالتالي فإنّ الأميركيّين أصبحوا أقلّ تعاونًا مع البريطانيّين في مجالات المخابرات. ولم تمض

مدّة قصيرة حتّى حدث ما يعزّز المخاوف والشكوك الأميركيّة في المخابرات البريطانيّة...

قبل الهروب، كانت الشكوك تحوم حول ماكلين وبيرغيس واحتمال اتّصالهما بالمخابرات السوفياتيّة. ومرّة أخرى لعب روجر دورًا هامًّا في هذا المجال، إذ أبلغهما، ومعه فيلبي، عن عزم المخابرات البريطانيّة واهتمامها بإجراء تحقيق معهما بشأن هذه الظنون حولهما، ما أدّى إلى فرارهما إلى موسكو الأمّ في حينه. وليس هناك ما يثبت بصورة قاطعة بأنّ روجر الذي كان، في حينه، مسؤولاً عن قسم مكافحة الشيوعيّة والنشاط السرّي السوفياتي في بريطانيا، هو الذي قام بدور التنبيه وحده للعميلين، ولكنّ القرائن الميسّرة بهذا الصدد هي التي توجّه أصابع الاتّهام نحوه، وحده كان في وضع يستطيع معه معرفة موعد التحقيق وكلّ تفاصيل الرقابة الموضوعة عليهما والأنباء المتواترة في أوساط المخابرات بعد اعتراف العديد من العملاء الهاربين من الاتّحاد السوفياتي الذي أكّد على وجود عدد من العملاء للمخابرات السوفياتيّة. وعادت اعترافات الفارّين بعد هروب ماكلين وبيرغيس لتؤكّد على بقاء أو وجود عميل آخر ضمن إدارة المخابرات البريطانيّة، وفي مركز عال، وحصرت دائرة الاتّهام روجر وحده وعلى نار هادئة. فهناك عميل روسي إسمه "راستوروف"، رفض الذهاب إلى لندن خوفًا من اختراق المخابرات السوفياتيّة المعروف للمخابرات البريطانيّة. وهناك قول لأنطوني بلانت، العميل للمخابرات السوفياتيّة، وهو مستشار الملكة شخصيًّا، بأنّ السوفيات لم يطلبوا منه أيّ معلومات عن القسم الذي يرأسه روجر. وتفسير ذلك أنّ روجر كان ينقلها لهم بنفسه، ثمّ إنّ نجاح المخابرات البريطانيّة بالنسبة للمخابرات غير السوفياتيّة بالمقارنة مع فشلها المتواصل مع المخابرات السوفياتيّة بالذات، يؤكّد على الشكوك حول روجر.

الرأي الذي طُرح على بساط البحث في دوائر المخابرات الغربيّة حول نهاية فيلبي، هو أنّ قيام روجر وفيلبي بتسهيل فرار ماكلين وبيرغيس كان يستهدف إنقاذ كيم فيلبي خوفًا من أن يؤدّي التحقيق معهما إلى افتضاح أمره، في وقت كان يتولّى فيه كيم فيلبي إدارة الدائرة السوفياتيّة في المخابرات البريطانيّة. والواقع أنّ الشكوك كانت تحوم حوله قبل ذلك التاريخ بسنوات من غير أن يكشف التحقيق ما يدينه. وبازدياد هذا الشكّ كان روجر لا يزال مسؤولاً عن فرع مكافحة أعمال المخابرات السوفياتيّة في بريطانيا، ونائبًا للمدير العام، فقام بالاتّفاق معه، أي المدير العام، وأرسل فيلبي إلى بيروت كمراسل صحافيّ، لإبعاده عن مرمى بصر المرتابين به في لندن أو واشنطن حيث كان الشكّ قد أخذ يساور المخابرات الأميركيّة، بل إنّ نائب المدير فيها "بيدل سميث" كان يعرف بالتأكيد أنّ فيلبي جاسوس سوفياتي... وقد برز وقتها دليل جديد على علاقة كيم فيلبي بالمخابرات السوفياتيّة... فقد كانت إحدى رفيقاته بالحزب الشيوعي سيّدة يهوديّة تدعى فلورا سلومون، وهي بنفس الوقت صديقة كيرنسكي، وكانت تعلم بصلة الرفيق فيلبي بالمخابرات السوفياتيّة، بل وكانت تتابع رسائله الصحافيّة التي كان يرسلها وتنشر تباعًا في جريدة الأوبزرفر البريطانيّة من بيروت، فغاظتها جدًّا الرسائل التي كانت تنتقد إسرائيل أشدّ الانتقاد، وتصفها بالمعتدية، وبذلك لم يأت بشيء من عنده... كما غاظها أن يأخذ فيلبي جانب العرب والإشادة بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر وبأعماله في تلك الحقبة. فقرّرت أن تكشف أمر فيلبي، وبالفعل، أبلغت معلوماتها للمخابرات البريطانيّة، وبذلك انقطع الشكّ باليقين، وتأكّدت عمالة فيلبي للسوفيات بما لا يقبل الشكّ.

بعد أن تأكّدت عمالة كيم فيلبي للمخابرات السوفياتيّة، أسقط في يد روجر هوليس، الذي كان قد أصبح "مديرًا للمخابرات البريطانيّة"، وهو لا يستطيع بحكم منصبه أن

يرفض إجراء التحقيق مع كيم فيلبي، وموافقته ضروريّة للقيام به. وكان وصول روجر إلى رئاسة المخابرات البريطانيّة بمثابة تمكّن أوّل جاسوس في التاريخ من أن يصبح مديرًا لمخابرات بلده، وهو يخدم ويتجسّس ويعطي ولاءه لبلد معاد...

كان ترشيح روجر لرئاسة المخابرات البريطانيّة من قبل رئيسه المباشر السير ديك هوايت، وموافقة رئيس الوزراء البريطاني في حينه أنطوني إيدن شخصيًّا. ولذلك كان روجر مضطرًّا لمواجهة فيلبي، كذلك علم فيلبي بما يدور من حوله وبشهادة السيّدة اليهوديّة... فهل كانت معرفة كيم بما يحوم حوله مجرّد حدس؟ أم أنّه عرف بذلك نتيجة لتنبيه من شخص ما كلّف بذلك؟

إنّ الأحداث المتّصلة بهذه القضيّة تتّهم روجر بأنّه الشخص الذي أنذر كيم وأعلمه بانكشاف أمره.

كان فيلبي في بيروت وقتئذ، ولا بدّ من إرسال محقّق مقتدر للوصول إلى الحقيقة، فتقرّر إرسال "آرثر مارتن"، ولكن مدير المخابرات البريطانيّة روجر، وهو عميل مثل فيلبي، عمد إلى تغيير المحقّق الوحيد تقريبًا الذي يمكنه أن يحمل فيلبي على الاعتراف بعمالته.

رغم الضجّة التي انفجرت داخل المخابرات البريطانيّة، فإنّ مديرها روجر تمكّن بحكم سلطته من تنفيذ كلمته وتغيير المحقّق، ثمّ وافق على إجراء تحقيق ملطّف مع كيم فيلبي في بيروت دون اللجوء إلى استدراجه إلى لندن أو خطفه من بيروت، وكان لديهم الإمكانيّة للخطف، ولكنّه تُرك في بيروت ليتمكّن من الفرار... وبدئ مع فيلبي تحقيق ملطّف يبيّن أنّه كان يعلم برغبة المخابرات البريطانيّة بالتحقيق معه، من قَبل، وقد استعدّ فيلبي للإجابة على جميع الأسئلة... والآن، وبعد هذه السنوات، تأكّد أنّ

فيلبي لم يهرب من التحقيق قبل هروبه الأخير إلى موسكو، لئلاّ يُشكّ بأنّ هنالك شخصًا آخر قد أبلغه بما حدث...

أثناء التحقيق الهادئ مع فيلبي في بيروت، عرض المحقّق عليه أن يُعطى حصانة من توجيه أيّ اتّهام إليه، إذا اعترف وتعاون مع المخابرات البريطانيّة في كشف ماضيه ومن يتعامل معهم. بكلّ احتراف الجاسوس اعترف فيلبي بالقليل من ماضيه غير الضار، أي أنّه اتّصل بالمخابرات السوفياتيّة وعرضوا عليه العمل معهم فوعدهم بدراسة الموضوع، ولكنّه أنكر أنّه تعاون معهم في ما بعد، كما وأنّه حاول تضليل التحقيق بإعطاء المحقّق معلومات تافهة ومضلّلة، ثمّ طلب وقتًا للتفكير بشأن القبول بالحصانة والعودة بملء إرادته إلى لندن. لكنّه، وهنا القول الصحيح، كان قد استنفد خلال سنواته الثلاثين كعميل مزدوج للمخابرات البريطانيّة التي يعمل لها، والمخابرات السوفياتيّة التي كان يعمل لها جميع أنواع العمالة، وأعطي الضوء الأخضر للاستراحة في كنف المخابرات السوفياتيّة وضيافتها حتّى نهاية العمر، وكا حصل بالفعل، فقد نجح في الهروب من بيروت في ٢٣ كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٣ إلى موسكو.

أمّا بالنسبة إلى روجر هوليس، ففي الوقت الذي كان تصرّفه في عمله بالمخابرات البريطانيّة مثار شكّ على الأقلّ بالنسبة للبعض، أو إثباتًا على خيانته في ما بعد بالنسبة للبعض الآخر، فقد لاحظنا أنّ مركزه في المخابرات البريطانيّة كان يرتفع ويترسّخ برغم هذه الشكوك الآخذة بالتزايد، إلى أن أصبح نائبًا لرئيس المخابرات، ثمّ ليصبح بعد ثلاث سنوات مديرها العام، برغم الشكوك الحائمة حوله، حتّى قيل إنّ مدّة إدارته للمخابرات البريطانيّة التي امتدّت تسع سنوات، كانت، ولا سيّما في القسم الثاني منها، فترة صراع عنيف ظاهر حينًا وخفيّ حينًا آخر بين بينه وبين المشكّكين.

لقد استمرّ عمل روجر هوليس في المخابرات البريطانيّة تسعة وعشرين عامًا كانت من أكثر الفترات أحداثًا في تلك الحقبة الخصبة، وكان طبيعيًا أن تكون للمخابرات البريطانيّة علاقة بتلك الأحداث، كما كان طبيعيًا بالتالي أن يكون لروجر موقفًا من كلّ منها، أو تصرّفًا معيّنًا حيالها، ممّا يفسح أمام خصومه ومتّهميه بالعمالة والخيانة مجالاً جديدًا لتعزيز الشكوك.

الواقع في هذا الإطار أنّ جميع تصرّفات روجر كانت عرضة للريبة قبل استقالته، ثمّ كانت موضوعًا لأكثر من تحقيق بعد ذلك، ثمّ حكاية طويلة وخطيرة تثير اهتمامات الحكومة البريطانيّة بالذات بعد وفاته ببضعة أعوام، وعرضًا تفصيليًا لأعمال من وصفته المخابرات المركزيّة الأميركيّة بـ"أخطر الجواسيس ضررًا في التاريخ".

فقد ظلّت المعلومات السريّة الخطيرة تتسرّب إلى المخابرات السوفياتيّة أوّلاً بأوّل وعلى مدار الأيّام والشهور والسنين. هكذا توحي الأحداث المتوالية بالنسبة لعدد من رجال المخابرات البريطانيّة، ولكنّ روجر نفسه كان يرفض إجراء التحقيقات مع أحد من منتسبي المخابرات البريطانيّة بحجّة أنّ توجيه التهم مهين للعاملين في هذه المخابرات ويؤدّي إلى تثبيط العزائم وتدمير المعنويّات، إن لم يؤدّ إلى اضطراب العلاقات بين الدول الصديقة لبريطانيا، وكثيرًا ما سخر من القول بوجود عملاء للسوفيات ضمن المخابرات البريطانيّة. وهو نفسه الذي وقف بوجه التوسّع في التحقيق مع أحد رجال البحريّة "بلاي هوتون" عن علاقته بالمخابرات السوفياتيّة بعد أن تلقّت المخابرات الأميركيّة وشاية عنه من أحد عملائها في بولونيا ويدعى "ميكل غولينفسكي" ولقبه "القنّاص"، الذي أكّد أيضًا على وجود عميل كبير للسوفيات في المخابرات البريطانيّة. وكان مبرّر "المدير العام" روجر لمعارضة التحقيق الموسّع، أنّ ذلك قد يضرّ بمنظّمة حلف شمال الأطلسي - الناتو، لأنّه

سيتناول أشخاصًا آخرين أيضًا، ويفضح عددًا من كبار المسؤولين الغارقين في حياة الشذوذ الجنسي.

كما أُبلغ روجر عن وجود عميل بريطانيّ لتشيكوسلوفاكيا ينقل المعلومات عن الصواريخ البريطانيّة، ولكنّه كمدير للمخابرات البريطانيّة لم يفعل شيئًا، مع العلم بأنّه أُلقي القبض على العميل وأُدين قضائيًّا بهذه التهمة وأودع السجن.

كذلك جرى اعتقال أعضاء حلقة التجسّس في البحريّة البريطانيّة بقيادة مسؤول في المخابرات السوفياتيّة حمل إسمًا مزوّرًا هو "غوردون لونسدايل"، وأدّت التحقيقات التي أجرتها المخابرات البريطانيّة إلى معرفة تحرّكات لونسدايل واتّصالاته، ثمّ إلى مداهمته وهو يجري اتّصالاً لاسلكيًّا مع إدارة المخابرات السوفياتيّة في موسكو. وكان المحقّقون ينوون مواصلة التكتّم حول الموضوع للكشف عن أعضاء آخرين واعتقالهم، ولكنّ الخوف من تسرّب النبأ إلى السوفيات، "بَتَر" عمليّة التحقيق وفرض الإسراع باعتقال لونسدايل. ولعب المدير العام روجر دورًا مهمًّا في بتر التحقيق وإعلانه وإنذار من يجب إنذاره قبل توسّع التحقيق.

حتّى عام ١٩٦٤، كان عدد الذين افتضح أمرهم من أفراد الحلقة الخماسيّة الذين يعملون للمخابرات السوفياتيّة أربعة هم: "ماكلين"، و"بيرغيس"، و"فيلبي"، و"بلنت"، وبقي الخامس الذي كان معروفًا أنّ اسمه المتداول في الاتّصالات السريّة هو "إيلي"، وهو روجر هوليس بالذات. إنّ اعترافات بلنت لم تثبّت ذلك ولم تنفه. ثمّ إنّ القرائن التي أثبتت ذلك على وجه اليقين والقطع ودون أدنى شكّ ليست متوفّرة، ولكنّ استمرار انتقال المعلومات السريّة إلى المخابرات السوفياتيّة أثبت وجود رجل خامس وفي مركز عال في المخابرات البريطانيّة. والدليل على ذلك تطوّرات لا يمكن أن يعرفها غير روجر أو من هو في مركزه.

وجدت المخابرات البريطانيّة صعوبة إلى درجة الاستحالة في تجنيد مواطن سوفياتيّ واحد من الجالية السوفياتيّة أو من أعضاء السفارة السوفياتيّة في لندن ليعمل لمصلحتها أثناء رئاسة روجر للمخابرات البريطانيّة. وتفسير ذلك أنّ روجر نفسه، ومنذ كان يرأس قسم مكافحة المخابرات السوفياتيّة إلى أن رأس المخابرات البريطانيّة كان يبلّغ المخابرات السوفياتيّة عن مثل هذه المحاولات. وبهذه المناسبة شهد ضابط مخابرات سوفياتي كان على صلة بالمخابرات الأميركيّة بأنّ الجالية السوفياتيّة في لندن لم يكن لها قسم خاصّ بها، كما هي الحال بالنسبة للجاليات السوفياتيّة في دول أخرى. ولا بدّ من أنّ روجر نفسه كان هو المخبر بالنسبة لأفراد هذه الجالية... ومَن غيره في مركزه السابق كرئيس لقسم المكافحة، أم في مركزه الأخير، كمدير عام للمخابرات، يستطيع أن يحصل على أسماء الرجال السريّين الذين يعيّنون من قبل المخابرات البريطانيّة لمراقبة المشتبه بهم من الروس؟ إنّه روجر الذي كان ينقل هذه الأنباء للمخابرات السوفياتيّة. وقد تأكّدت المخابرات البريطانيّة من أنّها لم تكن تتّخذ إجراءات لمراقبة أيّ مسؤول سوفياتيّ في لندن حتّى يقوم هذا المسؤول بتغيير كلّ نشاطاته السابقة بما في ذلك نقل السكن حالاً إلى سكن جديد غير معروف من قبل المخابرات، "ممّا يؤكّد على معرفته بأنّه كان تحت مراقبة المخابرات".

وإذا لم نأخذ بمعلومات نقلها عملاء ومخبرون في سفارات غربيّة في دول شرقيّة، أو مواطنون سوفيات عاملون في المخابرات السوفياتيّة ثمّ انقلبوا ولجأوا إلى الغرب، عن وجود موظّف كبير في المخابرات البريطانيّة يعمل لمصلحة المخابرات السوفياتيّة، فمن كان يستطيع أن يعرف بوجود ثقب صغير بقدر رأس دبّوس في جدار السفارة السوفياتيّة في لندن للتنصّت على السفارة؟

إنّ اكتشاف ذلك بالصدفة مستحيل، فكيف إذا كان اكتشافه قد تمّ بسرعة؟ ومن المعروف أنّ لدى المخابرات السوفياتيّة في موسكو ملفًا كبيرًا عنوانه "معلومات عن المخابرات البريطانيّة"، ومن الطبيعي أن يكون روجر هو الذي وفّر هذه المعلومات لأنّ المعلومات التي تجمّعت حول ذلك الملفّ تشير إلى أنّه هو "الرجل الخامس" في حلقة الجواسيس الكبار.

كان نشاط روجر لمصلحة المخابرات السوفياتيّة يتجاوز لندن ليصل إلى السفارتين السوفياتيّين في أوتاوا بكندا وكانبيرا في أستراليا. وفي هذا الوقت، كان روجر قد أصبح نائبًا لمدير المخابرات البريطانيّة، وهذا المركز يتيح له الاطّلاع على معلومات سريّة وخطيرة ومهمّة.

شبّ حريق في السفارة السوفياتيّة في كندا، ولمّا أرادت السلطات السوفياتيّة إعادة بناء سفارتها، استغلّت السلطات الكنديّة والمخابرات البريطانيّة هذه المناسبة فدسّت بين العمّال الذين قاموا بإعادة البناء بعض خبراء المخابرات لإدخال أجهزة تنصّت سريّة في البناء. وقد تمّ وضع الأجهزة والميكروفونات أثناء البناء وصبّ الباطون المسلّح، لكنّه تبيّن بعد وقت أنّ السلطات السوفياتيّة عرفت واكتشفت أجهزة التنصّت هذه، فحضر فريق من الخبراء السوفيات وحصروا أماكن الميكروفونات، ومن ثمّ أجروا تعديلاً في غرف المخابرات وأمكنة اجتماعات السفير بهم، وبعد ذلك أصبحت المخابرات السوفياتيّة ترسل عبر هذه الأجهزة معلومات لا قيمة لها تضليلاً للمتنصّتين... إنّها المخابرات المضادّة.

من جهة ثانية، علمت المخابرات الأستراليّة أنّ السوفيات يعملون على قلب حكومة أستراليا، فعمدت هذه المخابرات إلى وضع أجهزة تنصّت في السفارة السوفياتيّة، خاصّة في مكتب رئيس فرع المخابرات. كانت هذه الأجهزة تدار بتموّجات إشعاعيّة

من أمكنة مجاورة للسفارة، ولكنّ مخابرات السفارة السوفياتيّة كشفت ذلك وتركت هذه الأجهزة تعمل... إنّما في نقل معلومات غير ذات قيمة، بحيث أضاع الأستراليّون وقتهم وجهدهم سدى. وبذلك فشلت الحكومة الأستراليّة في محاولاتها، وقد وافق رئيس الحكومة الأستراليّة على تخصيص مراقبين سرّيّين من المخابرات الأستراليّة لأفراد البعثة السوفياتيّة الدبلوماسيّين في أستراليا، ولكنّ المراقبة لن تسفر عن نتيجة لأنّ روجر رئيس المخابرات البريطانيّة قد علم بذلك وسرّب الخبر إلى السوفيات.

كما استطاع روجر مدير المخابرات البريطانيّة إقناع وزارة الداخليّة بإعلان أنّ السلطات البريطانيّة ستعتقل ماكلين وبيرغيس إذا مرّا ببريطانيا، وكان العميلان سيمرّان بلندن وهما في طريقهما إلى مؤتمر في كوبا، وقد لا يكون مثل هذا الإعلان ضروريًّا لتحذيرهما، ولكنّه يعتبر نوعًا من التنبيه من المدير العامّ للمخابرات البريطانيّة الذي كان يقضّ مضجعه أدنى احتمال لوقوع أحدهما في أيدي مخابرات بلاده، لأنّ ذلك سيؤدّي بطبيعة الحال إلى كشفه وفضحه.

***

في سنة ١٩٦٥، وبعد حياة حافلة وخدمة المخابرات البريطانيّة من موظّف حتّى وصوله إلى مرتبة المدير العام، استقال روجر هوليس من إدارة المخابرات البريطانيّة ليعيش حسب فدّعائه في حينه "حياة هادئة"، وبعد ذلك لوحظ أنّ المخابرات البريطانيّة، ولأوّل مرّة منذ استقالته من منصبه، استطاعت أن تحقّق بعض الانتصارات على المخابرات السوفياتيّة في حربهما السريّة الدائمة والمستمرّة...

أوّل ما يُشار إليه هنا هو اعتقال المخابرات البريطانيّة لجاسوس للمخابرات السوفياتيّة "جورج بلايك"، الذي كان يعمل في المخابرات البريطانيّة نفسها، وقد تمّت

عمليّة اصطياده واعتقاله في الأيّام الأخيرة من خدمة روجر وبدون علمه، وقد فوجئ بها ولم يستطع إنقاذه.

بعد ذلك عمدت السلطات البريطانيّة إلى طرد مائة ضابط مخابرات سوفياتي كانوا يعملون في السفارة السوفياتيّة في لندن، وقد عرفت أسماؤهم من عميل بريطاني في المخابرات السوفياتيّة جرى التعامل معه بعد استقالة روجر.

حتّى الجاسوس الألماني الشرقي "غونتر غيوم"، مستشار المستشار الألماني السابق فيلي برانت، لم يكن من الممكن كشفه لو بقي روجر على رأس المخابرات البريطانيّة لثبوت صلة المخابرات البريطانيّة في كشفه.

يؤخذ على روجر أنّه لم يجر أيّ تحقيق بوفاة "هيو غايتسكيل" بمرض غامض، في وقت أثبت فيه خبراء المخابرات البريطانيّة أنّ المخابرات السوفيّاتيّة دسّت له جرثومة في القهوة والكعك الذي قدّمته له أثناء زيارته للقنصليّة السوفياتيّة في لندن لأخذ تأشيرة لزيارة الاتّحاد السوفياتي. ومن المعروف أن غايتسكيل كان المرشّح الأقوى لزعامة حزب العمّال ومعروفًا باتّجاهاته اليمينيّة في الحزب، وحرصه على التعاون العسكري والنووي مع الولايات المتحدة، ويُعتبر اغتياله من قبل المخابرات السوفياتيّة حدثًا تاريخيًا في حزب العمّال، أتاح لليسار البريطاني فرصة القبض على زمام الأمور.

في معرض الصراع الداخلي في بريطانيا بين حزبَي المحافظين والعمّال، وقعت فضيحة جنسيّة بطلها وزير الحربيّة السابق "جون بروفوميو" بسبب علاقته بفتاة شابّة تعمل في البغاء الراقي، وتُطلب بالهاتف، إسمها "كريستين كيلر"، والقصّة باتت معروفة لا سيّما وقد نشرت الفتاة قصّتها في الصحف البريطانيّة الباحثة عن الفضائح. وأسفرت هذه الفضيحة الأخلاقيّة في ما بعد عن:

١ ـ تعرّض الحكومة البريطانيّة للانتقاد في مجلس العموم.

٢ ـ إستقالة الوزير جون بروفوميو من وزارة الدفاع.

٣ ـ طلب مغادرة الملحق العسكري السوفياتي "يوجين إيفانوف" خلال ثلاثة أيّام، وفعلاً غادر لندن في حينه.

٤ ـ إستقالة مدير الفرع MI-6 في المخابرات البريطانيّة وليس المدير العام روجر هوليس.

٥ ـ إنتحار المخبر الأساسي وهو "ستيفان وارد".

٦ ـ الشهرة التي اكتسبتها صاحبة الفضيحة كريستين كيلر.

المهمّ في هذه الفضيحة موقف مدير المخابرات البريطانيّة روجر واهتمام المخابرات السوفياتيّة بها، في معرض السعي للحصول على معلومات بشأن تسليح ألمانيا الغربيّة في حينه بأسلحة ذريّة. ويبدو أنّ أهميّة القصّة نشأت عندما ارتبطت كريستين كيلر بعلاقة جنسيّة مع الملحق العسكري السوفياتي في لندن "يوجين إيفانوف"، وكانت تدعوه بالفحل. ونتيجة هيامها به، أخذت تقصّ عليه أثناء ساعات المتعة والجنس ما تعرفه عن أصدقائها، ومنهم السير جون بروفوميو وزير الدفاع البريطاني، فطلب منها الحصول من الوزير المذكور على معلومات حول تزويد بريطانيا لألمانيا الغربيّة بالأسلحة الذريّة. ولكنّ وزير الدفاع انتبه للفخّ السوفياتي ورفض أن يقول ما يعلمه، ففشلت المحاولة السوفياتيّة هذه، سيّما وأنّ جهات أخرى غير المخابرات وضعت يدها على القضيّة، وعملت على إفشال المحاولة السوفياتيّة. وكانت النتيجة بالنسبة للسفارة السوفياتيّة أن طلبت من ملحقها العسكري مغادرة لندن بناء لطلب وزارة الخارجيّة البريطانيّة، وانتهى الأمر عند هذا الحدّ. وفي نظر متّهمي

روجر مدير المخابرات أنّ المخابرات السوفياتيّة، لم تكن تستطيع توجيه القضيّة لصالحها على أحسن ممّا فعل روجر مدير المخابرات البريطانيّة.

بعد خمس سنوات من استقالته، تجمّع لدى المخابرات البريطانيّة عدد من الأدلّة ضدّه، وقد ضمّت جميعها بشكل ملفّ عهد به إلى خلفه في رئاسة المخابرات البريطانيّة للتحقيق معه للكشف عن الواقع ليس إلاّ. والظاهر أنّ هذا التحقيق الذي استمرّ بضع جلسات خلال يومين أثبت رباطة جأش روجر في جوّ التحقيق المكهرب وليس براءته، لأنّه اعترف بعلاقاته ببعض الشيوعيّين في جامعة أكسفورد، كما اعترف بصلته بأغنيس في شنغهاي، لكنّه عجز عن تبرير رغبته في الانضمام إلى سلك المخابرات، كذلك لم يكشف بوضوح عن تحرّكاته ونشاطاته منذ عودته من الصين، ممّا أضفى الغموض على تحرّكاته خلال هذه الفترة، كذلك تناسى عنوان منزله في أولى مراحل حياته بعد العودة من الصين، وأنكر معرفة أحد الموظّفين في المخابرات البريطانيّة مع أنّه كان صديقًا حميمًا للجاسوس الآخر بيرغيس. والغريب في الأمر أنّه لم يعثر له على ملفّ في كلّ تلك السنوات.

أمّا بالنسبة لخلافه مع المحقّق المقتدر "آرثر مارتين"، ورفض تكليفه بالتحقيق مع كيم فيلبي فأجاب روجر في التحقيق: إنّ سبب ذلك يعود إلى ميول هذا المحقّق وأساليبه الشبيهة بميول الغستابو، أي المخابرات الألمانيّة أثناء حكم هتلر. كذلك تبيّن من هذا التحقيق أنّ روجر كان يعارض إجراء تحقيقات بشأن الاختراق السوفياتي للمخابرات البريطانيّة، كما تبيّن أنّ ذاكرته كانت "وفق" رغبته ومصلحته، تخونه في مناسبات معيّنة من التحقيق، أو حين تكون أجوبته غير مقنعة، ولا تخونه في مناسبات أخرى. وأمّا بالنسبة لمحاكمته كرئيس للمخابرات البريطانيّة وله حصانة أقوى من حصانة رئيس مجلس العموم البريطاني، فقد ارتأت الحكومة البريطانيّة أنّ ذلك لا

يخدم مصلحة الوطن، كما أنّ المحاكمة سوف تضرّ بالعلاقة مع الولايات المتّحدة الأميركيّة التي كان لديها دائمًا من يشكّك بالمخابرات البريطانيّة ويدعو إلى الاحتياط منها وعدم التعاون معها.

أثناء التحقيق مع رئيس المخابرات السابق، استمرّ روجر محافظًا على رباطة جأشه، ولم يتراجع لأنّه كان خبيرًا ويعلم أنّ "القانون البريطاني" لا يحاكمه إذا لم يعترف، ولذلك أصرّ على الصمت أو النسيان أو الإنكار. ولعلّ أبرز ما يثبت هذه القدرة على رباطة الجأش والانضباط، هو حديث جرى بين روجر وأحد المحقّقين على الوجه التالي:

- قال روجر للمحقّق: لماذا تعتقد أنّني جاسوس؟

بلع المحقّق ريقه وهو يحقّق مع رئيسه السابق ثمّ روى له الأسباب التي تدفعه على هذا الاعتقاد ثمّ سأله:

- هل تنكر هذه الحقائق الثابتة؟

وهزّ روجر كتفيه وقال:

- إنّ كلّ ما أستطيع أن أقوله هو أنّني لست جاسوسًا.

فقال المحقّق: وهل لديك ما يثبت هذا النفي؟

ردّ روجر على ذلك وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة:

- كلاّ، وهل تحسب أنّك وضعت القيود في يدَي؟

ثمّ عاد إلى منزله بمنتهى الحريّة وكأنّ شيئًا لم يكن.

***

سنة ١٩٧٣، توفّي روجر هوليس إثر نوبتين قلبيّتين، وهو بالطبع عالم بما كان يدور حوله من شبهات وبإصرار الكثيرين على إثبات هذه الشبهات. وما كان لوفاته أن تنهي القضيّة. ومرّة أخرى أثيرت قضيّة اتهام روجر هوليس بالجاسوسيّة بعد وفاته وبقوّة وبتحريض من رجال المخابرات البريطانيّة. وكان لا بدّ من تحقيقات جديدة تتناول التحقيقات السابقة كلّها بدون استثناء في محاولة جديدة للبتّ بالموضوع. وفي سنة ١٩٧٤ قامت لجنة ثانية بعمليّة التحقيق بشأن التهمة الموجّهة إلى روجر وابتدأت عملها بمقابلات مع الأحياء وأعادت النظر بملفّات التحقيق السابقة، فأثبتت وجود عميل أو عميلين على الأقلّ في دوائر المخابرات البريطانيّة من غير تسمية. وقد استمرّت التحقيقات من قبل هذه اللجنة، وهي برئاسة اللورد "تريند"، سنة كاملة. فشملت أعمال اللجان السابقة وملفّات موظّفين في مراتب مختلفة، وتبيّن لها أنّ المخابرات البريطانيّة كانت في الواقع مخترقة حتّى النخاع، لكنّ تحديد الأشخاص لم يكن ممكنًا. وإنّ القرائن لم تكن لتدين روجر على وجه القطع واليقين ودون أدنى شبهة... كما أنّها لم تكن لتبرّئه. والملاحظ أنّ اللجنة قرّرت عدم نشر التحقيقات والملابسات. وفي رأي البعض أنّ تكليف اللورد تريند بإجراء التحقيق كان يستهدف لفلفة القضيّة، والجدير بالذكر أنّ التقرير النهائيّ لم يُنشر كلّه ولا يُسمح بنشره حتّى سنة ٢٠٠٤ أي بعد انقضاء ثلاثين عامًا على إجراء التحقيق حسب القوانين البريطانيّة.

بعد هذا كلّه، قد يجدر التساؤل: هل نجح الخصوم بإثبات التهمة على روجر هوليس؟ وهل كان حقًّا عميلاً مزدوجًا؟ وهل أدّت التحقيقات للوصول إلى الرجل الخامس في شبكة الخمسة؟ وهل انتهت الاختراقات حقًّا؟ غير أنّ اللجنة لم تستطع أن تعتبر كلّ تلك الوقائع التي سُردت كافية للإدانة والإثبات. أمّا العناصر التي يمكن الاستناد إليها لإدانة روجر هوليس فتتلخّص بعدّة نقاط أبرزها:

أوّلاً: إعترافات بعض رجال المخابرات السوفياتيّة الذين لجأوا إلى الغرب.

ثانيًا: وجود روجر هوليس في مركز يستطيع معه أن يعرف كلّ شيء ومعرفة السوفيات بالتالي بالكثير ممّا كان يدبّر للسفارات السوفياتيّة.

ثالثًا: معارضة روجر للتحقيقات الموسّعة عند ظهور شبهات في هذا المجال.

رابعًا: لم يذكر روجر هوليس صداقاته وعلاقاته القديمة وحتّى عنوان منزله وهذا منتهى الدهاء.

خامسًا: إمتناعه عن تقديم العملاء السوفيات لدى اعتقالهم إلى القضاء.

سادسًا: إمتناعه أيضًا عن اتّخاذ التدابير المتوقّعة في حالات معيّنة.

كان كلّ ذلك ممّا زاد الشكّ بروجر هوليس، ولعلّ أبرز مبرّر لاتّهامه هو أنّ المخابرات البريطانيّة لم تستطع أن تحقّق أيّ نجاحات في مكافحة الجاسوسيّة والمخابرات السوفياتيّة أثناء إدارته للمخابرات البريطانيّة، بالمقارنة مع النجاحات التي تحقّقت في هذا المجال بعد استقالته، كلّ ذلك كان يدفع إلى التأكيد على عمالته للمخابرات السوفياتيّة.

رئيسة الوزراء البريطانيّة مارغريت تاتشر قالت إنّ مبرّر إجراء التحقيقات بشأن السير روجر هوليس حتّى بعد وفاته، كان لوجود دلائل، لا إثباتات، تشير إلى وجود عميل روسيّ في مركز عالٍ في المخابرات البريطانيّة.

وقد اعتبرت صحيفة التايمز اللندنيّة هذا التصريح من تاتشر إعترافًا رسميًّا بشكوك خطيرة حول السير روجر هوليس، لم يؤدّ التحقيق إلى نفيها[1]...

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٩) ٣٤١ ـ ٣٧٠.

فضيحةُ العَميل المزدَوج جيفري أ. برَايم

قرّر الرئيس الأميركيّ جيمي كارتر تزويد إسرائيل صورًا يلتقطها القمر الصناعيّ KH-11 في آذار ـ مارس ١٩٧٩، فقد سُمح لإسرائيل باستخدام لغة الوصول إلى معلومات محدّدة من قمر التجسّس.

إلاّ أنّ بعض الأميركيّين المعنيّين بالأمر أفادوا بأنّ هذا الاتّفاق كان أكبر من أن يقبل به مسؤولو الاستخبارات البريطانيّة الذين استشاطوا غيظًا. فكيف يمكن لإسرائيل الوصول إلى معلومات استخباراتيّة كانت محظّرة حتّى عليهم، وهم الحلفاء في الحرب العالميّة الثانية وزملاء في حلف شمال الأطلسيّ؟!

كان القمر KH-11 يعتبر قمّة ما تمّ التوصّل إليه في مجال تكنولوجيا استكشاف الفضاء. والعنصر الأساسيّ في هذا القمر الصناعيّ الذي يبلغ طوله حوالى العشرين مترًا، عبارة عن مرآة موجّهة إلى أسفل الأرض، ومركّزة على آلة تصوير تدور من جهة إلى أخرى تمامًا كمنظار البريسكوب المزوّدة به الغوّاصات، ممّا يمكّن القمر الصناعيّ من مراقبة نقطة محدّدة وهو يتحرّك في جوّ الأرض، فيلتقط صورًا مجسّمة على درجة مذهلة من الوضوح والنوعيّة، يمكن تحسينها أكثر بواسطة الكومبيوتر.

أفاد بعض المسؤولين الأميركيّين أنّ البريطانيّين حُرموا من الاستفادة من المعلومات الاستخباراتيّة بشكل كامل بسبب القلق من تسرّب كبير داخل اتّصالات مؤسّسة الاستخبارات البريطانيّة المعروفة باسم "المقرّ العامّ لقيادة اتّصالات الحكومة". ففي أواخر عهد إدارة الرئيس الأميركيّ جيمي كارتر علم مسؤولو الاستخبارات

الأميركيّون أنّ السوفيات على علم بوجود الـ KH-11 وبقدراته، وخيّمت الشكوك في أنّ مسؤولاً رفيع المستوى داخل الاستخبارات البريطانيّة كان يسرّب معلومات فنيّة على جانب كبير من الأهميّة إلى موسكو. وفي خريف ١٩٨٢، أُوقف موظّف سابق رفيع المستوى في المقرّ العام، ويُدعى "جيفري أ. برايم"، من مدينة "شلتنهام"، لتُهم جنسيّة موجّهة ضدّه. وفي سياق التحقيق اعترف بنهاية المطاف بأنّه كان يتجسّس لحساب السوفيات. وأفادت السلطات البريطانيّة أنّ برايم الذي حُكم عليه بالسجن ٣٥ عامًا، تمكّن من الوصول إلى "معلومات في غاية السريّة". وأفادت تقارير صحافيّة بريطانيّة بأنّ كبار المسؤولين البريطانيّين كانوا على علم بخيانة برايم قبل سنتَين من اعتقاله. إلاّ أنّهم أخفوا حقيقة الأمر عن زملائهم الأميركيّين. وقد أدّت هذه الحادثة إلى توتّر لم يكن بالإمكان تفاديه بين أجهزة الاستخبارات لدى الحليفين. وقد قال أحد المسؤولين الأميركيّين: "كنّا نمنع بعض المعلومات عن البريطانيّين. كنّا نعلم أنّهم يعانون من مشاكل ممّا يفسّر حساسيّتنا وحرصنا الشديدَين بشأن المعلومات التي زوّدناهم بها".

كان هذا الموقف الأميركيّ الصارم أكثر من تغيّر مفاجئ في التعامل مع البريطانيّين. فقد حُكم على موظّف بسيط في الـ CIA يدعى "وليم ت. كامبايلز" بالسجن ٤٠ عامًا بعد أن ثبتت إدانته عام ١٩٧٨ بأنّه باع إلى السوفيات كتيّبًا فنيًّا بالغ السريّة عن كيفيّة استخدام الـ KH-11، لقاء مبلغ ثلاثة آلاف دولار. إلاّ أنّ الكتيّب لم يحوِ صورًا للـ KH-11، لذلك يُعتقد أنّ السوفيات لم يعرفوا تمامًا طبيعة آلات التصوير المزوَّد بها القمر الصناعيّ. وقد أثارت محاكمة كامبايلز عددًا من الأسئلة المحرجة حول المقرّ العام للـ CIA، مكان عمل كامبايلز، إذ فقد أكثر من ١٦ نسخة من الكتيّب الفنّي للـ KH-11. وأفاد بعض الشهود أنّه كان بإمكان كامبايلز، وغيره من

الموظّفين، مغادرة المقرّ العام من دون تفتيش من قبل الأجهزة الأمنيّة المولجة بحماية المبنى.

كان لإسرائيل بالفعل، كما اعتقد البريطانيّون، نوايا مبيّتة في محاولاتها الدؤوبة للوصول إلى كلّ المعلومات للـ KH-11. إلاّ أنّ هذه النوايا لم يكتشفها بعض أعضاء إدارة الرئيس رونالد ريغن إلاّ في خريف ١٩٨١، فقد بدأت الخيوط تتجلي بعد شنّ الغارة على مفاعل "التويثة" النوويّ في العراق.

اشتبه عدد قليل من مسؤولي الاستخبارات البريطانيّة بأنّ إسرائيل كانت تستخدم صور الـ KH-11 ذات الدقّة المتناهية لاستهداف مفاعل تمّوز العراقي في التويثة، وأعربوا عن تذمّرهم من جرّاء ذلك لزملائهم الأميركيّين. وتذكّر أحد الأميركيّين المعنيّين بالأمر قائلاً إنّ البريطانيّين بادروهم بالقول: "لقد أعلمناكم أنّ هذا ما سوف يحصل". وقد زاد نجاح الغارة الإسرائيليّة، ويا لسخرية القدر، في شهرة نظام KH-11 إذ عُرضت صور القمر الاصطناعيّ الشديدة الوضوع التي التُقطت لمفاعل الأبحاث المدمَّر، على مكاتب صانعي القرار في واشنطن بعد ساعات قليلة من انتهاء العمليّة[1].

---

١ ـ هيرش سيمور م.، خيّار شمشوم، الترجمة العربيّة، مكتبة بيسان (بيروت،١٩٩٢) ص٩ ـ ١٠، ١٤، ١٩.

فَضيحَةُ شبَكَةِ التجسُّس البريطَانيَّة في قبرُص

قُدّم سبعة بريطانيّين عاملين في القوّات البريطانيّة في قبرص إلى المحاكمة في لندن. هؤلاء البريطانيّون عملوا في قسم التنصّت والتجسّس البريطانيّ المقام في قبرص، وقدّموا لمحكمة الجنايات التي لها صلاحيّة الحكم بقضايا التجسّس بجرم التجسّس الذي ارتكبوه أثناء عملهم على مدار عامين من شباط ـ فبراير ١٩٨٢ إلى شباط ـ فبراير ١٩٨٤.

ففي شبط ـ فبراير ١٩٨٢، دُعي البريطانيّ "تومبسون وارد" لحضور حفل خاصّ، أُعطي في خلاله مخدّرات جرّدته من إرادته حيث تمّ تصويره من قبل عميل مخابرات أجنبيّ في حالة بغاء وشذوذ... بعد ذلك جرى تهديده بكشف أمره إذا لم يقدّم بانتظام معلومات سريّة من موقعه في العمل، فقام بتسليم العميل الكثير من الوثائق تحت التهديد أولاً وتحت الإغراء ثانيًا، حيث كان العميل يدفع له عن كلّ وثيقة بريطانيّة رسميّة يحضرها له خمسين جنيهًا استرلينيًا. ثمّ طلب من تومبسون استقطاب رفاقه البريطانيّين المنغمسين معه في عمليّات الشذوذ، ففعل ما طُلب، واستقطب المزيد من رفاقه الذين تمّ تصويرهم أيضًا وابتزازهم وإرغامهم على التجسّس. وبلغ عدد الوثائق المسرّبة المئات، منها السريّة ومنها السريّة جدًّا، وتسلّم الجواسيس بدل هذه الخدمات النقود والمخدّرات والمزيد من حفلات الشذوذ بدون سبب إيديولوجي أو سياسي.

إعترف المتّهمون السبعة بأنّ العملاء الأجانب الذين ورّطوهم بالتجسّس كانوا ثلاثة تمّ وصفهم كالتالي:

الأوّل عربي واسمه "يونس"؛ الثاني روسي، واسمه "ألكسي"، وهو ضابط في جهاز المخابرات السوفياتيّة KGB؛ الثالث قبرصي واسمه "بابا أرتينا".

كما اعترف تومبسون بأنّه حضر إلى قبرص في عام ١٩٧٩، منقولاً إلى قسم التنصّت والتجسّس في القاعدة البريطانيّة، وأنّه التقى في شباط ـ فبراير ١٩٨٢ بشخص عربيّ يعمل تاجر خضروات وفواكه، يدعى يونس، في ناد ليليّ بمدينة لارنكا. وبعد الشرب سويًّا، سكر تومبسون للثمالة على الطريقة البريطانيّة. فذهب مع يونس إلى منزله حيث أُعطي مخدّرات وكحوليّات ذهبت بالبقيّة الباقية من عقله، ولم يشعر إلاّ وقد تمّت العمليّة معه كما يتمّ الأمر بينه وبين صديقه "كريستوفر"، الذي يقيم معه علاقات شاذّة. وبطبيعة الحال، جرى تصويره بمختلف أنواع التصوير: فيديو، سينما ١٦ ملم، تصوير فوتوغرافي ملوّن وعادي...

في اليوم التالي، أخبر يونس تومبسون بأنّ لديه الإثبات ما حصل تصويرًا وشهودًا وأنّ عليه إحضار تفاصيل عن عمله وإلاّ فإنّه سيُطلع المسؤولين عنه على تفاصيل ما حصل...

خاف تومبسون أن يُطرد من الخدمة في القوّات البريطانيّة... وبدأ يسرّب المعلومات السريّة إلى يونس في منزله، أو في النادي الليلي في لارنكا.

عمل تومبسون لمدّة شهرين منفردًا حتّى طلب منه يونس إحضار زملائه واحدًا بعد الآخر، لجرّهم "مثلما جرى معه"... إلى حفلات شاذّة ثمّ تصويرهم وابتزازهم وتوريطهم بالعمل في التجسّس، حتّى وصل عدد البريطانيّين الذين قبلوا بالممارسات الشاذّة ثمّ بالتجسّس والخيانة إلى سبعة. وكانت الحفلات تقام في منزل أحدهم... وهو مكان لسكن الجنود غير المتزوّجين داخل القاعدة البريطانيّة.

إستمرّت الحفلات حتّى خريق ١٩٨٣، حيث تعرّف تومبسون على أرتيست فيليبينيّة تدعى "جوبي"، كانت السبب في ما بعد بكشف الجميع.

إستمرّت عمليّة التجسّس لمدّة سنتين. وكان ألكسي السوفياتي زعيم الشبكة التي كانت تحصل على المعلومات، وقد أصبح تومبسون رئيسًا للمجموعة البريطانيّة وقناة التوصيل، وقبض النقود، واستلام المخدّرات... وهو المسؤول عن توزيعها على المجموعة، فهو الذي أسّسها أصلاً...

عندما تعرّف تومبسون على الفتاة الفيليبينيّة ، خافت المجموعة من أن تؤدّي العلاقة الجديدة إلى كشف سرّ أفرادها. فعقد أفرادها اجتماعات عديدة لمناقشة ما يتوجّب عليهم فعله إذا افتُضح الأمر... ونصحوا تومبسون بأن يترك صديقته الفيليبينيّة وهو الذي ليس بحاجة إلى نساء... فرفض... لأنّه متعلّق بها.

في هذا الوقت، انتهت مدّة خدمة تومبسون في قبرص، واستلم بطاقة الطائرة للعودة إلى لندن، ولكنّه لم يغادر قبرص لأنّه أراد قضاء أطول مدّة ممكنة مع جوبي، لدرجة عرضه الزواج عليها من دون أن يعلمها بتورّطه بالتجسّس لصالح الـ KGB.

أطال تومبسون بقاءه في قبرص، ما لفت نظر المخابرات البريطانيّة ـ الإنتلّجانس سرفيس في مقرّ عمله السابق الكائن قرب "أيوس نيكولاوس" في قبرص، لأنّ دوريّاتهم كانت تعرفه جيّدًا.

إستمرّت هذه الدوريّات تراه في المرابع الليليّة مع صديقته الفيليبينيّة فراقبوه وعرفوا عن علاقته بالفتاة الأجنبيّة. ومثل هذه العلاقة محرّم على موظّف المخابرات أو العاملين في أجهزة الأمن، إلاّ إذا كانت بعلم رؤساء العنصر المتورّط في العلاقة... على أن تكون العلاقة مفيدة للمصلحة العامّة، وخاصّة المخابرات البريطانيّة التي تحظّر على العاملين في حقل التجسّس البريطانيّ الاتّصال بالفتيّات الغربيات حتّى لا

يقعوا في حبائل العملاء الأجانب... أمّا الاختلاط الشاذّ... فلم يكن يثير انتباه المخابرات البريطانيّة...

إستمرّت المخابرات البريطانيّة في مراقبة تومبسون مراقبة هادئة دون أن تعلم عن تورّطه بالتجسّس شيئًا... وأخيرًا استُدعي إلى مقرّ المخابرات، وبعد مواجهته بالأمر، تخطّى التحقيق علاقته بجوبي فقط، بعد أن وُجدت معه وثائق سريّة... وسرعان ما انهار وبدأ يعترف عن بقيّة الحلقة التجسّسيّة. فتمّ ضبط الجميع وصودرت منهم وثائق تجسّس عديدة واعترفوا بما أقدموا عليه، وجرى نقلهم إلى لندن حيث قُدّموا إلى المحكمة.

أثناء المحاكمة، قال المدّعي العام البريطانيّ إنّ هذه القضيّة تتداخل فيها كلّ عناصر الفضيحة والإثارة، وإنّها على غاية من الأهميّة بالنسبة للدفاع عن بريطانيا. وتابع المدّعي العام قوله إنّ الابتزاز هو السبب الرئيسيّ لوقوع المجموعة في فخّ العملاء الأجانب، وإنّ أسباب الابتزاز هي حضور المجموعة حفلات الشذوذ الجماعيّة التي وصفها المدّعي العام بتفاصيلها المثيرة... كذلك فعلت الصحافة البريطانيّة نقلاً عن الشهادات التي قدّمت أثناء جلسات المحاكمة... وقال المدّعي العام موجّهًا كلامه لرئيس المحكمة:

"سيّدي الرئيس: إنّ رجالاً مثل هؤلاء، عملهم في القوّات المسلّحة يفرض عليهم السريّة والكتمان، يقيمون هذه الحفلات فيتركون أنفسهم عرضة للابتزاز، وهذه الحفلات محرّمة عليهم خاصّة وأنّهم يعملون في مجالات حسّاسة. والأمر نفسه ينطبق على تناول المخدّرات... لقد عملت هذه المجموعة في قلب أهمّ المواقع العسكريّة حساسيّة واستمرّ عملها دون انقطاع لعامين، قدّم أرادها خلال تلك المدّة معلومات سريّة جدًّا لعملاء أجانب، ممّا أحدث خسائر عظيمة للأمن العام البريطانيّ. وأضاف

المدّعي العام قوله إنّ المجموعة كانت تعمل في قسم الاتّصالات والتنصّت حيث يتمّ التعامل مع وثائق خطيرة، وإنّ ستّة من السبعة كانوا قادرين على الوصول لأدقّ المعلومات في مجال عملهم، وإنّه لو لم تكن الثقة فيهم مطلقة لما وصلوا لمركزهم هذا أبدًا. وأعرض لكم إنّ الحقيقة الثابتة الكبيرة هي أنّه حتّى شباط ـ فبراير ١٩٨٤، قدّم أفراد المجموعة الأسرار بحجم كبير وليس بشكل اقتصاديّ... بل في أكياس مليئة"...

وذكّر المحامي العامّ هيئة المحلّفين بأنّ هذه المعلومات مستقاة من المتّهمين فقط، ويجب عدم أخذها وكأنّها الحقيقة كاملة، خاصّة المعلومات المتعلّقة بالدولة الأجنبيّة المستفيدة من هذا التجسّس. إذ يُعتقد أنّهم لم يقولوا الحقيقة. وربّما اتّفقوا على أقوالهم قبل كشف أمرهم... وإنّ الشيء الوحيد الواضح أنّ أقوال المتّهمين بالتجسّس تشكّل نصف الحقائق، والنصف الآخر أكاذيب صارخة... وإنّ ذلك كان جزءًا من خطّة محكمة معدّة لتضليل المحقّقين وحماية العملاء الأجانب من الكشف... وإنّ ذلك عقّد التحقيق وأخّره... وفي النهاية طلب المحامي العامّ لهم أقصى العقوبات التي تسمح بها القوانين البريطانيّة ليكون ذلك رادعًا لهم ولغيرهم.

وجد المحلّفون أعضاء المجموعة مذنبين، فجرى الحكم على كلّ من الرجال الستّة بالسجن عشر سنوات لكلّ منهم، والحكم على السابع بالسجن خمس سنوات، نتيجة تجسّسهم وعدم إبلاغهم رؤسائهم لدى تورّطهم. إذ لو قام كلّ منهم بالإبلاغ عمّا تعرّض له حتّى لجهة الشذوذ، لكان أنقذ نفسه وبلاده، فإنّ المخابرات البريطانيّة تعلم أنّ الكثير من البريطانيّين يمارسون الشذوذ، وهي كانت لتعفي عن عناصرها في حال الإبلاغ عن محاولة ابتزازهم[1].

---

١ ـ الجزائري سعيد، ملفّ الثمانينات عن حرب المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٨٩) ص٢٧٨ ـ ٢٨٣.

نَشاطُ المخَابَرات البريطانيَّة في البَحر والجَوّ وفي العمليَّات النفسيَّة

تقوم فرقة المخابرات البريطانيّة بالاتّصال بقوّات الأمن المحليّة خلال عملياتها التي تقوم بها عبر البحار. وهناك باستمرار ضابطان وعدد من الرقباء المحقّقين جاهزون للتحرك خلال وقت قصير جدًّا إلى ما تبقّى من مستعمرات بريطانيّة.

أمّا وحدات المخابرات البحريّة والجويّة فتركّز أكثر على الإشارات والمراقبة. وباستخدامها لما تبقّى لديها من قواعد ساحليّة خارجيّة، وباستخدامها خصوصًا لسفن مجهّزة خصّيصًا لهذا الغرض، ترصد البحريّة حركة المرور البحريّ والاتّصالات البحريّة. ويعمل هذان الجهازان بشكل وثيق معًا في تتبّع حركة الغوّاصات، وتستخدم طائرات سلاح الجوّ الملكيّ حاليًا جهازًا لرصد التغيّرات المغناطيسيّة الصغيرة، وجهازًا من صناعة EMI يحتوي على مستكشف يعمل بالأشعّة تحت الحمراء يستطيع تلمّس فوارق درجة الحرارة في المياه في حدود ٠,٥ درجة مئويّة. وتملك الوحدة أيضًا أجهزة تصوير انحرافيّ قادرة على التصوير إلى أبعد من الفضاء الجويّ المتوفّر أمام الطائرة. وتجري معالجة الأفلام المصوّرة وغير المظهّرة في "المركز المشترك لمخابرات الاستطلاع الجويّ JARIC" في "هنتنغلون"، وهو عبارة عن وحدة خدمات متعدّدة يسيطر عليها سلاح الجوّ الملكيّ، بالرغم من أنّ نائب مديرها وحوالي ١٥ بالمئة من موظّفيها هم من موظّفي الجيش أصلاً، ومن بين الزبائن "المركز المشترك لمخابرات الاستطلاع الجويّ". وكان من بينهم المخابرات المدنيّة وكذلك مخابرات الأسلحة الثلاثة، ويعتقد أنّ المركز يتعامل أيضًا ببعض الأفلام المستوردة من أقمار

الاستطلاع الاصطناعيّة الأميركية. ولا تملك بريطانيا نفسها مثل هذه الأقمار. وكانت بريطانيا قد أطلقت قمر اتّصالات عسكريّة، هو "سكاينت ٢ ـ آ" في العام ١٩٧٤، ولكنّه فشل في الوصول إلى مداره الثابت على ارتفاع ٢٢,٥٠٠ ميل فوق جزر "سيشيل"، فحلّ محلّه قمر الإسناد "سكاينت ٢ ب". وبعد ذلك بقليل دمجت اتّصالات الدفاع البريطانيّة بشبكة منظّمة حلف الأطلسيّ، وعلى العموم، فإنّ تقارير تعود بتاريخها إلى أواخر العام ١٩٨١ تحدّثت عن وجود خطط لإطلاق قمرَي اتّصالات جديدين مستقلَّين لحساب القوّات المسلّحة، هما "سكاينت ٤ ـ آ" و"سكاينت ٤ ب".

ولا يجري استخدام رجال المخابرات العسكريّة بشكل كثيف في العمليّات المستورة. وتتلاءم العمليّات الهجوميّة المستورة أكثر من وحدات "خدمات الطيران الخاصّة SAS"، وتقوم وحدات "العمليّات النفسيّة" أو "بسايوبس Psyops" بتنظيم الدعاية لدعم الحملات العسكريّة. ولهذه الوحدات ونشاطاتها أهميّة خاصّة في العمليّات المضادّة لحروب العصابات، حيث يكون لنشاطاتها هدفان: الأوّل هو كسب ثقة وتعاون السكّان المدنيّين لكي يساعدوا العمليّات العسكريّة بمنع الدعم المدني عن رجال العصابات وتأمين التدفّق الدائم للمعلومات؛ والثاني هو إضعاف معنويّات الثوّار وتشجيعهم على الاستسلام أو الارتداد والهرب.

التخطيط لحملة ما يشمل دراسة الجمهور المحتمل لها لاكتشاف نقاط الضعف عنده، ولتقرير نوع الدعاية التي قد يكون تأثيرها عليه أكبر. وهي دعاية قد يمكن نشرها عبر الملصقات أو المناشير، أو بزرع مقالات في الصحف أو حتّى من خلال إرسال الرسائل إلى رؤساء التحرير... والتعاون بين وكالات المخابرات العسكريّة والوكالات السياسيّة ذات العلاقة يشكّل شرطًا أساسيًا للنجاح... والنموذج البريطانيّ يقترح لجنة مشتركة مؤلّفة من ممثّلين عن فرقة استخبارات الجيش، وعن موظّفي

العمليّات النفسيّة والعلاقات العامّة، ومندوبين عن خدمات المعلومات وعن "الفرع الخاصّ" للشرطة.

في العام ١٩٧١، كان للجيش البريطانيّ فرع للحرب النفسيّة يتألّف من ٣٠ شخصًا. وكان رجال العمليّات النفسيّة موزّعين على ثلاثة مقرّات عبر البحار، وكانت هناك واحدة أخرى مقرّها في وزارة الدفاع. في تلك السنة، تحسّر منظر الثورة المضادّة "فرانك كيتسون"، في كتابه "العمليّات المنخفضة الكثافة"، على ضآلة حجم جهاز العمليّات النفسيّة البريطاني قياسًا بالجيوش الأخرى، فقال: "لا شكّ في أنّ البريطانيّين، يحتلّون المؤخّرة... في هذا المظهر الهام من مظاهر الحرب المعاصرة".

يجري التدريب على العمليّات النفسيّة في "مؤسّسة الحرب المشتركة" التي مقرّها في "كليّة الدفاع الوطنيّ"، في "لاتيمر"، وكانت قد انتقلت إلى هذا المقرّ في نهاية العام ١٩٧٨ من "أولد ساروم"، قرب "ساليزبوري".

تُميّز المؤسّسة بين نوعين من الدورات، أحدهما لضبّاط الإدارة، والآخر لضبّاط الوحدة الذين سيكون عليهم تخطيط العمليّات النفسيّة وتنفيذها. وتشمل دورة ضبّاط الإدارة محاضرات حول ممارسات الدعاية الشيوعيّة، وحول عصابات المدن، وتقنيّات الإعلان الحديث، والخبرات التي اكتُسبت من العمليّات النفسيّة الأخيرة. أمّا دورة ضبّاط الوحدات فتشمل أيضًا محاضرات عن الدعاية والعلاقات المجتمعيّة ودور الوحدة في إطار خطّة شاملة للعمليّات النفسيّة.

في العام ١٩٧٦، أكّدت وزارة الدفاع على أنّه كان قد تمّ تدريب ١٨٥٨ ضابط جيش، و٢٦٢ من كبار الموظّفين المدنيّين، خلال السنوات الثلاث السابقة، على استخدام التقنيّات النفسيّة لأغراض الأمن الداخليّ. وقد تمّ انتقاء الموظّفين المدنيّين من "مكتب إيرلندة الشماليّة" ومن وزارة الداخليّة ووزارة الخارجيّة، ومع ذلك، وبعد أسبوع

واحد من كشف هذه المعلومات، أنكر وزير الداخليّة، "ميرلين ريس"، أن يكون أيّ من موظّفي الوزارة قد ذهب إلى أولد ساروم وأن يكون أيّ من ضبّاط الشرطة قد تلقّى تدريبًا على العمليّات النفسيّة. وبغضّ النظر عن الدورة، فإنّ الضبّاط الرتباء يرسلون أيضًا لتلقّي التدريب في "مدرسة الجيش للحرب الخاصّة" الأميركيّة في "فورت براغ"، كما يقوم مدرّبون من "مؤسّسة الحرب المشتركة" بزيارات إلى بلدان الكومنولث لإلقاء محاضرات فيها. ولدى المؤسّسة مدرّبان على العمليّات النفسيّة، يعملان في "الفرع ٧".

بالرغم من أنّ الوحدات القتاليّة للحرب النفسيّة قد تكون صغيرة من حيث العدد، فإنّ الجيش البريطانيّ يتوقّع لنفوذها أن يكون واسع النطاق إلى حدّ بعيد. وقد صُمّم تشكيل الوحدة الأساسيّة بحيث تكون هذه الوحدة مستقلّة، تضمّ ضبّاطًا برتبة ميجر أو كابتن واثني عشر رتيبًا، بالإضافة إلى ما يلزم من مدنيّين. وتكون هذه الوحدات مجهّزة بشاحنات مقفلة وسيّارات "لاندروفر" تحمل مكبّرات الصوت وأجهزة تسجيل وآلات لعرض الأشرطة السينمائيّة، ولكلّ من هذه الوحدات قدرات في مجال التصوير الفوتوغرافي وتجهيزات محدودة لطباعة المنشورات ذات التصميم البسيط.

وبالعمليّات النفسيّة، اكتسبت القوّات المسلّحة ومؤسّسة الدفاع، أو ستكتسب القدرة على شنّ حملات سياسيّة لملاحقة أهداف عسكريّة كليًّا، بشكل مستقلّ عن النظام السياسيّ، أي من دون الإشارة إليه.

وفي تقرير بعنوان: "الرأي العام والخدمات المسلّحة"، أكّد البريغادير سي. بي. آر. بالمر على أنّ قدرة بريطانيا على الدفاع عن نفسها قد تعتمد على كيفيّة تأثّر الرأي العام بالإعلام أكثر ممّا تعتمد على قوّتها من حيث عدد الجنود وكميّات السلاح والعتاد العسكريّ. ولقد كان تردّد منظّمة حلف شمال الأطلسيّ حول نشر أسلحة الإشعاع المعزّز، أو ما يُسمّى بـ "القنبلة النيوترونيّة"، نتيجة لضغط الرأي العام على حكومات

الحلف، الذي لعبت فيه دعاية الكتلة السوفياتيّة دورًا مساعدًا"... كما يقول بالمر. ولو وُظّفت العمليّات النفسيّة بالشكل الملائم لكان بإمكانها، ضمنًا، تجاوز هذه الصعوبة... وفهم العسكريّين لما يشكّل الدفاع الذاتيّ لا يتطابق بالضرورة مع فهم قطاعات حكوميّة أخرى أو مع فهم الجماهير بشكل واسع، ولكنّ الاستخدام الأكثر فاعليّة واتساعًا للعمليّات النفسيّة سوف يمكّن العسكريّين من الغلبة السياسيّة في أحيان أكثر. والدفاع الأساسي للحكومة ضدّ هذه الحملة هو جهاز أمنها، الذي هو في بريطانيا MI-5[1].

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٥: ٢٣٨ ـ ٢٤٢.

تَرَاجُع أهميَّة المخَابرات البَريطَانيَّة أمَام الأَميركيَّة

يقول باحثون إنّه في السنوات الأخيرة، أصبح الاتّهام بـ "الإرهاب" هو المبرر الذي تلجأ إليه الدول الإمبريالية الصناعيّة الغربيّة، بقيادة الولايات المتّحدة الأميركية، لقمع أيّ حركة تحرّريّة، وطنيّة كانت أم جماعيّة، لا تتماشى أهدافها مع الخطط المعقّدة والمتشابكة التي تستند إليها الإمبريالية العالميّة في استنزافها لثروات وقدرات وطاقات العالم الثالث من أقصاه إلى أقصاه، وبعض البلدان الأوروبيّة الأضعف كذلك.

وإلى جانب تهمة "الإرهاب" هناك تهمة رديفة توجّه إلى كلّ حركة تحرريّة، أو حتّى صوت تحرّريّ، ألا وهي تهمة "العمل على زعزعة الاستقرار" وصولاً إلى الاتّهام بـ "الإخلال بالتوازن العالميّ"، إذا تمكّنت حركة تحرريّة ما من الصمود لأطول ممّا كانت القيادات والأدوات الإمبريالية تتوقّع، كما حصل في نيكاراغوا، حيث كانت تدّعي الولايات المتّحدة الأميركية، القوة العظمى في العالم، أنّها تواجه تهديدًا خطيرًا موجّهًا إلى سلامتها وأمنها بوجود الساندينيّين في الحكم في نيكاراغوا، البلد الفقير الذي لا يزيد عدد سكّانه عن ثلاثة ملايين نسمة.

ثمّ لا بدّ لوسائل "الدعاية السوداء" التي تديرها أجهزة مخابرات الدول الإمبريالية العاملة بالتنسيق في ما بينها، من أن تضيف إلى تهمتَي "الإرهاب" و"زعزعة الاستقرار" التهمة الإيديولوجيّة التي تجعل من كلّ عمل مضادّ لحركة التحرّر، ومهما كان وحشيًّا أو مخالفًا لشرائع الإنسانيّة، عملاً مبررًا بل ومطلوبًا بإصرار من قِبَل الرأي العامّ الغربيّ. وهذه التهمة الإيديولوجيّة هي دومًا الشيوعيّة أو اليساريّة في

أقصى حالات الرأفة، كما كان يحصل عندما تتوقّع وسائل الإعلام الغربية ـ الصهيونيّة أنّ أيّ دولة فلسطينيّة يُحتمل قيامها لا بدّ وأن تكون شيوعيّة أو أداة في يد موسكو، بالرغم من سيطرة بعض التيّارات اليمينيّة على القيادات التقليديّة لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة.

ومنذ نهاية الحرب العالميّة الثانية، وإقرار شرعة الأمم المتّحدة، التي تمنع السيطرة على أراضي الغير بالقوّة، ونظرًا للتكاليف الباهظة جدًّا للحروب المباشرة قياسًا بالمردود المتوقّع منها حتّى في حالة الانتصار، أصبحت "الديمقراطيّات" الغربيّة تعتمد، في مدّ سيطرتها إلى مناطق جديدة في أنحاء العالم أو في تثبيت دعائم سيطرة سابقة لها اهتزّت بسبب الموجة التحرّريّة الاستقلاليّة التي اتّسع انتشارها بين الشعوب والأمم المستعبدة، أصبحت تعتمد على الوسائل الأقلّ مباشرة، والتي تحمل عادة تحت اسم المخابرات على تعدّد وتنوّع اختصاصاتها وطرق تدخّلها، إلاّ في حالات خاصّة معيّنة لجأت فيها الدول الإمبريالية إلى الغزو العسكريّ المباشر أو بالواسطة كما في حالات فييتنام وغرينادا، وفي كلّ حالات الغزو الصهيونيّ للبلاد العربيّة المجاورة. ومنها غزوها للبنان في العام ١٩٨٢.

ويعتمد عمل أجهزة المخابرات الإمبريالية، بشكل عام، في تدخّلها بشؤون الشعوب الأخرى المستضعفة ومحاولة إخضاعها، على نشاطَين متوازيَين يمكن اعتبار أحدهما سلبيًّا والآخر إيجابيًّا. الأوّل يشمل جمع المعلومات وتنسيقها وتحليلها والخروج منها باستنتاجات محدّدة تلعب دورًا كبيرًا في رسم السياسات العليا، الداخليّة والخارجيّة للبلاد، تجاه التحرّكات الداخليّة وتجاه البلدان الأخرى. والثاني، وهو الأخطر، ويعتمد في العادة على ما تمّ جمعه سابقًا من معلومات استخباراتيّة، يشمل التدخّل المباشر في شؤون الدول الأخرى، عبر العمليّات المستترة أو السريّة، التي تتراوح، في تنوّعها،

بين تأمين الدعم الماليّ أو الإعلاميّ والسياسيّ لأطراف معيّنة موالية، وإرسال المرتزقة لمحاربة الثورات التحرّريّة بالوكالة عن الدول غير الراغبة في إرسال جيوشها علنًا، وتحضير الانقلابات العسكريّة، وشنّ الحروب الاقتصاديّة والإعلاميّة... إلخ.

وللمخابرات البريطانية دور عريق في هذه العمليّات، بل ربّما كان الأعرق بين أجهزة المخابرات الإمبريالية والاستعماريّة الأخرى كافّة، وإن كان هذا الدور قد تراجع في السنوات الأخيرة، بعد أن تعملق دور المخابرات الأميركيّة وتضخّم حجم عمليّاتها المستترة إلى حدود شبه خياليّة، وأصبحت عمليّات المخابرات البريطانيّة، في حالات كثيرة، جزءًا من عمليّات المخابرات الأميركيّة، أو تابعًا لها، مع أنّ المخابرات البريطانيّة هي التي رعت ولادة وترعرع المخابرات الأميركيّة في مرحلة ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة.

وفي معظم الحالات، وكما يظهر بوضوح، تتّسم العمليّات المستترة بصفة الإرهاب الحقيقيّ والمنظّم الذي مارسته بريطانيا العظمى، حتّى في أيّام تراجع عظمتها وتحوّلها إلى دولة تقع في منزلة الوسط بين الدول المتقدّمة والدول شبه المتخلّفة، وعلى مدى السنوات الأربعين التي انقضت على نهاية الحرب العالميّة الثانية، ضدّ شعوب العالم الثالث التي كانت جزءًا من أمبراطوريّتها البائدة في آسيا وأفريقيا، وحتّى في أوروبّا (إيرلندا الشماليّة)، حتّى أنّ مسؤولاً سابقًا في المخابرات الأميركيّة، قد ارتدّ وفضح الأعمال الإجراميّة لوكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة، في أكثر من كتاب له، ممّا أدّى إلى تشرّده هاربًا أبدًا أو مطرودًا أبدًا من بلد إلى آخر، وهو "فيليب آغي" الذي وصف الأعمال المستترة للمخابرات البريطانيّة، بأنّها "تتّسم بالإرهاب والفحش والقذارة الصرفة".

ولم تتورّع المخابرات البريطانيّة عن أن تستخدم في عمليّاتها المستترة كلّ وسائل الإرهاب مهما كانت وحشيّتها، وعلى تنوعها وتعدّدها، بل هي استخدمت فيها أيضًا منظّمات واجهة كثيرًا ما ادعى الغرب، زيفًا، حيادها وترفّعها عن الانحياز، بالإضافة إلى استخدامها منظّمات وهيئات تدّعي أنّ مهمّتها تقتصر على رعاية التبادل الثقافيّ بين الشعوب، تتوزّع مكاتبها الناشطة بهدوء في معظم أنحاء العالم الثالث، أو تدّعي لنفسها مهمّات إعلاميّة بحتة مثل "هيئة الإذاعة البريطانيّة" وعشرات وكالات الأنباء والخدمات الصحافيّة.

أمّا حيث كانت الأوضاع تصل مرحلة معيّنة من السخونة تستدعي التدخّل بالرجال والسلاح، فكانت المخابرات البريطانيّة تلجأ إلى المرتزقة، تجنّدهم بنفسها أو توافق ضمنًا على تجنيدهم وتغضّ النظر عنه. ويشار إلى أنّ ما من عمليّة لتجنيد المرتزقة تمّت في بريطانيا إلاّ وكانت قد حصلت على إذن مسبق، علنيّ أو ضمنيّ، من أجهزة المخابرات البريطانيّة، وعبرها من أعلى السلطات الحكوميّة، مع العلم أنّ أجهزة المخابرات لا تخضع دومًا لسلطات الحكومة، بل كثيرًا ما تخضع الحكومة لسلطتها.

بالإضافة إلى هذا كلّه، فإنّ الأجهزة المخابراتيّة المشرفة على العمليّات المستترة، كثيرًا ما ترتكب أعمالاً إجراميّة موجّهة إلى المصالح البريطانيّة نفسها، أو إلى مصالح بلدان صديقة أو حليفة، كما في عمليّات التفجيرات أو السطو على المصارف في الجمهوريّة الإيرلنديّة وعاصمتها دبلن، وذلك لكي تلصق التهمة بالحركات التحرّريّة، وتبرز عمليّاتها الأكبر ضدّها.

وإذا كان من الواضح أنّ العمليّات المستترة أصبحت هي الوسيلة الرئيسيّة والأساسيّة لفرض الدول الصناعيّة الإمبريالية الغربيّة ـ وبريطانيا ما زالت تحتلّ مركزًا هامًّا في صفوفها ـ سيطرتها المطلقة، اقتصاديًّا وسياسيًّا على أنحاء العالم

الأخرى، فإنّ هذه العمليّات بالذات تفضح هشاشة مزاعم "الديمقراطيّات" الغربيّة في أنّها تقوم بكلّ ما تقوم به "دفاعًا عن الحريّة" وهذا ادّعاء مفضوح سلفًا.

من هذا القبيل الدور الذي لعبته المخابرات البريطانيّة في إفشال انقلاب هاشم العطا ضدّ النميري في السودان، والثمن الذي دفعته حكومة لندن للنميري مقابل توجّهه غربًا... ومثل الانقلاب الذي نظّمته المخابرات البريطانيّة بالاشتراك مع إسرائيل لإيصال عيدي أمين إلى السلطة في يوغندا، قبل أن ينقلب هذا الأخير على أسياده لأنّهم لم يسمحوا له بغزو تانزانيا... ومثل محاولة المخابرات البريطانيّة في الإطاحة بأنظمة الحكم في سورية ومصر والسعودية معًا، وبمساعدة نظام نوري السعيد في العراق في خمسينات القرن العشرين... والدور الذي كان للأجهزة البريطانيّة في مثل هذه الأحداث وسواها، وإن تحت إشراف ورعاية مخابرات الولايات المتّحدة الأميركية، التي تتزعّم، بلا منازع، العمليّات الإرهابيّة المستترة التي تنفّذ بعضها بمفردها، وبعضها الآخر بالشراكة مع المخابرات الغربيّة الأخرى، وعلى رأسها تلك البريطانيّة[1].

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٥: ٢٣٣ ـ ٢٣٨.

العَميلُ البَريطَانيُّ الذي رفَضَ السُّكوت

كان "توملينسون" ضابطًا سابقًا في جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6، حاولت الحكومة البريطانيّة في مرّات عدّة إسكاته وإغواءه في العودة إلى بريطانيا بعد أن طرد من جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6 عام ١٩٩٦، لكن دون جدوى. فإنّ توملينسون كان يتنقّل من بلد إلى آخر ويتجاوز محاولات أسره وإيذائه التي كانت تنفيها الحكومة البريطانيّة.

تبدأ قصّة توملينسون منذ تجنيده في قوّات المخابرات الخاصّة SIS بعد نيله درجة الامتياز في الهندسة الجويّة من جامعة كامبريدج. ثمّ خدم في ما بعد في فرع سلاح الجوّ الخاصّ 21، وحصل على أفضل العلامات. بعد ذلك تعرّض للطرد بعد أن خدم في "البوسنة" أثناء أحداثها فاعتبر أنّ طرده تصرّف غير عادل، لكنّ محامي الدفاع لا يمكنه القيام بشيء كبير طالما أنّ هذا الجهاز يمكن أن يضع السبب ضمن "أسباب أمنيّة" لا يمكن الكشف عنها. وحاول توملينسون تزكية نفسه وأصرّ عبر الكتابة على التحدّث عن خدمته، فاعتقله فرع جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6، ووضعه في السجن لمدّة عام، بتهمة الكشف عن أسرار رسميّة.

إثر ذلك، بدأ توملينسون يعدّ كتابًا حول المخابرات البريطانيّة، وتعرّض للتهديد والضغط بسبب تسليم كلّ ما كتبه لأحد الناشرين الأستراليّين. وفي أيّار ـ مايو ١٩٩٨، أُطلق سراحه فاضطُرّ بعد ضغوط متزايدة من المخابرات البريطانيّة للفرار من بلد إلى آخر، لتجنّب ما يمكن أن تفعله ضدّه المخابرات البريطانيّة. وأثناء ذلك حاولت

المخابرات الألمانيّة، وكذلك الفرنسيّة، بذل جهود جبّارة من أجل إغوائه بتزويدهما بما لديه من حقائق عن جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6، لكن من دون جدوى، بسبب رفضه.

يقول توملينسون إنّه تعرّض للاعتقال والاستجواب في ١١ مناسبة دخل في بعضها رجال الأمن إلى بيته... وفي ٦ دول كان يتنقّل بينها. وهو الآن ممنوع من دخول الولايات المتّحدة وأُستراليا وفرنسا وسويسرا، وتعرّض في ألمانيا للتهديد وكذلك في نيوزيلاندا، ما دفعه إلى العيش في إيطاليا... وفي آذار ـ مارس ٢٠٠٠، اقتحمت الشرطة الإيطاليّة منزله وصادرت الكومبيوتر الشخصي وهاتفه النقّال وأقراص الكومبيوتر وأوراقًا أخرى وسلّمت كلّ ذلك إلى ضابطين مندوبين عن فرع جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6، ولم تتمّ حتّى الآن استعادة تلك الأشياء.

أمّا كتابه فقد تمّ تسريبه إلى روسيا للمراجعة ولم تستطع الحكومة البريطانيّة ومخابراتها منع دخول ذلك الكتاب إلى داخل بريطانيا خصوصًا حين يتمّ عرضه على شبكة الإنترنت. وفي مقدّمة كتابه، يقول توملينسون: "إنّ جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6، اعتقلني وعذّبني باسم قانون أدانته الأمم المتّحدة في ٢٠ تمّوز ـ يوليو ٢٠٠٠، حول سجلّ حقوق الإنسان في بريطانيا". لكنّ الكثير من البريطانيّين الذين يتعاطفون مع جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6 يبرّرون لهذا الجهاز محاولة إسكات توملينسون بسبب ما يعرفه وما كشفه حتّى الآن...

ففي هذا الكتاب يكشف توملينسون عن مؤامرة أعدّها جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6 لاغتيال "سلوبودان ميلوسوفيتش"، وعن شخصيّة "هنري بول"، السائق الذي قُتل مع الأميرة دايانا... الذي يعتبره الكتاب ضابطًا في جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6 عمل في باريس، الأمر الذي يثير شكوكًا حول وجود مؤامرة في مسألة موت دايانا.

بعد صدور الكتاب وتوزيعه في روسيا، أصبح من الواضح أنّ المخابرات البريطانيّة والحكومة فشلتا تمامًا في محاولتهما عدم وصول مادّة هذا الكتاب إلى العالم. وحتّى شباط ـ فبراير ٢٠٠١، تمّ استيراد وبيع ما يقرب من ١٥,٠٠٠ نسخة من هذا الكتاب عن طريق الناشرين الذين كان بإمكانهم توزيع عشرات الأضعاف منه... وفي هذا الكتاب يعطي توملينسون تفصيلاً مهمًّا عن عمل جهاز SIS. ورغم أنّ قسمًا من هذا التفصيل يمكن معرفته إذا أمعن الإنسان النظر جيّدًا، إلاّ أنّ هناك الكثير من المعلومات المهمّة.

يقول توملينسون في كتابه: "إنّ ما يقوم به جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6 من عمل وما يحصل عليه من معلومات يُعرف عادة بالتقرير الذي يحمل إسم CX، وهي اختصار بدئ باستخدامه منذ إنشاء جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6 ، يدلّ على أوّل حرفين من عبارة رئيسه "مانسفيلد كامينغ" هي خاصّ جدًّا من كامينغ Exclusively Cumming" أي CX إختصارًا. ثمّ يتحدّث عن وجود "ضبّاط ارتباط" من جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6، يعملون مع الشركات البريطانيّة، ويقدّمون لها تقارير تحمل صفة CX، وهذا التقرير: CX، يتمّ جمعه على مستوى دوليّ من قبل خلايا صغيرة تعمل داخل السفارات البريطانيّة ويُطلق عليها اسم "محطّات". ويُذكر أن جهاز الاستخبارات المركزيّة الأميركيّ CIA يستخدم التعبير نفسه.

ويتمّ تصنيف التقرير الذي ترسله هذه الخلايا بموجب أهميّته قبل إرساله إلى بريطانيا بوضع نجمة أو اثنتين أو أكثر... فوضع نجمتين يشير إلى تدنّي أهميّته، وعادة ما يطّلع عليه الضبّاط الصغار، أمّا الذي يحمل ثلاث نجوم فيمكن أن يطّلع عليه رئيس مكتب خارجيّ أو وزارة الدفاع، وما يحمل أربع نجوم يكون مهمًّا جدًّا لمن هو

في منصب سكرتير دائم على سبيل المثال... ولا يطّلع على التقرير الذي يحمل خمس نجوم إلاّ من هو في أعلى المناصب في الحكومة.

ويقول توملينسون في كتابه المذكور إنّ هناك ٥٠ محطّة تابعة لجهاز المخابرات البريطانيّ MI-6 تقريبًا في العالم، وعادة ما يكون رئيس المحطّة ضابطًا كبيرًا في الأربعينات من العمر، يعمل تحت غطاء مثل مستشار، ويصرّح باسمه لمخابرات الدولة المضيفة عادة، في حين أنّ الضبّاط الآخرين داخل المحطّة لا يصرّح عن أسماء معظمهم. وكلّ محطّة يتمّ ربطها وإدارتها عن طريق مقرّ جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6 في تقاطع "فوكسهول" في لندن، وتضمّ كلّ محطّة رئيسًا ومحاسبًا يُعدّ ترتيب المستلزمات الخاصّة بالعمل. ويضمّ جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6 ٢,٣٠٠ موظّف دائم، ٣٥٠ منهم من فرع ضبّاط المخابرات التابع لدائرة المخابرات البريطانيّة AB، و٨٠٠ من الضبّاط الإداريّين الذين يعملون في الشؤون الفنيّة والإداريّة. وهناك حوالى ألف يعملون كموظّفين للخدمات وكحرّاس وسائقين وطبّاخين وميكانيكيّين.

وإلى جانب حديثه عن عدد من العمليّات التي قام بها جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6، يتحدّث توملينسون في الكتاب بدقّة فريدة عن الطرق التي يتّبعها الجهاز في تجنيد المتطوّعين وعن التدريب.

لعلّ قيادة المخابرات البريطانيّة كانت ترغب في عدم نشر هذه التفاصيل التي جاء المؤلّف على تعدادها. ويستشهد توملينسون بجزء من التدريب الذي خضع له في "مقرّ فورت مونكتون" في مدينة "بورت ماوت" فيقول:

"تُشكّل فورت مونكتون القاعدة المهمّة للتدريب المتعدّد، وهي تقع في شبه الجزيرة البريطانيّة "غوسبورت"، ولا يمكن الدخول إليها إلاّ عن طريق الجسر المتحرّك، وفيها ساحة كبيرة للتدريب على الإطلاق والتصويب من المسدّسات، واستوديوهات تصوير

وورشات فنيّة، ومختبرات، وقاعات محاضرات... وفيها موقع يمكن أن تهبط فيه طائرة مروحيّة".

أمّا المهمّة الأولى التي طُلب من توملينسون القيام بها، فهي إنشاء وكالة أنباء إحتياليّة في قلب مدينة لندن، بهدف جذب وإغواء أفراد من الجيش الروسيّ أو المخابرات الروسيّة للهروب إلى بريطانيا. وبعد إنفاق ما يقارب من ٤٠ ألف جنيه بريطاني وجهود ثلاثة أشهر، لم تتمكّن وكالة الأنباء هذه من النجاح في مهمّة واحدة من هذا النوع... وقد تمّ إطلاق إسم "تروفاكس" على وكالة الأنباء هذه، وتبيّن أنّها عملت في هذا الحقل حقًّا، وتأكّد هذا الأمر من قبل محلّل عسكريّ روسيّ حاول توملينسون تجنيده عام ١٩٩٢.

بعد سنة من هذه المحاولة، أُبلغ توملينسون في الربيع بانتقاله إلى قسم روسيا في جهاز المخابرات البريطانيّ MI-6 في لندن، حيث تعيّن عليه القيام بعمل كثير في هذا القسم.

ويتحدّث توملينسون في أحد الفصول عن الدورة التي يطلق عليها إسم "أيونيك"، وهذا اختصار يعني "دورة الدخول لضبّاط المخابرات". ففي هذه الدورة تلقّى توملينسون والعملاء والضبّاط الآخرون معه مهمّة غير عاديّة يقول عنها: "في أوّل سلسلة من الامتحانات والاختبارات المتتابعة المعقّدة، طُلب من كلّ واحد منّا الجلوس في بار بريطانيّ لكي نقترب من أحد القادمين إليه، ونستخلص منه، عبر الحوار، معلومات تدلّ على اسمه وعنوانه وتاريخ ولادته ومهنته بل ورقم جواز سفره، وقد تعيّن عليّ القيام بذلك، فذهبت إلى أحد البارات في شارع "غريت ساوث إيست"، فوجدته خاليًا، ثمّ بعد أن تناولت كأسًا، دخل شابّ وفتاة، ثمّ فتاتان... ورتّبت الأمر معهما بطريقة ذكيّة قلت فيها إنّني أملك يختًا وبحاجة إلى من يعمل فيه. ولكي يتمّ

خروج من يعمل فيه لا بدّ من ترتيب خروجه من البحر بجواز سفر... وهكذا حصلت على أرقام جوازَي سفرهما... وزعم آخر أنّه فرنسيّ، وراهن على أنّ جميع الجوازات البريطانيّة تنتهي بثلاث ستّات (٦٦٦) وكان الرهان على زجاجة ويسكي... فذهب أحدهم وأحضر جواز سفره لكي يكسب الرهان... وهكذا تعرّف ضابط المخابرات على رقم جواز سفره"...

نوقش كتاب "التسريب الكبير" في البرلمان البريطانيّ، وقال "توم كينغ"، رئيس اللجنة البرلمانيّة لشؤون المخابرات والأمن:

"من السذاجة الاعتقاد بعدم وجود دعم لكتاب توملينسون من المخابرات الروسيّة".

لكنّ توملينسون ينفي أن تكون له أيّ علاقة بالمخابرات الروسيّة، ويبدي استعداده للعودة إلى لندن وإجراء محاكمة حول طرده من وظيفته لعدم توفّر العدالة فيها.

ومهما يكن من أمر، يبقى كتاب ضابط المخابرات البريطانيّ ريتشارد توملينسون من الكتب الهامّة في هذا العالم، باعتباره يتناول موضوعًا حسّاسًا، بل شديد الحساسيّة والخطورة في آن. كما أنّ الموضوع الذي يتناوله يُعتبر من المحظورات الممنوع المساس بها على الإطلاق... وهذا ما يصحّ فيه القول إنّ "كلّ ممنوع مرغوب"[١].

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، ص٢٤٧ ـ ٢٥٤؛ عن: مجلّة "المحرّر العربي"، العدد ٣٣٩، ٥ ـ ١٢ نيسان ـ أبريل ٢٠٠٢، ص٢٠.

لائحة المراجع والفهرس

لائحة المراجع

أندرو كرستوفر، غورديسكي أوليغ، الاستخبارات السوفياتيّة في العالم ١٩١٧ ـ ١٩٩١، ترجمة هنادي السمرا، رينا شربل، نادر عسيران، دار الحقيقة (بيروت،١٩٩١)

بلوش جوناثان وفيتزجيرالد باتريك، الاستخبارات البريطانيّة وعمليّاتها السريّة، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسّسة الأبحاث العربيّة (بيروت،١٩٨٧)

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٩)

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

الجزائري سعيد، ملفّ الثمانينات عن حرب المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٨٩)

زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الفرنسيّة والبريطانيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

سنجر كيرت، أعلام الجاسوسيّة العالميّة، ترجمة بسّام العسلي، دار اليقظة العربيّة (بيروت،١٩٦٥)

صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، إغتيالات وأكاذيب وارتزاق، ترجمة د. محمّد معتوق، دار بيسان (بيروت،٢٠٠٠)

عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت، لا.ت.)

الفاتح زهدي، لورنس العرب على خطى هرتزل، دار النفائس (بيروت،١٩٧١)

فولكمان إرنست، الجواسيس عملاء سريّون غيّروا مجرى التاريخ، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٩)

كالفي فابريسيو وشميدت أوليفر، تعريب ريمة الفوّال، التاريخ الأسود للاستخبارات السريّة، دار الجيل (بيروت،١٩٩٨)

هيرش سيمور م.، خيَار شمشوم، الترجمة العربيّة، مكتبة بيسان (بيروت،١٩٩٢)

Boyle Andrew, *The Climate of Treason,* Hutchinson (London, 1979)

Clark Ronald W., *Einstein: The Life and Times,* Hodder & Stoughton (London,1973)

Colville Jhon, *The Fringes of Power,* Hodder and Soughton (Londres,1985)

Costello John, *Mask of Treachery,* Collins (London,1988)

Driberg Tom, *Guy Burgess: A Portrait with Background,* Weidenfeld Nicholson (London,1956)

Guillebaud C. W., *Politics and the Undergraduate in Oxford and Cambridge,* Cambridge Review, Jan. 26, 1934.

Hays Garfield, Cité in Fritz Tobias, *The Reichstag Fire: Legend and Truth,* Secker & Warburg (London,1936)

Henry Ernest, *Halte au terrorisme!* Novosti (Moscou,1982)

Hollander Paul, *Political Pilgrims,* Oxford University Press (Oxford,1981)

Johnston William M., *The Austrian Mind,* University of California Press, (Berkeley,1983)

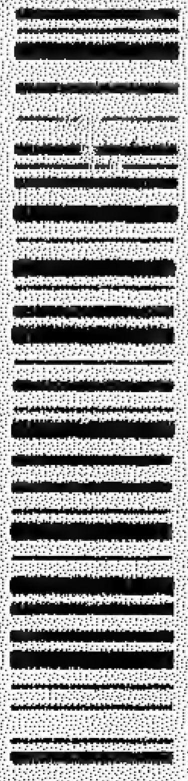
Karolyi Catherine, *A Life Together,* Allen & Unwin, (Londres,1961)

Knightley Phillip, *Philby: KGB Master Spy,* André Deutsch (London,1988)

Lawford V. G., *Bound for Diplomacy,* Jhon Murray (Londres,1963)
Rees Goronwy, *A Chapter of Accidents,* Chatto and Windus (London,1971)
Staight Michael, *After Long Silence,* Collins (Londres,1983)
Strojanoff P., Reichstagsbrand: Die Prozesse in London und Leipzig, Europa Verlag (Vienne,1966)

الفهرس

الموضوع	الصفحة


Bibliotheca Alexandrina
0586431